نارينيه أبغاريان

Наринэ Абгарян

ثلاث تفاحات سقطت من السماء

С НЕБА УПАЛИ ТРИ ЯБЛОКА

ترجمها عن اللغة الروسية

د. فؤاد المرعي

رواية

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

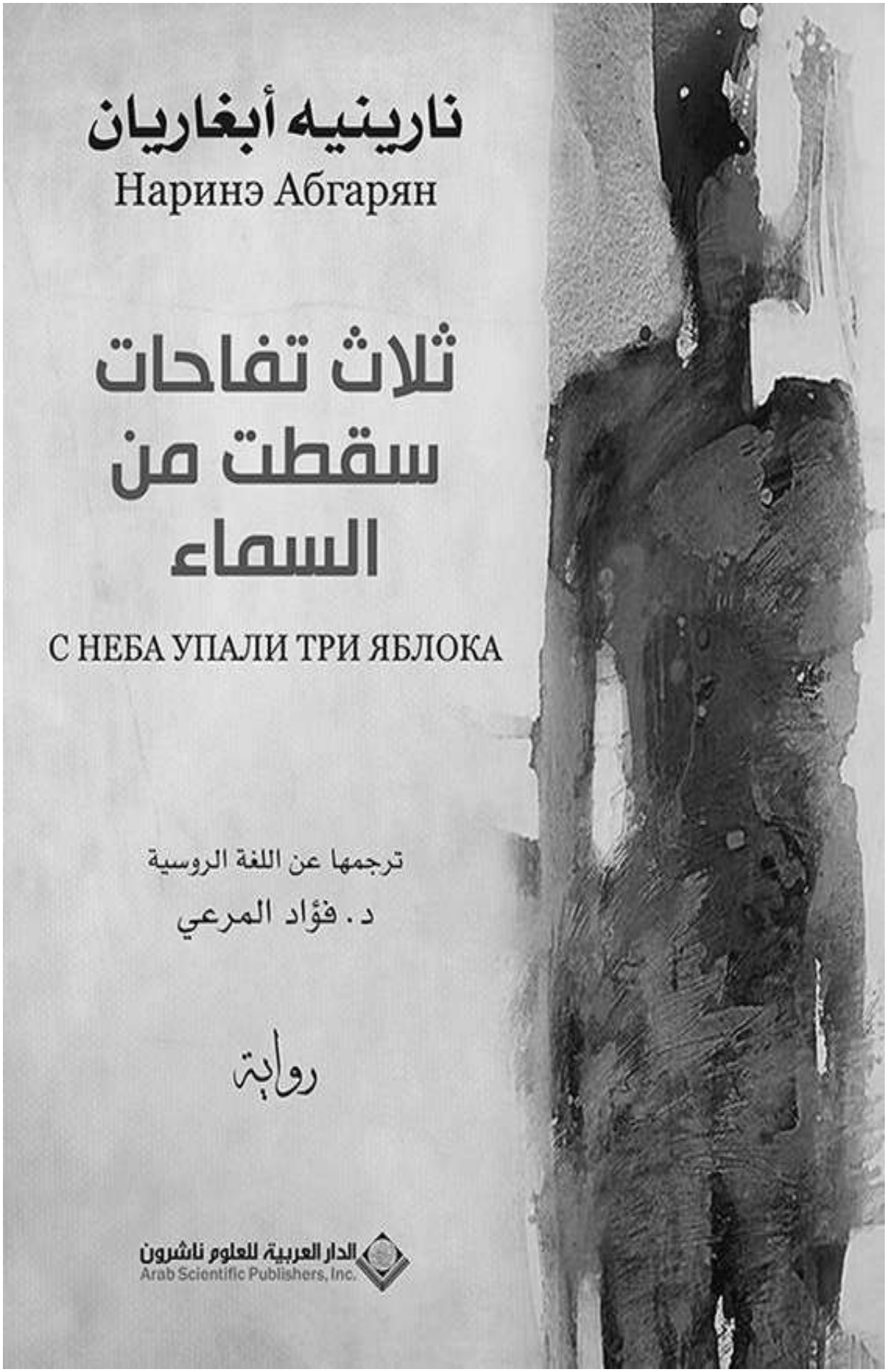

نارينيه أبغاريان

Наринэ Абгарян

ثلاث تفاحات سقطت من السماء

С НЕБА УПАЛИ ТРИ ЯБЛОКА

ترجمها عن اللغة الروسية

د. فؤاد المرعي

رواية

الدار العربية للعلوم ناشرون

Arab Scientific Publishers, Inc.

ثلاث تفاحات سقطت من السماء

ثلاث تفاحات سقطت من السماء

С НЕБА УПАЛИ ТРИ ЯБЛОКА

نارينيه أبغاريان

Наринэ Абгарян

بسم الله الرحمن الرحيم

ثلاث تفاحات سقطت من السماء

يتضمن هذا الكتاب ترجمة النسخة الروسية

С НЕБА УПАЛИ ТРИ ЯБЛОКА (Three Apples Fell From the Sky)

Translation is sponsored by Institute for Literary Translation

1 Nikoloyamskaya Street, Moscow, 109189, Russian Federation

حقوق الترجمة العربية مرخص بها قانونياً من المؤلف Narine Abgaryan ممثلاً بالوكيل

Banke, Goumen & Smirnova Literary Agency AB,

Föreningsg. 48C, 212 14 Malmö, Sweden

بمقتضى الاتفاق الخطي الموقع بينه وبين الدار العربية للعلوم ناشرون، ش.م.ل.

First published in the Russian language by Astrel imprint,

St. Petersburg, Russia, © Narine Abgaryan, 2015

The publication of the book was negotiated through

تم الاتفاق على نشر الكتاب عبر

Banke, Goumen & Smirnova Literary Agency (www.bgs-agency.com).

All rights reserved

Arabic Copyright © 2015 by Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

الطبعة الأولى: أيار/مايو 2017 م - 1438 هـ

ردمك 9786140232570

جميع الحقوق محفوظة للناشر

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل

Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم

هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)

ص.ب: 13-5574 شوران - بيروت 2050-1102 - لبنان

فاكس: 786230 (1-961+) - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb

الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

facebook.com/ASPArabic

twitter.com/ASPArabic

www.aspbooks.com

asparabic

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مضروءة أو أية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات واسترجاعها، من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي **الدار العربية للعلوم ناشرون** ش.م.ل

تصميم الغلاف: **علي القهوجي**

التنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت - هاتف 785107 (1-961+)

الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت - هاتف 786233 (1-961+)

الجزء الأول

إلى ذلك الذي رأى

الفصل الأوّل

في يوم الجمعة، بعد منتصف النهار مباشرة، حين اجتازت الشمس قبّة السماء، وتدحرجت برزانة نحو الطّرف الغربي من الوادي، رقدت سيفويانتس أناتوليا في سريرها تستقبل الموت.

إنها، قبل أن تغادر إلى العالم الآخر، روت الزرع في حاكورتها حتّى الإشباع، ونثرت الحَبَّ للدجاجات بوفرة – فلا أحد يعرف متى سيكتشف الجيران جثّتها الهامدة، ولا يجوز أن تبقى الطيور جائعة. بعد ذلك رفعت أغطية البراميل الموضوعة تحت مزاريب المطر – خشية هبوب عاصفة مفاجئة، فتؤدّي المياه المتدفّقة من أعلى إلى هدم أساسات البيت. ثمَّ راحت تتفحص الأشياء على رفوف المطبخ، جمعت المؤونة التي لم تُؤكل كلّها – علب الزبدة، والجبنة، والعسل، وقطعة الخبز، ونصف دجاجة مسلوقة، وحملت ذلك كلّه إلى القبو البارد. أخرجت من الخزانة الثوب الذي أعدّته "لساعة موتها"، وهو ثوب صوفي بسيط طويل بياقة بيضاء من الدانتيل، وله جيبان ظاهران، وحذاء من دون كعب، وجوارب سميكة محيكة يدوياً (قدماها كانتا طول حياتها تعانيان من البرد)، وثياباً داخلية مغسولة بعناية ومكويّة، وأخرجت أيضاً مسبحة جدتها التي يتدلى منها صليب فضي – ستفطن ياسمان فتضع المسبحة في يدها حين تموت.

وضعت الملابس في مكان بارز في غرفة المعيشة – على طاولة ثقيلة من خشب السنديان مغطاة بقماش خشن (إذا رفعت طرف هذا الغطاء ستلحظ أثرين عميقين واضحين لضربات فأس)، ووضعت فوق الثياب التي أعدّتها لساعة موتها مغلفاً فيه نقود، هي تكاليف دفنها، وأخرجت من خزانة صغيرة قطعة قماش مشمع، حملتها ومضت بها إلى غرفة النوم. رتبت السرير، وقصت قطعة المشمع نصفين، فردت أحدهما على الفراش، ثم تمددت فوقه وغطت جسدها بالنصف الآخر، ثم فردت اللحاف فوقه، صالبت يديها فوق صدرها، وحركت رأسها كي يستقر في وضع مريح فوق الوسادة، ثم أطلقت زفرة عميقة وأغمضت عينيها. لكنها سرعان ما نهضت، ففتحت النافذة على مصراعيها وسندت دفتيها بأصيصين فيهما نبتتا غيرانيا كيلا تنغلقا، ثم تمددت في السرير مجدداً. إنها تستطيع الآن ألّا تخشى أن تهيم روحها تائهة بين الغرف حين تفارق جسدها الفاني. إن روحها حين تتحرر ستطير مباشرة عبر النافذة لملاقاة السماء.

كانت هذه التحضيرات الدقيقة والمفصلة تخفي وراءها سبباً وجيهاً وحزيناً – ها هو ذا اليوم الثاني الذي تنزف فيه سيفويانتس أناتوليا دماً. لقد لاحظت في البداية بقعاً بنية غامقة فتجاهلتها، لكنها دققت النظر فيها فيما بعد فتأكدت أنها دم، وشرعت تبكي. غير أنها خجلت من جبنها، فلامت نفسها، ومسحت دموعها بطرف غطاء رأسها بسرعة، فلماذا البكاء ما دام تفادي ما هو محتوم مستحيلاً. إن لكل امرئ أجلاً، بعضهم يتوقف قلبه، وبعضهم يكتئب فيفقد عقله، أما هي فقدرها أن تموت بسبب النزيف.

لم تكن أناتوليا تشك في أن مرضها عضال وسريع، إذ ليس من العبث أنه أصاب الجزء العديم الفائدة والعديم المعنى من جسدها – الرحم، وكأنه يلمح إلى أن هذا عقاب لها لأنها لم تستطع أن تؤدي وظيفتها الرئيسة – إنجاب الأطفال.

لقد منعت نفسها من البكاء والشكوى واستسلمت لما هو محتوم فسكنت روحها بسرعة مدهشة. نبشت صندوق البياضات، فأخرجت شرشفاً قديماً، قطعته وصنعت منه ما يشبه الكمادات. غير أن النزيف صار غزيراً في المساء، فبدا وكأن شرياناً كبيراً قد انفجر في داخلها، واضطرها ذلك إلى استخدام ما عندها من قطن قليل كانت تحتفظ به. وحين كاد القطن ينفد فتقت أناتوليا طرف

اللحاف وأخرجت منه عدة كتل من صوف الغنم، غسلتها بعناية وبسطتها كي تجف على حافة النافذة. لقد كانت تستطيع، طبعاً، أن تذهب إلى شلابكانتس التي تعيش بجوارها وتطلب بعض القطن، لكن أناتوليا لم تفعل ذلك خشية أن تفقد سيطرتها على أعصابها فتبكي وتخبر صديقتها بمرضها المميت، فتضطرب ياسامان وتهرع كالبرق إلى ساتينيك كي ترسل هذه إلى الوادي برقية تطلب فيها عربة الإسعاف... وهكذا يبدأ طوافها على الأطباء الذين سيعذبونها بإجراءاتهم المؤلمة التي لا جدوى منها. إنها لا تريد ذلك، فقد قررت أن تموت محتفظة بكرامتها وبسلام روحها، في هدوء وطمأنينة بين جدران البيت الذي عاشت فيه حياتها الصعبة العقيمة.

ذهبت إلى الفراش متأخرة، تأملت طويلاً في ألبوم العائلة صور وجوه الأهل التي طوتها صفحة الأبدية فبدت لها شديدة الحزن، شاردة الفكر، في ضوء مصباح الكاز الشحيح، فراحت تتمتم، وهي تمسد كل صورة منها بأصابعها التي اخشوشنت نتيجة العمل الشاق في الأرض؛ سنلتقي قريباً، سنلتقي قريباً. لكن أناتوليا، على الرغم من حالة الإحباط والقلق، أغفت بسهولة وظلت نائمة حتى الصباح. أيقظها صياح الديك النزق – الطائر يجول دون هدف في القن، منتظراً بنفاد صبر أن يفتحوا الباب ويتركوه يسرح بين تبّات الحاكورة. أصغت أناتوليا باهتمام إلى ما بداخلها، فقررت أن وضعها طبيعي ومقبول جداً – إذا استثنينا بعض الألم في حوضها والدوخة الخفيفة في رأسها. نهضت بحذر، وذهبت إلى المرحاض، فتأكدت، يخامرها إحساس بالتشفي الكيدي، من أن النزف قد ازداد. عادت إلى الغرفة فصنعت من كتلة صوف وقطعة قماش (حفوضة). إذا استمرت الحال هكذا فستنزف دمها كله بحلول صباح الغد. وهذا يعني، ببساطة، أن حياتها لن تشهد شروقاً آخر للشمس.

وقفت في الشرفة تمتص بكل خلية من خلايا جسدها ضوء الصباح اللطيف. ذهبت إلى جارتها – هي تريد أن تحييها وتسأل عن أحوالها. كانت ياسامان قد شرعت في عملية غسيل كبيرة، فوضعت على موقد حطب قدراً كبيراً من الماء. وتبادلت الجارتان، ريثما يسخن الماء، الأحاديث في أمور معيشية شتى. ثمار شجرة التوت ستنضج قريباً، وسيكون من الضروري هز أغصانها وجمع التوت المتساقط عنها وصنع شراب من جزء منه، وتجفيف جزء، ووضع جزء ثالث في برميل خشبي لتحويله إلى نبيذ. ومن الضروري أيضاً قصّ العشب وجمعه طعاماً للخيل، فبعد أسبوع أو أسبوعين سيكون الوقت قد فات، لأن العشب يخشن سريعاً تحت شمس حزيران ويصبح غير صالح لعلف الحيوانات. غادرت أناتوليا صديقتها حين شرع الماء في القدر بالغليان. هي تستطيع الآن أن تطمئن إلى أن ياسامان لن تتذكّرها قبل صباح اليوم التالي، فهي ستغسل البياضات ثم تنشّيها، ثم تضيف (النيلة) إلى الماء وتغليها، ثم تنشرها لتجف في الشمس، وبعد ذلك تجمعها وتكويها. وهي لن تستطيع إنجاز ذلك كله إلا في وقت متأخر من المساء. وهكذا فإن لدى أناتوليا متسع من الوقت كي ترحل إلى العالم الآخر بهدوء.

أشعرها ذلك بالطمأنينة، فقضت الصباح تؤدي أعمالها اليومية على مهل، ولم ترقد لتموت إلا بعد منتصف النهار حين اجتازت الشمس قبة السماء وراحت تتدحرج برزانة نحو الطرف الأيسر.

أناتوليا هي البنت الصغرى من بين بنات سيفويانتس كابيتون الثلاث، والوحيدة من بين أفراد العائلة كلها، التي عاشت حتى بلغت سن الشيخوخة. إنه لمن المدهش أنها احتفلت في شهر شباط ببلوغها سن الثماني والخمسين – وهذه سن لم يبلغها أي من أفراد عائلتها.

هي لا تتذكّر أمها جيداً – فقد ماتت الأم وهي في سن السابعة من العمر. عيناها لوزيتان وشعرها ذو لمعة ذهبية غير عادية، خصلاته عسلية متموجة. وكانوا يطلقون عليها لقباً يتناسب ومظهرها – فوسكي [1] كانت أمها تضفر لها شعرها الرائع في جديلة مشدودة، وتستعين بملاقط خشبية

في تثبيت الجديلة عقدة ثقيلة على نقرتها، لذا كانت (فوسكي) تردّ رأسها قليلاً إلى الخلف حين تمشي. وكثيراً ما كانت تمسد عنقها بأصابعها وتشكو من إحساسها بالخدر فيه. كان أبوها يجلسها مرة في السنة، قرب النافذة، يسرّح شعرها بعناية، ويقصّ منه ما يتجاوز طوله مستوى الخصر – الأم لم تكن تسمح بتقصير الشعر أكثر من ذلك. هي لا تقص أبداً ضفائر بناتها – فالشعر الطويل يحميهن، كما تقول، من اللعنة التي تدور فوق رؤوسهن منذ اثني عشر عاماً، منذ ذلك اليوم الذي تزوجت فيه سيفويانتس كابيتون.

المرشحة للزواج هي في الواقع، أختها الكبرى تاتيفيك. تاتيفيك كانت آنذاك في السادسة عشرة، أما فوسكي، المرشحة التالية للزواج من أحد شباب أسرة أغوليسانتس غاريغين الكبيرة، فكانت في الرابعة عشرة، وقد أسهمت إسهاماً نشيطاً للغاية في التحضير للاحتفال، فقد كان من الواجب، بحسب التقاليد التي يحترمها المارانيون منذ قرون، أن يقام، بعد طقوس التكليل، عرس في بيت العروس، وبعده، عرس في بيت العريس. لكن رأسي أسرتي كابيتون وتاتيفيك – وهما أسرتان ثريتان ومحترمتان في ماران – قررا أن يوحدا الحفلين، فيقيما حفلاً واحداً كبيراً في الميدان. وقد أوحت الاستعدادات أن الاحتفال سيكون احتفالاً لا مثيل له في ضخامته. والد كابيتون قرر أن يدهش خيال الضيوف الكثيرين، فأرسل صهريه إلى الوادي لدعوة موسيقيي مسرح الحجرة لحضور العرس. فعاد الاثنان متعبين، لكنهما كانا راضيين، وأعلنا أن الموسيقيين المتغطرسين سرعان ما حوّلوا غضبهم من دعوة أوركسترا مسرحية إلى العزف في قرية، إلى رضا، حين علموا بأن كل موسيقي سيتقاضى ذهبيتين، ومؤونة أسبوع من الأطعمة وعد بنقلها إليهم في المسرح صهر كابيتون بعد الاحتفال. والد تاتيفيك حضّر أيضاً مفاجأته – دعا إلى العرس أشهر مفسري الأحلام في الوادي، الذي وافق على ممارسة عمله طوال اليوم مقابل عشر ذهبيات، والشيء الوحيد الذي طلبه هو أن يساعدوه في نقل التجهيزات الضرورية للعمل: الستائر والكرة الزجاجية الموضوعة على حامل برونزي ضخم، وطاولة التنجيم، وديوانة عريضة وإصيصين فيهما نبتتان من نوع نادر المثال، أوراقهما كبيرة، ورائحتهما كثيفة، وشموع حلزونية غريبة المنظر من نوع خاص من الخشب المطحون، تظل مشتعلة لشهور ناشرة من حولها روائح العنبر والمسك ولكنها لا تحترق. وقد دعي إلى العرس، إلى جانب المارانيين، نصف مئة من سكان الوادي، معظمهم من الأثرياء المحترمين، وكتبت الصحف عن الحفل المنتظر الذي توقعت الصحف أن يكون حدثاً لا ينسى، وكان مما زاد في الاهتمام بالحفل واحترامه، أن الصحافة لم تكتب من قبل أبداً عن الاحتفالات العائلية، ما لم تكن العائلات من طبقة النبلاء.

ولكن حدث مالم يكن يتوقعه أحد – قبل موعد العرس بأربعة أيام، رقدت العروس مصابة بالحمى، تألمت ووقعت في حالة من الهذيان بسبب المرض مدة يوم، ثم ماتت دون أن تسترد وعيها.

في يوم دفنها انفتحت، على ما يبدو، فوق ماران بوابات مختلفة، مظلمة ودخلت منها قوى مناقضة لقوى السماء، إذ يستحيل أن يفسر المرء سلوك رأسي العائلتين بغير زوغان العقل. فبعد انتهاء التشييع، اجتمع الاثنان فترة قصيرة وقرّرا عدم إلغاء حفل الزفاف.

– لا يجوز أن تذهب النفقات هباء، – هذا ما أعلنه على مائدة العزاء أغوليسانتس غاريغين – إن كابيتون فتى جيد، وشغّيل، ومهذب، وأي إنسان يتمنى أن يحصل على صهر مثله. لقد أخذ الله تاتيفيك إلى جواره، هذا إذن، ما قدّر لها الله، ومن الإثم أن نعترض على إرادته، لكن، لدينا فتاة أخرى في سن الزواج. ولذا قررنا أنا وآنيس أن تزف فوسكي إلى كابيتون.

لم يتجرأ أحد على معارضة قرار الرجلين. ولم يبق لفوسكي الحزينة على فقد أختها الحبيبة سوى أن تتزوج كابيتون دون أن تبدي أي اعتراض. أخّروا الحداد على تاتيفيك أسبوعاً. واحتفلوا

بالزفاف احتفالاً كبيراً، صاخباً، وافر الأطعمة، وسال النبيذ والفودكا المصنعة من التوت، نهراً، وكانت الموائد الممدودة تحت قبة السماء تتقصف لكثرة ما عليها من أطباق، وعزفت الأوركسترا التي ارتدى أعضاؤها سترات سوداء وانتعلوا أحذية تلتمع نظافة، ألحان البولكا والمينويت الراقصة التي حاول أهل ماران متوترين سماعها بآذانهم غير المعتادة على سماع الألحان الكلاسيكية. لكنهم، بعد أن ثملوا إلى حد كاف، ضربوا باللباقة عرض الحائط وانطلقوا يرقصون رقصاتهم الريفية.

قليلون هم من زاروا خيمة مفسر الأحلام – فما من أحد اهتم به من الضيوف الذين أثارت حميتهم وفرة الطعام والشراب المقدم في العرس. أما فوسكي فاقتادتها إليه عمتها غير الشقيقة من يدها وقد أقلقها كلام العروس الموجز عن حلم رأته في الليلة السابقة لعقد القران. كان المفسّر عجوزاً ضئيلاً، ونحيلاً، ومشوهاً إلى حد غير معقول، يبعث الرعب. أشار بيده إلى المكان الذي يجب أن تجلس فيه فوسكي، فانكمشت وهي تتأمل على خنصر كفه اليمنى ظفراً طويلاً لم يشذب منذ أعوام، قاتم اللون، محنياً كقوس، متجاوزاً سلامية إصبعه، ونامياً بمحاذاة كفه، متجهاً نحو ذراعه المعوج، معرقلاً حركة رسغه كلها. وأخرج العمة من الخيمة بطريقة غير لبقة، طالباً منها أن تقف حارسة للمدخل، أما هو فجلس قبالة فوسكي فارداً ساقيه في سرواله الفضفاض القبيح، مشابكاً بين ركبتيه ذراعيه الناحلين، وراح يحملق فيها بصمت.

– رأيت أختي في المنام، – أجابته البنت على السؤال الذي لم يطرحه. – كانت تقف مديرة لي ظهرها – في ثوب جميل مطرّز بخيوط من اللؤلؤ. أردت معانقتها فرفضت. استدارت نحوي – كان وجهها، لسبب لا أدريه، هرماً، مملوءاً بالتجاعيد. وبدا فمها وكأنه يضيق بلسانها. بكيتُ، فابتعدت عني إلى زاوية الغرفة، بصقت سائلاً أسود غريباً في كفها ومدت كفها نحوي قائلة: «أنت لن تذوقي طعم السعادة يا فوسكي». شعرت بالخوف فاستيقظت. غير أن خوفي بلغ ذروته مما حدث بعد ذلك حين فتحت عيني وأدركت أن الحلم ظل مستمراً. كان ذلك عند الغسق، قبل صياح الديكة، ذهبت لأشرب ماء، نظرت من دون سبب إلى أعلى، إلى السقف، فرأيت في النافذة التي في قبته وجه تاتيفيك الحزين. رمت عند قدمي غطاء رأسها وشالها واختفت. أما غطاء الرأس والشال فتحولا إلى رماد حين لامسا الأرض.

بكت فوسكي بحرقة فتلطخ خداها بالكحل الذي سال مع دموعها – الكحل هو وسيلة الزينة الوحيدة التي تستخدمها نساء ماران. وبرزت ذراعاها الطفليتان الرقيقتان من شقوق «مينتانها» [2] الحريري المطرز بدانتيل غالي الثمن وقطع نقدية من الفضة، وراحت العروق الزرقاء في صدغيها تنبض بيأس.

تنهد مفسّر الأحلام بصخب، مطلقاً صوتاً يوتّر السمع، فسكنت فوسكي وحملقت فيه خائفة.

– اسمعي يا بنية، – قال العجوز بصوت كالعرير، – أنا لن أفسّر لك حلمك، وهذا لن يضيرك في شيء، إذ لم يعد بالإمكان الآن تغيير أي شيء. الأمر الذي أنصحك به. هو ألّا تقصّي شعرك أبداً، دعيه يغطي ظهرك دائماً. إن لدى كل إنسان ما يحميه. عندي مثلاً، – قال وهو يضع يده اليمنى أمام أنف فوسكي، – الظفر في خنصري، أما عندك أنت فهو شعرك.

– حسناً، – تمتمت فوسكي، وانتظرت قليلاً علّها تحصل على إرشادات أخرى، لكن مفسر الأحلام عاد من جديد إلى صمته المتجهم. فنهضت كي تغادر، غير أنها استجمعت قواها، وأرغمت نفسها على سؤاله:– وهل تعرف لماذا شعري بالذات؟

– لا أستطيع أن أعرف ذلك، لقد رمت لك غطاء رأسها، وهذا يعني أنها أرادت أن تخفي ما يمكن أن يحميك من اللعنة، – قال العجوز دون أن يحيد ببصره عن الشمعة التي تصاعد

منها الدخان.

خرجت فوسكي من الخيمة تنتابها مشاعر مختلطة، فهي كانت، من ناحية، تشعر بزوال بعض قلقها، بعد أن تركته عند مفسر الأحلام. ولكن كانت تلازمها، من ناحية أخرى، فكرة أنها صوّرت أختها المتوفاة «غولة» أمام شخص غريب. وحين روت للعمة التي كانت تنتظرها بنفاد صبر عند باب الخيمة، نبوءة العجوز، فرحت العمة فرحاً لا يوصف:

– المهم هو أننا لن نواجه ما نخشاه. افعلي ما نصحك به، فتمرّ الأمور كلها بيسر. أما روح تاتيفيك فستغادر بعد أربعين يوماً أرضنا الآثمة وتتركك بسلام.

عادت فوسكي إلى مائدة العرس – إلى الزوج المحضّر حديثاً، وابتسمت له مرتبكة. ارتبك العريس وردّ على ابتسامتها بابتسامة، لكن وجهها تضرج بالحمرة فجأة، رغم سنه العشريني، وهو سن متقدم بالمعايير الباتريارخية. لقد كان كابيتون فتى خجولاً جداً، شديد الحياء. حين دار الحديث في الأسرة، قبل ثلاثة أشهر، على ضرورة تزويجه، قدّم له زوج أخته الكبرى هدية – أخذه إلى الوادي، ودفع له أجر قضاء ليلة في بيت للدعارة. في اليوم التالي عاد كابيتون إلى ماران شديد الذهول، ليس لأن قضاء ليلة في أحضان امرأة مومس تفوح منها رائحة ماء الورد والقرنفل والعرق، لم يرق له. الأمر أقرب إلى أن يكون عكس ذلك – فقد أصمته وأذهلته تلك المداعبات الحارة الوالهة التي منحته إياها بسخاء. لكن شعوراً غامضاً بالقرف، والغثيان الخفيف، تولّد عنده في اللحظة التي التقط فيها تعابير وجهها – كانت وهي تتلوى كالأفعى، وتطلق أنّات صماء، وتداعبه بمهارة وشوق، تحتفظ بوجه خال من المشاعر، جامد كالحجر، وكأنها لم تكن تمارس الحب، بل تقوم بعمل يومي رتيب، وقد لازمه هذا الشعور وأقلقه، فقرر، بما يعرف عمن هم في سنه من تسرّع غير مشكور، أن هذا السلوك المفتعل الوقح في الفراش، سمة من سمات كل امرأة، ولذا لم يكن ينتظر أي شيء جميل من الزواج. وهذا بالضبط ما جعله يحني رأسه بصمت علامة الموافقة، حين أعلن أغوليسانتس غاريغين أن عليه أن يتزوج من الأخت الصغرى بعد وفاة شقيقتها، إذ، ما الفرق بين الزواج من هذه، أو من تلك؟ إن النساء كلهن، من حيث الجوهر، كاذبات ولا يملكن إحساساً صادقاً.

حين اقترب الليل، وراح الندل يحملون إلى الموائد قطعاً كبيرة من اللحم المشوي، مشكوكة في أسياخ، وأطباقاً من البرغل المطبوخ تغطيه قطع رقيقة من البصل المقلي، اقتاد نفر من الشباب الثملين، وسط صخب الزغاريد وضجيج الضيوف بصيحات الاستحسان، العروسين الشابين إلى غرفة النوم وأغلقوا عليهما الباب بالمزلاج، بعد أن وعدوهما بالإفراج عنهما في الصباح. بكت فوسكي بحرقة حين بقيت على انفراد مع زوجها، لكن حين اقترب كابيتون منها ليهدئ روعها، لم تدفعه بعيداً، بل، على العكس من ذلك، التصقت به وهدأت في الحال، وهي تطلق شهقات خفيفة وتنشق بأنفها بشكل يثير الضحك.

– أنا خائفة، – قالت وهي ترفع وجهها المبلل بالدموع نحوه.

– وأنا خائف أيضاً، – أجاب كابيتون ببساطة.

إن هذا الحوار الساذج، النقّاذ بصدقه وحرارته، الذي دار بينهما همساً، ربط بين القلبين الشابين المتعطشين للحب مرة واحدة وإلى الأبد. وفيما بعد في الفراش، حين ضم كابيتون زوجته الشابة إلى صدره ملتقطاً بامتنان كل حركة من حركاتها، وكل تنهيدة، وكل ملامسة رقيقة، اشتعل خجلاً من محاولته المساواة بينها وبين امرأة الوادي. كانت فوسكي مشرقة بين ذراعيه، تتوهج كجوهرة، تدفئ وتملأ بالمعاني كل ما يحيط به، وصارت منذ ذلك الحين وإلى آخر العمر أغلى ما في حياته.

بعد أسبوع قام أغوليسانتس غاريغين وأصهاره في صمت، وقد أسبلوا شعورهم وارتدوا ثياباً سوداء من الرأس حتى القدم، بذبح ثلاثة عجول أصيلة، ثم طبخوا اللحم من دون ملح، ووزعوه على القرية في صوانٍ كبيرة – كان الناس يفتحون أبواب بيوتهم، يأخذون حصصهم من اللحم في صمت، إذ من غير الجائز أن تتكلم حين يحملون إليك لحم الأضحية، – أما فوسكي فوضعت على نوافذ غرفة نومها ستائر لا ينفذ منها الضوء، ونوت أن تلبس ثياب الحداد على أختها حتى آخر أيام عمرها. صارت ترهق نفسها بالصوم المتواصل، وتقضي الأماسي الطويلة في الكنيسة تصلي لراحة روح تاتيفيك، طالبة منها الصفح، وتذهب في رفقة حزينة مع أمها والكنائن والعمات إلى المقبرة مرة كل أسبوع كي تعتني بقبر أختها. وبدا كأن الليل والنهار قد تبادلا الأماكن عندها – كانت في الليل تحيا الحب وتدفئ كالشمس، وفي النهار تتحول إلى كائن عابس حزين. لم تزرها تاتيفيك في الحلم أبداً، هذا أمر أحزنها كثيراً. «يبدو أنها لم تسامحني وإلا لرأيتها في الحلم حتماً، ولو مرة واحدة»، هذا ما قالته لزوجها وهي تغص بدموعها.

ولكي يصرف كابيتون زوجته عن أفكارها الحزينة، اقترح عليها أن تنشغل في تأثيث البيت الذي حصلا عليه بعد الزواج. في الماضي عاشت في هذا البيت عمته العانس وجدته – الجدة مانية، لكنهما انتقلا فيما بعد، للعيش مع والد كابيتون، وتركتا للزوجين الشابين المسكن المتين، السميك الجدران، الأليف، المريح، ذا الشرفة الخشبية والعرزال المرتفع الذي تحيط به حديقة أشجار مثمرة معتنى بها. فوسكي رفضت الانتقال إلى هناك رفضاً قاطعاً، لأن البيت يقع في الطرف الآخر من ماران. غير أن كابيتون أصر على اقتراحه – فالعيش بعيداً عن الأهل الحزينين، سيقلل من تذكرها لأختها، وسيجعلها تتهاون مع مرارة الفقد بسرعة أكبر.

تنازلت فوسكي كارهة أمام إلحاح زوجها، وانهمكت، على غير توقع منها، بمشاغلها الجديدة، وانكبت على العمل بحماسة، حتى أنها أوصت بأن يجيئوها ببعض مجلات الأثاث من الوادي. وبعد أن درست تلك المجلات بدقة، اختارت لغرفة الطعام من خشب السنديان – طاولة بيضاوية الشكل، وأربع (صوفات) عريضة مغلفة بمخمل أخضر غامق، وثلاثين كرسياً – يجب أن تكون أماكن الجلوس كثيرة، لأن البيت سيكون دائماً ممتلئاً بالضيوف، وعدداً من الخزائن مزينة برسوم محفورة على الخشب ولها واجهات زجاجية طويلة، يمكن أن تضع على رفوفها طقم أوانٍ من السيراميك لأربعة وعشرين شخصاً، وأوان كثيرة أخرى قدمت إليها كهدايا زواج. واضطر النجار ميناس الذي تعهد بصنع قطع الأثاث كما في المجلة تماماً، إلى استئجار صانعين إضافة إلى صنّاعه الثلاثة كي يستطيع تنفيذ العمل في الموعد المحدد.

فوسكي كانت في هذه الأثناء حاملاً بجنينها الأول، فأرادت أن تنهي تأثيث البيت قبل أن تلد. لقد قضت فترة الحمل في الحياكة – خاطت بالتعاون مع أمها عدداً من الأغطية والشراشف، وطقمين من بياضات السرير، وثياب عماد الطفل. وكانت في كل أسبوع، بعد زيارتها الطقسية للمقبرة تمرّ على ورشة نجارة ميناس لكي تضبط العمل. وكان ميناس يتوخوخ ويعبس، غير أنه كان يتحمل زيارات فوسكي في صمت، لكنه، في الحقيقة، كان يصرفها إلى بيتها بسرعة، معللاً ذلك بزعمه أن المرأة، ولا سيما الحامل، لا يناسبها أن توجد في ورشة تفوح فيها روائح الدهان السامة، وعرق الرجال. غير أن زيارات الورشة لم تمر عبثاً، فقد تمت صناعة الأثاث في الوقت المحدد، وما إن انتهت فوسكي من ترتيب البيت والاحتفال بالانتقال إليه، حتى أتاها الطلق. وبعد يوم أهدت كابيتون بنتاً أسمياها ناظيلى. وبعد عامين أنجبت سالومي، وبعد ذلك بعام ونصف أنجبت أناتوليا الصغيرة.

لم تكن فوسكي، الحريصة على إرضاء زوجها والحنون في تعاملها، كثيرة الكلام، بل كانت تعامل بناتها ببعض الصرامة – أناتوليا لا تذكر أن أمها أطلقت على بناتها أسماء دلع، أو غمرتهن

بين دقيقة وأخرى، بالقبل، كما تفعل الأمهات الأخريات. إنها لم تمدحهن في يوم من الأيام، ولم توبخهن أيضاً، فهي كانت، إذا رأت ما لا يعجبها، تزمّ شفتيها في صمت، أو ترفع حاجبيها. وكانت الفتيات يخشين هذا الحاجب المرفوع أكثر مما يخشين الدمدمة الدائمة للجدة العجوز مانية، القريبة الوحيدة التي بقيت حية بعد الزلزال الرهيب الذي مسح عن وجه الأرض الكتف الأيسر من مانيج – كار. لقد حدثت هذه الكارثة في العام الذي كانت ستولد فيه سالومي. في ذلك العام انتقلت إليهم الجدة مانيه لتساعد في تربية ناظيلى، فقد كان من الصعب على فوسكي التي كانت نوبات الغثيان والإقياء ترهقها، أن تعتني بالطفلة ناظيلى الكثيرة الحركة. حدثت الكارثة في ظهيرة يوم صقيعي من أيام كانون الأول: مادت الأرض تحت أقدام الناس، واضطربت وهدرت بصوت مديد يمزق الروح، فانشق كتف مانيج – كار وسقط في هوّة جاراً خلفه البيوت والأبنية والدور، والناس الذين بحت أصواتهم من الصراخ، والحيوانات الداجنة التي أحست مسبقاً بالمصيبة القادمة فهاجت في الحظائر والاصطبلات، محاولة بإلحاح لفت نظر أصحابها إلى الخطر الداهم.

الجزء الذي نجا من القرية استقبل صدمة الطبيعة ببسالة وبشكل لائق: صلى الناس لراحة أرواح من ماتوا في الكنيسة الصغيرة (كنيسة غريغور لوسافوريتش [3] القائمة في طرف القرية كانت أول مبنى سقط في الهوة) ثم ذهبوا إلى بيوتهم – يدعمون الجدران التي خرقتها شقوق عميقة، والسطوح المنهارة، ويعيدون الأعمدة الخشبية الساقطة على جنب، إلى وضعها. آنذاك لم تكن الأحاديث عن ضرورة الانتقال إلى المنخفضات الأكثر أمناً، قد بدأت – فالناس بدؤوا يتداولونها في زمن متأخر جداً عن ذلك اليوم.

خلا الميدان من بعد الزلزال – لم تقم فيه بعد ذلك أبداً، الاحتفالات وولائم الشراب. مرات قليلة جاء الغجر من الوادي بحكم العادة القديمة، ورووا لهم أن بعض البيوت التي سقطت في الهوة، حملها السيل بعيداً نحو الغرب، فانضمت إلى قرى أخرى، وأن الناس الذين كانوا يعيشون فيها سالمون، لم يصبهم أذى، لكنهم لن يعودوا أبداً، لأن الخوف الذي عاشوه محا ذاكرتهم، فهم لا يعرفون أنهم عاشوا في زمن ما على ذروة جبل مغطاة بغابة عمرها قرون، تحيط بها مراع وأراض خصبة معطاء. وكان الناس يصغون إليهم بامتنان، ويهدونهم بعض الخردة والألبسة – ويتركونهم يغادرون بسلام، أما هم فكان كل منهم يأمل أن يكون ما قالوه صحيحاً، وأن يكون ساكنو الجناح الغربي من مانيج – كار أحياء، رغم أنهم الآن يتكلمون بلغات أخرى، ويرتدون ملابس مختلفة، إن هذه الأمور لا تعني شيئاً، فالسماء، في نهاية المطاف، لها الزرقة نفسها في كل مكان، والريح تهب على كل مكان مثلما تهب على الأرض التي أسعدك الحظ بالولادة فيها.

تكررت زيارة الغجر مرات قليلة ثم توقفت – لقد كانوا أول من أحس بقرب حدوث كارثة أخرى، فاختفوا ذات يوم في صمت وإلى الأبد، ذابوا في حرّ شمس منتصف النهار، كتلك القطع النقدية التي كانوا يدفعونها في أيام التسوق في الميدان حين يمسك الناس بأيديهم وهي تتسلل في عملية سرقة.

ولدت أناتوليا في الليل، عشية آخر زيارة قاموا بها إلى القرية. الجدة مانيه اصطحبت البنتين الكبريين في ذلك اليوم إلى منزل الجارة، مفسحة المجال لفوسكي كي ترتاح بعد أن أرهقتها الولادة الصعبة، وقد نامت عند خاصرتها أناتوليا الصغيرة الملفوفة بعناية بحرام دافئ – إنها الوحيدة بين بنات سيفويانتس كابيتون التي تشبه شبهاً كبيراً جدها الأسمر، الذي اشتقت كنيتهم سيفويانتس من سماره، فكلمة «سيف» تعني بلغة ماران «الأسود». يومذاك، دخلت غجرية بدينة، قصيرة القامة، لها ندبة تكاد لا تلحظ على خدها الأيسر، إلى المنزل دون عوائق، جالت دون توقف في الغرف كلها، وأطلت على فوسكي دون أن تقرع باب غرفتها. خافت فوسكي، ونهضت بجذعها مستندة إلى مرفقيها، وغطت به

الطفلة الوليدة. حرّكت الغجرية يدها تدعوها إلى عدم الخوف، فهي لن تؤذيها. اقتربت من السرير، وتأملت وجه الطفلة الصغير.

– ماذا ستسميها؟

– أناتوليا.

– اسم جميل.

انتصبت، ثنت اللحاف والشرشف، وجمّعت بيدها أطراف تنورتها المزهرة الملونة، وجلست على حافة السرير، مباعدة بين ساقيها كالرجال، مدلية بينهما ذراعيها الطويلين النحيلين. بدا لفوسكي بغموض أنها تعرف هذه الجلسة، وأن أحدهم قال لها، وهو جالس بهذا الشكل كلمات هامة، مسنداً كوعيه إلى ركبتيه المتباعدتين، لكنها لم تستطع أن تتذكر من كان ذلك الشخص – وكأن يداً مسحت ذاكرتها.

– نحن لن نعود إلى هنا أبداً. هاتي من حليّك ما ترغبين في التخلص منه. هذا ضروري، قالت الغجرية ببطء. كان صوتها خشناً، مشبعاً بدخان السجائر، كثير التقطع عند أواخر الكلمات، وكأن صاحبته تعاني ضيقاً في التنفس.

– لم يخطر أبداً في بال فوسكي أن تعترض على ما تقوله الضيفة التي لم يدعها أحد: كانت نظرتها الثابتة الثقيلة وتعابير وجهها تجبر فوسكي على الثقة بها ثقة مطلقة. ولذا لملمت بحركة معتادة شعرها الطويل، العسلي المنساب على ظهرها، وفرشته على الوسادة – هكذا سيسهل عليها أن تتمدد – تمددت، واضعة يديها على صدرها، وراحت تفكر. الحليّ عندها قليلة، وكلها مهداة لها من أهلها الذين طواهم الزلزال. إن إهداء أي قطعة منها يعني التنكر لذكرى من أهداها.

– افتحي درج (الكومودينة) العلوي، هناك ستجدين صندوق حليّ صغير، انتقي منه ما يعجبك، – قالت فوسكي بعد تردد قصير.

نهضت الغجرية متثاقلة، وأعادت طرف الشرشف واللحاف إلى وضعهما، ثم فتحت الدرج ودست يدها فيه. أخرجت منه حلية خبأتها في عبّها دون أن تنظر إليها، واتجهت نحو الباب.

– لماذا قررتم عدم المجيء إلى هنا ثانية؟ – استوقفتها فوسكي بسؤالها.

أمسكت الغجرية مقبض الباب وقالت:

– هذا ما لا أستطيع إخبارك به.

ترددت قليلاً ثم أضافت:

– اسمي باترينا.

أرادت فوسكي أن تخبرها باسمها، غير أن الغجرية ردّت رأسها إلى الوراء بعنف وقالت لا تفعلي. ثم لفّت نفسها جيداً بشالها السميك، وأحنت رأسها إحناءة خفيفة وخرجت. وما إن انغلق الباب خلفها حتى شعرت فوسكي بالدوار. ألقت برأسها على الوسادة، ورقدت مغلقة العينين في انتظار نوبة من الغثيان، لكنها أغفت فجأة. استيقظت واثقة كل الثقة أن زيارة الغجرية لها كانت حلماً، غير أن درج (الكومودينة) المفتوح كان يؤكد العكس. طلبت من الجدة مانيه أن تعطيها صندوق الحليّ، فاكتشفت أن هناك حلية ناقصة، هي خاتم فضي مزين بحجر أزرق، ذلك هو خاتم جدتها الذي كانت سترثه حفيدتها الكبرى، تاتيفيك، ولكنه آل إلى فوسكي.

فاحت من الغرفة رائحة المساء الطازجة، وقليل جداً من مرارة الأقحوان. وتساقط الندى على تيجان الأزهار الناعسة فاستل منها رائحتها الكثيفة وسكبها على الأرض. بعد ساعة أو ساعتين سيحل الليل، إنه يهجم بسرعة على مانيج – كار، وبشكل مفاجئ، فكأنه ينقض من زاوية كان يختبئ وراءها، تنظر إلى الأفق تتماوج فيه ألوان الغروب، وبعد ثانية فقط يغرق كل شيء في العتمة، تنخفض السماء كثيراً، مرصعة بالنجوم بسخاء، وتبدأ الزيزان في الغناء وكأنها تفعل ذلك في المرة الأخيرة.

– ليتني أعرف ما تقول في غنائها، – تمتمت أناتوليا، وضحكت فجأة ضحكة غير موفقة جعلتها تغص بلعابها. توقف سعالها، فنهضت على مرفقيها، وشربت من الكأس – إبريق الماء كان دائماً قرب السرير على طاولة صغيرة، لقد اعتادت أن تضعه هكذا منذ زواجها، كان زوجها يشرب الماء كثيراً، يبتلع الكثير من السوائل، ولكي لا ينهض من السرير ليلاً، كان يطلب في كل مساء أن يوضع إبريق ماء طازج على الطاولة الصغيرة قرب السرير. وها قد مرّ عشرون عاماً على اختفاء أثره، لكن أناتوليا ظلت يومياً تصب الماء الطازج في الإبريق احتراماً لذكراه. وكانت تسقي بهذا الماء النباتات في الأصص في صباح اليوم التالي، ثم تعود فتملأ الإبريق من جديد بالماء. استمر الأمر على هذه الحال يوماً بعد يوم، وفي كل يوم، مدة عقدين متتاليين من الزمن.

شربت الماء وانقلبت على جنبها بحذر شديد، جالت بيدها على الفراش تحتها، وأصلحت قطعة القماش المشمع. ما بين ساقيها كان مبللاً ومقززاً؛ (الحفوضة) التي أعدّتها أناتوليا بعناية، تبلّلت عن آخرها وسال منها الدم، وقميص النوم تبلّل أيضاً والتصق بظهر أناتوليا، فاضطرت إلى النهوض وتغيير ملابسها. كانت تفعل كل ذلك وهي تغالب الغثيان والإقياء بكل ما تستطيع من قوة، فكل ما يحدث كان، لسبب ما، يثير لديها شعوراً فظيعاً بالتوتر والقرف.

ازداد نزيف الدم، راح يسيل بقوة عنيفة لا يمكن قهرها، وكأنه يندفع بأقصى سرعة ممكنة لمغادرة جسدها. جمعت أناتوليا الملابس الملطخة وأخفتها تحت السرير، ثم تمددت ومسّدت قطعة القماش المشمع الثانية فوقها وغطتها باللحاف الذي حرصت على أن تخفي قدميها تحته – قدماها تجمدتا من البرد رغم الصيف والقيظ.

– ليت الموت يأتي سريعاً، – تنهدت، غطت عينيها، وغاصت مستسلمة في بحر الذكريات، فمعها يطير الوقت غير ملحوظ.

كان عمرها سبع سنوات حين رحلت ماما – أشعلت موقد الحمّام، حمّمت البنات، واقتادتهن إلى أسرّتهن، وكانت قد أغلقت مدخنة الموقد، قبل أن تنشغل بهن، كي يحتفظ المكان بالدفء، ونسيت أن تفتحها بعد ذلك، فاحترقت حتى الموت. كابيتون الذي عاد من عمله الشاق متعباً نام ولم ينتظر حتى تنهي زوجته أعمالها، لكنه حين استيقظ في قلب الليل ولم يجدها إلى جانبه، خلع باب الحمام وأخرجها محمولة على ذراعيه – تعثرت فوسكي فأمسكت وهي تقع باب الموقد فانفتح على مصراعيه، فاندلقت منه جمرات، لم تطفئها رطوبة الحمام، وأحرقت خصلات شعرها العسلية.

– لقد حلت علينا لعنة تاتيفيك! – قالت الجدة العجوز مانيه وهي تبكي بصوت عال، رافعة يديها المعوجتين نحو السماء، يومذاك كانت قد تجاوزت المئة عام من العمر، وصارت عاجزة، نصف عمياء، تقضي أيامها كلها جالسة على الديوانة مستندة إلى (الموتاكات) [4] تطقطق بحبات سبحتها الشفافة وتتمتم بالدعاء. لقد أرغمها موت فوسكي على أن تنهض، وتحمل على كتفيها المحنيين أعباء البيت طوال خمس سنوات، ثم رحلت في زمن المجاعة الفظيعة بعد أن شيّعت ابنتي حفيدتها الكبريين: سالومي انطفأت أولاً، وفي اليوم التالي رحلت ناظيلي، فوضعوا البنتين في تابوت واحد، وغطوهما بشعرهما الطويل – الجوع لم يكتف بأخذ صحتهما وجمالهما، بل أخذ أيضاً جدائلهما

العسلية الرائعة روعة جدائل أمهما. غسلت الجدة مانيه تلك الجدائل بماء الورد ثم جففتها في الهواء، وسرّحتها، ثم غطت بها، كما لو كانت لحافاً، جسديّ بنتيّ حفيدتها النحيلين إلى حد الشفافية.

نقل كابيتون البنت الصغرى إلى الوادي – إلى أهلٍ تربطه بهم قرابة بعيدة، ترك لهم صندوق حليّ فوسكي، وما توفر من مال طوال سنوات العمل الفلاحي الشاق – ثلاثاً وأربعين قطعة نقدية ذهبية. في كل يوم، كانت أناتوليا تغمض عينيها فترى بحس إبصارها الروحي أباها – نحيلاً، غائر الوجنتين، منطفئ النظرات، رجلاً شاباً تحول في زمن قصير إلى عجوز متهالك، وكانت تحبس أنفاسها كيلا تجهش بالبكاء من شدة الألم الذي يمزق قلبها، وهي تتذكر كيف ضمها إلى صدره وهمس في أذنها – عيشي أنت على الأقل يا بنيتي، ثم خرج من البيت مغلقاً الباب بإحكام، – ولم يعد بعد ذلك أبداً.

عادت إلى ماران بعد سبع سنوات طوال، بددت الأسرة التي آوتها حليّ الأم في خلالها، الشيء الوحيد الذي بقي لأناتوليا، – حلية من الصدف الطبيعي، لونها وردي فاتح مشوب (بالبيج) نحتت عليها صورة فتاة شابة تجلس على حافة مقعد صغير جداً في ظل صفصافة، تنظر إلى شيء ما في البعيد. لقد تعلمت أناتوليا في الأعوام التي قضتها في الوادي، أشياء كثيرة وأولها – القراءة والكتابة، هم لم يرسلوها إلى المدرسة، معللين ذلك بعدم قدرتهم على دفع نفقات التعليم، غير أن زوجة قريبها، وهي امرأة شقية ومعدومة الحقوق موجودة في البيت كخادمة، أكثر من وجودها كربة منزل، محكومة بالعيش طول العمر، صابرة، تتحمل نزوات سكر زوجها الدائم وأبنائها، علّمتها كل ما كانت تعرفه. هي لم تزعج أناتوليا أبداً، وكانت لطيفة معها ومهتمة بها، تحميها من فظاظة أبناء ابن عمها ووقاحتهم، وقبل أن تموت بفترة وجيزة، – هي عانت طويلاً وتألمت كثيراً من مرض مجهول راح يدمّر ببطء وإصرار صحتها، – أرسلت أناتوليا، ابنة الاثني عشر عاماً، في عربة البريد إلى ماران.

كبرت أناتوليا في هذه الأثناء، وصارت بنتاً لطيفة المنظر – عينان كحلاوان، وبشرة زيتية اللون، وشعر طويل يصل حتى منتصف فخديها، خصلاته فاتحة اللون على غير توقع، مشوبة باللون العسلي كخصلات شعر أمها. كانت تضفر شعرها في جديلة تثبتها عقدة ثخينة في مؤخرة رأسها، وتمشي، مثل فوسكي، برأس تكاد تكون مشدودة إلى الوراء. حين رأتها الأم العجوز ياسامان بعد هذه الأعوام كلها تأوهت وشعرت بوخزة في قلبها – ما أشد شبهك بأمك وأبيك يا بنية، أنت تبدين وكأنك جمعت روحيهما التعيستين في روحك. شعرت أناتوليا بفرح لا يوصف وهي ترى أن جيرانها صمدوا زمن المجاعة وظلوا أحياء. ياسامان التي تكبرها باثنتين وعشرين سنة، وصارت الآن جدة تربي حفيدها الأول، قررت، هي وزوجها أفانيس، مساعدتها في ترميم بيتها المتهدم، وإعادة زرع حاكورته.

قاموا بتدعيم الجدار الخلفي بأوتاد جديدة، وغيّروا أطر النوافذ التي ضمرت بسبب الجفاف، وأصلحوا الشقوق في أرضية الشرفة. ومع مرور الأيام تعلّقت بهم أناتوليا بصدق، وقد كان هذا التعلق متبادلاً بينها وبينهم. كان أفانيس يولي أناتوليا، ابنة جاره الوحيدة التي لم تقتلها المجاعة، رعاية واهتماماً أبويين، أما ياسامان فصارت كل شيء بالنسبة إليها – الأم، والأخت، والصديقة، والكتف التي يمكن أن تستند إليها، حين تصبح الحياة صعبة لا تطاق.

لقد نسيت أناتوليا، في خلال إقامتها في الوادي، العمل القروي الشاق، واحتاجت وقتاً غير قليل كي تعتاد من جديد الشغل في الحاكورة وتحضير الطعام وتنظيف المنزل، ولكي تجعل حياتها أكثر سهولة، أغلقت الجزء الأكبر من غرف المنزل، وحدّدت لسكنها غرفة نوم والديها، وغرفة المعيشة والمطبخ، لكنها كانت تضطر مرة كل أسبوعين إلى تنظيف المنزل كله، فتمسح الغبار، وتنشر للتهوية في الشمس أو في النسيم المشبع برائحة الصقيع، الحرامات الثقيلة المنسوجة من الصوف، والوسائد

والموتاكات والسجاد. وشرعت تدريجياً تربي بعض الدواجن – ياسامان أهدتها دجاجة، فتركتها فترة تعيش في القن القديم كي لا تبقى من دون ديك. لكنها فيما بعد، حين فرّخت صيصاناً، أخذتها مع صيصانها الصاخبة، وقد تميز أحد هذه الصيصان منذ أيامه الأولى بميله إلى الشجار والعدوانية، وسرعان ما كبر ديكاً مرموقاً، شهوانياً، لم يكتف بما عنده من حريم دجاجي، بل امتد نشاطه إلى النصف الأنثوي من ذوات الريش في الدور المجاورة، وهذا ما أوقعه في شجارات دموية كان يخرج منها منتصراً فيقف على السور ويظل يصيح طويلاً زارعاً الخوف في قلوب خصومه المهزومين. وبعد فترة اقتنت أناتوليا عنزة، وتعلمت كيف تخثّر اللبن، وتصنع جبنة بيضاء – لينة، طرية، ينزّ منها الحليب عند قصها. كانت في البداية تخبز تحت إشراف ياسامان، غير أنها سرعان ما اعتادت ذلك، وصارت تخبز بمفردها. وكانت في أيام الآحاد، تذهب في الفجر إلى المقبرة، ثم إلى الكنيسة – تصلي لراحة أرواح أقربائها. لقد تضاعف حجم المقبرة في أثناء غيابها. كانت تجول بين الصلبان الحجرية في صمت، وتقرأ أسماء الأسر التي حفرت عليها.

بعد عودتها بنصف عام عيّنوها في المكتبة، على الرغم من أنها لم تكن متعلمة، وذلك لعدم وجود من يقوم بهذا العمل سواها – عاملة المكتبة السابقة لم تنج من المجاعة، ولم يكن هناك من يقبل أن يقضي، لقاء قروش قليلة، خمسة أيام من الأسبوع في قاعة بين رفوف الكتب المكسوة بالغبار. لم تترك المجاعة أطفالاً في ماران، والطفل الوحيد الذي لم يقتله الجوع كان حفيد ميليكانتس فانو، الذي لم يكد يبلغ الخامسة من العمر، والمدرسة والمكتبة اللتان بنيتا عشية المجاعة بقيتا فارغتين، غير أن أناتوليا لم تصب بالإحباط: ستشق الحياة طريقها إلى كل مكان، سيولد غداً جيل جديد من الأطفال، ويعود كل شيء إلى مجراه.

بدت لها المكتبة جنة، مكاناً تستطيع فيه أن ترتاح من أعمال المنزل الرتيبة المملة. غسلت أناتوليا الرفوف جيداً، وحفّتها بالشمع المنزلي حتى اللمعان، ورتبت طاولات المطالعة، وصنفت الكتب تصنيفاً يتجاهل الترميز والترتيب الأبجدي، ويعتمد حصراً على أفضلية الألوان – الكتب ذات الأغلفة الداكنة في الأسفل، والكتب ذات الأغلفة الفاتحة في الأعلى. ووزعت في المكان نباتات الزينة، واستخدمت الأباريق الفخارية ذات الفوهة الواسعة التي كانت مكدسة في القبو بلا عمل، كأصص، بعد أن ذهبت إلى ورشة النجار ميناس، وطلبت منه أن يثقّب قيعان تلك الأباريق كي تتخلص التربة فيها من الرطوبة الزائدة. لفتت أناتوليا، حين زارت الورشة، نظر صانع من صناع ميناس، وهو رجل بدين، قصير القامة، أرمل، ليس لديه أولاد، دفن في أعوام المجاعة أسرته كلها، فقام شخصياً بنقل الأباريق المثقبة إلى المكتبة، ثم زارها عدة مرات عارضاً المساعدة. كان يجلس هناك حتى وقت متأخر، يتأمل بثبات أناتوليا المرتبكة، وبعد شهر زارها في البيت طالباً يدها. لم تكن أناتوليا تحبه، وتعرف أنها لن تحبه، لكنها وافقت على الزواج منه، وذلك، لأنها ببساطة لن تجد غيره. ليس في القرية رجال عازبون صالحون للزواج، فالموجودون منهم لا يناسبونها من حيث السن، فهم إما صغار جداً، وإما، على العكس طاعنون في السن. لم يكن زواجها سعيداً، فهي لم تسمع من زوجها في كل الأعوام الثمانية عشر التي عاشتها معه، كلمة حلوة، ولم تلمس منه حركة حانية. لقد كان زوجاً خشناً إلى حد مدهش، ورجلاً لا مبالياً، وكان خشن الحركة وعديم المشاعر في الفراش، وكان في ردّه على مطالبة أناتوليا الخجولة بأن يكون ألطف قليلاً، يقهقه بفظاظة، وكثيراً ما كان يغتصبها اغتصاباً – فتظل بعد ذلك ممددة تفوح منها رائحة العرق والمني، وهي تغص بدموعها وتشعر ملء روحها بكراهية ذاتها. كان حلمها الوحيد أن تنجب أطفالاً تقضي حياتها في تربيتهم، لكن لم يقدّر لهذا الحلم أن يتحقق، وباءت كل محاولاتها للحمل بالإخفاق. اكتفى الزوج باتهامها بالعقم، لكنه صار مع مرور السنين أكثر تجهماً وأقل صبراً، وصار خنوعها الصامت يوتّر أعصابه ويثير وحشيته، فاعتاد، في نهاية المطاف، أن يسكر، ويضربها، ثم يسحلها ممسكاً بضفيرتها في أرجاء المنزل، غرفة، غرفة، ويسجنها بعد ذلك في

غرفة المؤونة الباردة حتى الصباح. كان في كل مرة يزداد شراسة، وهو، على الأغلب، كان سيقتلها لولا خوفه من أفانيس العملاق، الذي لاحظ ذات يوم جرحاً دامياً على وجنتيها، فذهب مباشرة، من دون أن يتكلم، إلى الورشة، فسحبه من وراء آلة النجارة، وجرّه من ياقة سترته في الفناء وألقى به فوق كومة مرتفعة من الحطب، ثم تركه وعينه تطقّ شرراً:

– إذا رفعت يدك عليها مرة ثانية – فسأقتلك دون كلام. مفهوم؟

دفاع أفانيس عن أناتوليا أنقذ حياتها، لكنه حوّل كل يوم من أيامها عذاباً لا يطاق – فقد صار زوجها يعذبها بمهارة ومن دون ضجة: يلوي ذراعيها، يوجه ضرباته إلى مفاصلها كي لا يترك أثراً، يخرجها عن طورها بطلباته، ويهزأ بها علناً. أناتوليا تحملت ذلك في صمت، ولم تشتكِ – كانت تخاف أن ينفذ أفانيس وعده إن فعلت، فيقتل زوجها – المصيبة، وهي لا تريد أن تؤذي أحداً.

صارت القراءة راحتها الوحيدة في أيامها الكئيبة. كانت، في الأعوام الأولى، حين كانت المكتبة خالية، تمارس هوايتها المحبوبة طول يوم عملها. فتعلمت بالتدريج، بفضل فطنتها وذكائها الفطري، أن تميز الأدب الجيد من الرديء، أحبت الكتاب الكلاسيكيين الروس والفرنسيين، ولكنها كرهت تولستوي كرهاً شديداً ودائماً – وذلك فور قراءتها «أنا كارينينا» فقد رأت في موقفه من بطلتي الرواية قسوة وتعالياً وصنّفته بين المعتوهين المستبدين، وأخفت أجزاء كتبه السميكة بعيداً عن نظرها كيلا تسبب لها رؤيتها لتلك الكتب المزيد من الاكتئاب، فهي لم تكن تنوي، بعد ألمها من استهزاء زوجها بها استهزاءً يوصلها إلى حد اليأس، أن تتهادن مع هذا الظلم على صفحات الكتب.

كانت أناتوليا، في الأوقات التي لا تقرأ فيها، تحاول أن تنشر جواً من الراحة والجمال في المكتبة: علّقت على النوافذ ستائر رقيقة من الشيت تغطي نصف زجاجها، كيلا تحرم النباتات من ضوء الشمس، وأحضرت من البيت بساطاً فرشته بمحاذاة الجدار الذي عُلّقت عليه صور الكتّاب، وزيّنت المقاعد الخشبية غير المريحة بوسائد زاهية الألوان خاطتها بنفسها من قطع قماش ملونة.

لقد بدت المكتبة الآن أشبه بحديقة مطالعة معتنى بها – حواف النوافذ والممرات بين الرفوف كلها مزينة بأصص النباتات، فقد أحضرت أناتوليا من دار أرشاك – بيك (الذي صار الآن قصراً للثقافة محاطاً بالأسلاك ومهملاً) ثمانية أحواض ثقيلة لها شكل الأحواض الإغريقية القديمة، زرعت فيها أزهار الشاي والحبق والليلك الجبلي. كانت الأزهار تتفتح في أوقات مختلفة، فتضوع منها روائح تجتذب النحل الذي كان يدخل من نوافذ التهوية فيتعثر قليلاً بالستائر ثم يجد دون خطأ طريقه إلى النباتات، يجمع طلع الزهور ثم يطير مغادراً، ليعود من جديد. وقد حدث ذات يوم في الخريف أن اجتذبت رائحة الحبق الحادة – الحلوة سرباً كاملاً من النحل، عبر النافذة، تجمع في قمة السقف، وفي نيته، على ما يبدو، أن يستقر هناك، فاضطرت أناتوليا إلى الطواف على بيوت القرية بحثاً عن الخلية التي هجرها النحل. ونما في قبو المبنى بيت كبير للنمل – امتدت دروب النمل متعرجة حتى العتبة الخشبية لمدخل المبنى وهناك اختفت. وامتلأ إفريز السطح، على طوله، بأعشاش السنونو – كانت طيور السنونو تأتي إلى هذا المكان عاماً بعد عام كي تفرّخ طيوراً صغيرة جديدة، وكانت أناتوليا تضطر في الخريف، بعد مغادرة الطيور مباشرة، إلى غسل الجدران الخارجية بمكنسة مجدولة من العيدان، وتنظفها مما علق بها من براز الطيور وغير ذلك من الأوساخ. وقد عثرت ذات يوم على عش عصفورة في مدخنة الموقد، فاضطرت إلى الانتظار إلى حين تفقيس بيضها واشتداد عود فراخها وطيرانها، بعد ذلك فقط نقلت العش بحذر إلى غصن شجرة، فهي تعرف أنها لو لم تفعل ذلك لخافت العصفورة وهجرت عشها تاركة البيض الذي لم يفقس لمشيئة القدر.

أضحت المكتبة بمرور الزمن ملجأ لشتى الكائنات الحية، فصارت الطيور والحشرات الطائرة

الصغيرة تجد فيها مكاناً مريحاً، تتكاثر فيه بحماسة مدهشة. وكانت أناتوليا تترك على حواف النوافذ أطباقاً فيها ماء وسكر، للفراشات وزيزان الحظ، كما أنها صنعت أواني صغيرة لإطعام الطيور، وزرعت في باحة البناء حوضاً صغيراً عاش فيه النمل سعيداً. هكذا كانت تقضي أيامها تقلب صفحات كتبها المفضلة التي تفوح رائحة أغلفتها الجلدية، وتحيا حياة امرأة تعيسة، لم تنجب أطفالاً، تحيط بها كائنات بريئة في العمل، وتجرّحها كراهية الزوج في بيت أبيها.

بعد زمن نجحت المدرسة بعد تعثّر في جمع تلاميذ للصف الأول، فظهر أخيراً زوار صغار في المكتبة. غمرت أناتوليا هؤلاء الصغار بكل حب الأم الذي لم يقدّر لها أن تنفقه. وضعت بشكل دائم على طاولات المطالعة الخشبية طبقاً من الفواكه المجففة والكعك المنزلي وكانت، إذا ما طلب الأطفال الشرب، تصب لهم الشاي أو منقوع الفواكه، وتسليهم بحكايات قرأتها أو اختلقتها. لم يكن الكبار يزورون المكتبة إلا نادراً، فهم مشغولون بأشياء أخرى غير الكتب، أما الأطفال – الضاحكون، الفضوليون، ذوو العيون اليقظة، فكانوا يقضون هناك ساعات طويلة، يطوفون بحذر محبب على الأحواض وأصص النبات، يحرصون على استنشاق رائحة كل زهرة، ويتأملون طيران النحل، ويصبون الماء المحلّى في الأطباق الصغيرة، ويقرؤون، ويكتبون وظائفهم، ويسلّون أنفسهم بالأسئلة الكثيرة التي يطرحونها دون توقف. وهم، عند المغادرة، يقدمون وجناتهم لتلقي القبل. لقد كانت أناتوليا تؤمن بصدق أن حبّ الأطفال ليس إلا مواساة سماوية لها هي التي حرمت إنجاب الأطفال.

– فليكن الأمر كذلك، على الأقل، – قالت في سرها متصالحة مع قدرها. انتهت حياتها المعذبة الصعبة على مدى ثمانية عشر عاماً طوالاً، المنحدرة أبداً نحو الأسوأ، بتراجيديا كبيرة، فقد قرر زوجها الذي أغضبته علاقة جميع الناس الودودة بها، أن يخرّب حياتها نهائياً. طلب منها أن تترك العمل. غير أن أناتوليا الصموت عادة، دهشت من نفسها وهي تجيبه بالرفض القاطع. وحين رفع يده ليضربها كعادته، هددته بأنها ستشكوه إلى أفانيس.

– سأطلب منه أن يعقّلك، – صرخت بصوت غاضب. – أما إذا لم تعقل، فسأطلّقك. تذكّرْ دائماً أني لن أسمح لك بعد اليوم بضربي في بيت أبي!

زمّ الزوج عينيه بحركة لئيمة، وظل صامتاً. لكنه حين ذهبت إلى العمل، قام بتحطيم كل ما في البيت – خلع الأبواب في الغرف كلها، وحطم الموبيليا بالفأس، ولم يشفق حتى على الصندوق الذي كانت تحافظ فيه أناتوليا على فساتين أختيها الميتتين وحذائيهما وألعابهما، محافظتها على حدقتي عينيها، وقد غطت ذلك كله بعناية بورق الغار والنعناع اليابس.

تنبهت ياسامان إلى الضجة ولكنها خافت دخول البيت، فأرسلت حفيدها إلى المكتبة لإبلاغ صديقتها، أما هي فركضت نحو الطرف المقابل من القرية – لإحضار زوجها. وحين وصل أفانيس إلى المكان لاهثاً كانت أناتوليا راقدة على أرضية غرفة المعيشة بلا وعي وقد شارفت على الموت من شدة الضرب، وظهر على سطح الطاولة البيضاوية الأملس شرخان عميقان ناتجان عن ضربات فأس – لقد مددها زوجها المسعور على الطاولة، وقطع من الجذور ضفيرتيها العسليتين الرائعتين، وصرخ في وجهها بصوت منتصر حاقد: «أنت الآن ستموتين بعد أن فقدت شعرك»، – ثم اختفى من البيت بعد أن أخذ كل ما وفرته من مال قليل. لم تسفر مطاردته عن شيء، فقد استطاع أن يسافر في عربة البريد إلى الوادي، وهناك اختفى أثره، ولم يعلن عن نفسه بعد ذلك أبداً.

عالجت ياسامان صديقتها بالصلوات والمشروبات المستخلصة من غلي الأعشاب الطبية. وجمدت القرية التي هزّها ما حدث، في انتظار قلق – كل فرد فيها تذكّر لعنة تاتيفيك التي أنزلتها على أسرة أغوليستانتس – فوسكي وسيفويانتس كابيتون. لكن أناتوليا أخذت تتعافى سريعاً، وسريعاً عادت

إلى عملها من جديد، فأراح هذا الجميع. ظل جسدها يؤلمها زمناً طويلاً – لا سيما حين يتغير الطقس، وضعف بصرها نتيجة ضربة تلقتها على رأسها، فاضطرها ذلك للذهاب إلى الوادي كي تحصل على نظارة طبية، لكنها لم تتذمر، بل بدت سعيدة لأنها أخيراً تخلصت من الخوف الظالم الذي لاحقها طول سنوات زواجها.

انتظر العجوز ميناس حتى شفيت، بعد ذلك زارها في البيت، وراح يتنحنح خجلاً، ويعتذر لها عما فعله مساعده المنحوس، ثم عرض عليها أن يقوم بإصلاح الموبيليا المحطمة، لكن أناتوليا رفضت إصلاح أي شيء. أخرجت، على دفعات، الحطام إلى الفناء وأحرقته عن آخره. الشيء الوحيد الذي أبقته هو الطاولة البيضاوية المصنوعة من خشب السنديان، وعليها آثار ضربات الفأس. وجلب لها أفانيس خزانة ذات أدراج، وأعطتها ييبوغانتس فالينكا سريراً وديوانة، أما ياكوليتشانتس ماغتاخيني فقدمت لها صندوقاً خشبياً كبيراً. وأصلح ميناس الأبواب الداخلية على مهل، وجدد دهان الأرضية الخشبية. لم يبق من المنزل السابق الثري أي أثر، ولكن الأثاث الفقير لم يحزن أناتوليا، لقد كانت قادرة دائماً أن ترضى بالقليل. وقد فرحت فرحاً عظيماً بنجاة ألبوم الصور بمعجزة – أخذته معها إلى مكان عملها كي تصلح أطر بعض الصور ونسيته على الطاولة، وهذا ما أنقذه.

ظل غموض ثابت خمس سنوات يلف الوادي قبل الحرب. وقد عاشت أناتوليا هذه الأعوام كلها في هدوء لذيذ لا يعكّره شيء.

كانت تقضي النهارات في المكتبة، والأماسي في بيتها أو عند ياسامان، وتزور قبور أهلها في أيام العطل – الصفصافة الباكية المزروعة فوق قبر أبيها نشرت أغصانها الطويلة النحيلة فوق الصلبان الحجرية، وراحت أوراقها الفضية الخضراء ترسل حفيفها صلوات لا نهاية لها. كانت أناتوليا تجلس بين شاهدتي قبري والدتها وأختيها، إذا كان الطقس يسمح بذلك، حتى وقت متأخر، إلى أن يتلون الغروب باللون البنفسجي. وكانت تغفو أحياناً مسندة صدغها إلى الصليب الحجري البارد. عن يمينها يرقد أبوها وأمها، وعن يسارها ترقد أختاها والجدة مانيه، تجلس أناتوليا حاضنة ركبتيها بيديها وتحدث الراقدين بحكايات سعيدة عن الأطفال الذين يزداد عدد ولاداتهم عاماً بعد عام والحمد لله، وعن زهور الشاي التي تجتذب برائحتها سرباً كاملاً من النحل، وعن دروب النمل الممتدة من تحت الأرض خطوطاً رفيعة تصل إلى عتبة المكتبة.

وهكذا تقدمت في السن – ببطء واستمرار، تحيط بها أطياف محببة إلى قلبها، وحيدةً، ولكنها سعيدة، راضية. ياسامان التي أقلقتها وحدة صديقتها ألمحت لها عدة مرات، لن يكون رديئاً أن تتزوج مرة ثانية. لكن أناتوليا كانت تهز رأسها علامة الرفض – فات الأوان، ولا حاجة لي بذلك، إذ ما الجيد الذي لقيته عند زوجي الأول، حتى أتوقع مثله من الزوج الثاني؟

وقعت الحرب في العام الذي أتمت فيه الأربعين من عمرها. في البداية صارت تتردد أخبار غامضة من الوادي عن إطلاق نار على الحدود الشرقية، ثم دقّ أفانيس، الذي كان يقرأ الصحف، لا يفوّت منها شيئاً، ناقوس الخطر. كانت الأخبار العاجلة عن المعارك، تشير إلى أن الأمور على الجبهتين – الشرقية، ومن بعدها، الجنوبية الغربية، تتطور تطوراً سيئاً للغاية. وفي الشتاء وصل خبر عن إعلان النفير العام. وبعد شهر من ذلك سيق جميع رجال ماران القادرون على حمل السلاح، إلى الجبهة. فيما بعد وصلت الحرب إلى الوادي، اندفعت فيه إعصاراً ضخماً مدمراً، جارفاً في دوامته الفظيعة الحجر والبشر. تغطى منحدر مانيج – كار الذي كانت تتلوى فيه الطريق الوحيدة المؤدية إلى ماران، بالحفر الناجمة عن قذائف مدافع الهاون. وغرقت القرية أعواماً طويلة في ظلام دامس، وساد الجوع والبرد. قطعت قنابل المدافع خطوط الكهرباء، وحطمت زجاج النوافذ، واضطر الناس إلى سدها

بالبلاستيك الشفاف، لعدم وجود الزجاج، ولعدم جدوى إصلاحها، إذ ما الفائدة من ذلك ما دام الزجاج سيتحول إلى شظايا حتماً عند تجدد القصف؟ ازدادت قسوة القصف في موسم البذار، لمنع الناس عمداً من العمل في الأرض، أما موسم حاكورة المنزل فشحيح ولا يكفي زمناً طويلاً. لم يكن هناك مكان نحتطب منه كي نشعل الموقد فنتخلص من عذاب البرد، فالغابة ملأى بقناصة الأعداء الذين لا يرحمون أحداً سواء أكان امرأة أم شيخاً. وهكذا اضطررنا إلى إشعال أوتاد الأسوار الخشبية، ثم سقوف العرازيل والحظائر، وبعد بعض الوقت صرنا نفكك الشرفات.

فصل الشتاء الأول كان قاسياً جداً، فلجأت أناتوليا إلى المطبخ تقيم فيه بالقرب من الموقد، فالإقامة لا تطاق في الغرف الأخرى غير المدفّأة – النوافذ المغلفة بالنايلون لم تكن تحمي من الرطوبة والبرد، أما الجدران والسقوف فغطتها طبقة سميكة من الجليد، تذوب حين يدفأ الطقس قليلاً فتسيل بركاً فوق الموبيليا والأغطية والسجاد فتخربها إلى الأبد. الكيروسين المخصص لإنارة المصابيح نفد بسرعة، ونفدت بعده الشموع، وأغلقت المدرسة أبوابها عند حلول الصقيع، وكذلك خلت المكتبة من زوارها. عبّأت أناتوليا في عربةٍ الكتبَ التي نوت إعادة قراءتها في الشتاء، وكذلك أصص النباتات، وأخذتها إلى البيت حيث الدفء. اقتطعت زاوية من المطبخ وفرشتها بالقش، ونقلت إليها العنزة الحبلى، التي ولدت جديين في أواخر كانون الثاني. هكذا قضت ذلك الشتاء الطويل الذي لا نهاية له – قرب الموقد، تحيط بها أصص النبات، والكتب التي تحبها، والجديان اللذان يطلقان ثغاء متقطعاً. وكانت تضطر إلى الاستحمام أجزاء في قصعة خشبية – تغسل رأسها أولاً، ثم الجزء العلوي من جسدها، وبعد ذلك القسم السفلي منه، وتشعر بالخجل فتدير ظهرها للجديين وأمهما. الشتاء كان مثلجاً، لذا لم تكن أناتوليا مضطرة للذهاب إلى النبع، بل تجرف الثلج بالدلاء، تترك بعضها ليذوب ثلجها في الليل فتستخدم ماءها في الشرب والطهو، وتدفئ بعضها الآخر فوق الموقد لتستخدمه في غسل الثياب وجلي الأواني. وكانت في يومي الخميس والجمعة تحمل الماء الملوث إلى الشرفة، حيث تتركه يبرد في الصقيع، وبعد ذلك فقط، تدلقه على الأرض، وذلك التزاماً باعتقاد راسخ يلتزم به المارانيون، يفرض عدم دلق الماء الحار على الأرض في يومي الخميس والجمعة لئلا تحترق قدما السيد المسيح.

كانت أيام الشتاء متشابهة كالحبات الشفافة لمسبحة الجدة مانيه التي تحتفظ بها أناتوليا طوال الوقت: في الصباح تذهب إلى القن – تنثر الحب للطيور، وتأخذ البيض، بعد ذلك تطعم العنزات، ترتب المطبخ، تحضر لنفسها طعاماً سريعاً، ثم تقرأ طوال النهار الشتوي القصير. وحين يهجم الليل بعتمته تنام على الديوانة ملتفة بعدد من الأغطية، أو تتمدد ببساطة، تراقب وهج الجمرات الآخذ في الإنطفاء، عبر شق صغير في بوابة الموقد.

ألبوم صور الأهل كان دائماً بالقرب منها، تتصفحه، وتمسح دموعها بكمّ ثوبها في صمت. لم يكن عندها ما تحدثهم به، ولم تكن راغبة في مضايقتهم بشكواها.

حلّ الربيع متأخراً عن موعده المعتاد. ولم تتخلص ماران من عذابات الصقيع والعتمة، وتتنفس بارتياح، إلا في أواسط شهر آذار، حيث علا صرير أبواب البيوت وبوابات حدائقها، وانفتحت النوافذ مفسحة الطريق لدخول نور الشمس. كانت الفرحة بجلاء الشتاء الصقيعي المعتم أخيراً، عظيمة، أنست الناس خطر الموت. لقد اعتاد المارانيون منذ زمن أصوات إطلاق النار، ولذا انهمكوا، غير مهتمين به، في أعمالهم المعيشية التي تبين أنها كثيرة جداً. لم يكن بمقدور أي منهم أن يتخيل أن الرطوبة والصقيع اللذين تسللا إلى الغرف يمكن أن يلحقا بموجوداتها هذا الضرر كله. لقد كان عليها تهوية الغرف جيداً وتجفيفها بعد أن تشبعت بالرطوبة في الشتاء، والتغلب على العفن المنتشر في كل مكان، والمتسلل حتى إلى الصناديق وأدراج الخزانات. وقد اضطرت إلى تنظيف الجدران بمحاليل مستخلصة من منقوع الأعشاب. أما الغسيل فاستغرق منها شهراً طويلاً، إذ كان عليها أن

تغسل كل شيء، ابتداء من أغطية السرير والملابس، وانتهاء بالبسط والسجاد. كان العمل كثيراً، لم يتح لها فرصة الذهاب إلى المكتبة، إلا في أواخر نيسان، حيث هدأ القصف نسبياً، واستؤنفت الدروس في المدرسة.

دست أناتوليا وجنتها في الوسادة، وتنهدت بمرارة، وهي تحبس الدموع التي اندفعت إلى عينيها. لقد مضت على ذلك سنوات كثيرة، لكنها كانت في كل مرة تتذكر فيها حال المكتبة البائس حين عادت إليها، تشعر بألم روحي عميق لا تتغلب عليه إلا بصعوبة. كانت الرطوبة قد نفذت عبر النوافذ المسدودة بالنايلون فوصلت أعلى الرفوف، وغطت ببقع فظيعة من العفن الأغلفة الجلدية للكتب، وصفحاتها المتجعدة المصفرة صفرة لن تزول. يا إلهي، يا إلهي، راحت أناتوليا تصرخ باكية وهي تمرّ بالرفوف المحملة بالكتب، رفاً بعد رف، كيف أهملتها؟ كيف لم أحفظها؟

مرّت مديرة المدرسة بالمكتبة، فوجدت أناتوليا جالسة على عتبة الباب ممسكة رأسها بين كفيها، تهزه برتابة وتبكي بصوت مسموع وتشهق كالأطفال. كانت المديرة امرأة كهلة، ضخمة، لها فكّان ذكوريان بارزان، وكتفان يوحيان بالقوة – استمعت في صمت إلى شرح أناتوليا المتقطع، ثم طافت بالمكتبة، أخذت عدداً من الكتب عن الرف، قلّبت صفحاتها، وهزّت رأسها. أعادت الكتب إلى مكانها وشمت رائحة أصابعها فتقلصت ملامحها. أخرجت منديلاً ومسحت يديها بقرف.

– وماذا كان باستطاعتك أن تفعلي يا أناتوليا؟ لقد كانت ستتلف على كل حال.

– لكن كيف حدث هذا؟ كيف حدث هذا؟ عاملة المكتبة السابقة حفظت الكتب في زمن الجوع، أما انا فلم أستطع حفظها في زمن الحرب.

– آنذاك كانت النوافذ سليمة، أما الآن... فمن كان يتوقع أن يحدث ما حدث!

قامت أناتوليا بمحاولة يائسة لإنقاذ الكتب. جلبت لفافة من حبال الغسيل، ومدّتها نحو عشرة صفوف في الفناء، علّقت عليها الكتب، آملة أن تجفف الشمس والريح رطوبتها، فتقوم هي، بعد ذلك، بترميمها بشكل ما، فبدا فناء المكتبة، كما لو أن سرباً من الطيور رفرف بأجنحته التي لا جدوى منها. جالت أناتوليا بين صفوف الكتب وقلبت صفحاتها، وباتت الليلة في المكتبة خشية هطول المطر. في اليوم التالي تخلّعت الكتب وصارت أوراقها تتطاير كأوراق الشجر في الخريف، فجمعتها أناتوليا ورمتها خلف السور ثم أقفلت المكتبة ولم تعد إليها بعد ذلك أبداً.

بعد سبعة أعوام ثقيلة أخرى تراجعت الحرب، آخذة معها الجيل الشاب. بعضهم قتل، وبعضهم رحل إلى بلدان أخرى أهدأ وأفضل حالاً، كي ينقذ أسرته. ولم يبق في ماران حين بلوغ أناتوليا الثامنة والخمسين غير كبار السن الذين لم يرغبوا في ترك الأرض التي يرقد فيها أسلافهم. أما أناتوليا، الساكنة الأصغر سناً في القرية، فلم تكن تختلف في شيء عن ياسامان التي تصلح أن تكون لها أماً من حيث السن. كانت ترتدي مثل سائر العجائز أثواباً صوفية طويلة، ومريولاً، وتجمع شعرها في جديلة تعقدها بطريقة غريبة على نقرتها، وتغلق قبة ثوبها بإحكام بتلك البكلة – الحلية الوحيدة التي بقيت لها من حليّ أمها. لم يكن لدى أحد في ماران أمل في أن تتغير الحياة إلى الأفضل. لقد كانت مستسلمة لقدرها، تعيش آخر سنيّ حياتها، وأناتوليا كانت معها.

ينهمر الليل في الخارج، يسوق خيوط أشعة القمر الخجولة إلى حافة النافذة، ويروي بزقزقة الجداجد اللطيفة أحلام العالم. وأناتوليا راقدة بين الوسائد، تضغط على صدرها ألبوم العائلة، – وتبكي.

الفصل الثاني

شالفارانتس أفانيس راح يقرقع بالشوكة وهو يغرسها بقوة في كُرات (العوّامة) المنتفخة. إنه في كل صباح، بغض النظر عن فصول السنة، والظروف، وحتى عن حالته الصحية، يتناول في فطوره هذه الحلوى المفضلة لديه، ثم يعدّ لنفسه شاياً مع القرفة، ويلفّ سيجارة من (التبغ الفلت)، يدخنها بتلذذ، وهو يراقب كيف يتلوى البخار الحار فوق الكأس السميكة الحواف.

لقد صار مضطراً إلى الاقتصاد في ورق السجائر، وهذا مالم يكن من قبل – ففي كل الأحوال، كانت أوراق الصحف التي لا خير فيها (على قفا من يشيل). وكانت عربة البريد تضج، وهي تنوء بحملها، ناقلة خمس مرات في الأسبوع، رزماً من الصحف التي تفوح منها رائحة ألوان الطباعة الرطبة، إلى أعالي جبل مانيج – كار. وكان أفانيس يقرأ كل صفحة فيها بإخلاص. عناوينها كلها رنانة، وما تحت العناوين هراء. وهذا ما رسّخ في ذهنه أن كل كلمة مطبوعة – سخفٌ بالمقارنة مع الكلام المنطوق.

– أن يفكّر المرء مئة مرة ثم يتكلم، أفضل له من أن ينسخ هذه السخافات مئات المرات، همدر أفانيس وهو يخشخش بأوراق الجريدة.

– أليس من المحتمل أن يكونوا فكّروا مئة مرة قبل أن يطبعوها؟ – قالت ياسامان معترضة.

– لو أنهم فكّروا مئة مرة بكل كلمة، لما صدرت الصحف، في أفضل الأحوال، أكثر من مرة في الشهر. أتظنين أن من الممكن اختلاق ما يملأ كل هذه الصفحات من الكلام الذكي في يوم واحد؟

– هذا مستحيل!

– وأنا أقول هذا أيضاً!

لم تكن ورقة الجريدة الخالية من المحتوى المفيد، تؤثر في مذاق التبغ، على كل حال، ولذا استمر أفانيس في الاشتراك في الصحف. لكن المؤسف هو أن رحلات عربة البريد الصاعدة إلى أعالي منحدر مانيج – كار تناقصت منذ بدء الحرب، ثم توقفت نهائياً – فقد شهد التزويد بالوقود انقطاعات كبيرة في الوادي، ولذا كانوا يوفرونه لتأمين أشد الحاجات إلحاحاً.

بدأت، مع توقف عربة البريد، المصاعب في تأمين الورق. فعل المدخنون كل ما يستطيعون. استخدموا، في البداية، أوراق الجرائد القديمة، ثم – الكتب التالفة، التي رمتها سيفويانتس أناتوليا يائسة ذات يوم، أكواماً خلف سور المكتبة. راح كبار السن يقلّبون المجلدات المتعفنة، الرطبة، الصامتة، الكئيبة التي تضم بين دفاتها أعمال شكسبير، وتشيخوف، ودوستويفسكي، وفولكنر، وبلزاك. جعلوا أغلفة الكتب السميكة حوامل يضعونها تحت الأواني الساخنة، أما الأوراق الرقيقة المهترئة فأشعلوها في المواقد، أو استهلكوها في الأعمال المنزلية الأخرى. كان للسجائر الملفوفة بهذه الأوراق مذاق مر، وكان يتطاير منها الهباب وتنطفئ باستمرار، فيزمّ شالفارانتس أفانيس عينيه ويتأفف، وهو يعيد إشعال السيجارة من رأس عود مشتعل يخرجه في كل مرة من موقد الحطب، فتلدع يده – الكبريت في القرية كان نادراً، لذا كانوا لا يستخدمونه إلا عند الضرورة القصوى.

الحرب، التي استمرت ثماني سنوات طويلة لا تطاق، تحصد في العالم الأرواح البريئة،

غصّت ذات يوم – وتراجعت، وهي تعول، وتعرج، وتلعق مخالبها المدماة. الوقود ظل قليلاً كالسابق، لكن الحياة بدأت تستقر عائدة، رغم الألم، إلى مجراها الطبيعي. غير أن هذه التحولات لم تطل ماران لسبب غير معروف – لم يتذكر أحد هذه القرية، بل لم يشأ أن يتذكرها. السيارة الوحيدة التي ظلت تجيء إلى القرية هي عربة الإسعاف، التي كان استدعاؤها يتطلب إرسال برقية عاجلة، إذ لم يكن لدى ماران أية وسيلة أخرى للاتصال بالعالم الخارجي. يبدو أنهم في الوادي قد نفضوا منذ زمن بعيد يدهم من هذه الحفنة من المسنين العنيدين الذين رفضوا النزول من ذروة مانيج – كار إلى المناطق المنخفضة في الوقت المناسب.

لقد ساعدهم في حلّ مشكلة الورق ماميكون مدير البريد. كان، مرة في كل أسبوعين، يحمل في حقيبته المعلقة على كتفه (إذا لم يكن هناك رسائل – والرسائل نادرة جداً) رزمات من أوراق الدعاية التي لا يحتاجها أحد، وهي كثيرة في الوادي، ويتركها في مركز البريد حيث تقوم عاملة البرق ساتينيك بتقسيمها إلى ثلاث وعشرين حصة متساوية – بعدد الساكنين في القرية – وتتركها على الطاولة قرب النافذة، فتنفد بحلول المساء.

كان أفانيس، قبل أن يضع التبغ في ورقة الإعلان ويلفّها، يدرس الإعلان باهتمام. وقد تبين له من محتوى تلك الأوراق أن الأفكار الذكية لم تزدد، بل إنها على العكس تماماً، تناقصت عند سكان الوادي، لأنهم، وهذا يتبين من محتوى تلك الأوراق أيضاً، لا يفعلون شيئاً غير زيارة النساء الفاجرات بحثاً عن الحب، واقتراض النقود من البنوك لشراء تفاهات غير ضرورية، وحلاقة شعر حيواناتهم المنزلية في صالونات حلاقة مرتفعة التعرفة.

– إذا أراد الله أن يعاقب إنساناً، فأول ما يفعله هو حرمانه العقل، – يقول أفانيس هازاً رأسه وهو يشفط دخان التبغ الحاد المذاق.

كان يزرع التبغ بنفسه، في قطعة أرض مهجورة، كانت في يوم من الأيام ملكاً لأخيه. أخوه مات منذ زمن، وأولاده تفرقوا في أرجاء العالم، فنمت الأعشاب البرية سريعاً في الحقل المهجور، لذا قرر أفانيس أن يزرعه تبغاً – هذا مفيد للأرض، ويبهج ياسامان التي سيترك لها قطعة من حقله لزراعة البطاطا، وخصص الشرفة مكاناً لتجفيف أوراق التبغ – دق على طرفيها مسامير طويلة وعقف رؤوسها لتصبح كالكلاّبات. كان يقطف الأوراق بحسب اكتمال نموها – هو يفعل ذلك في المساء حتماً حين تكون رطوبة النبات في حدّها الأدنى، – يشكّها في خيط غليظ مستعيناً بإبرة فولاذية ثم يعلّقها داخل أطر متحركة ويضعها في الغرفة المعتمة في زاوية المنزل، لتذبل هناك. يحمل الأطر بعد ذلك إلى الشرفة المشمسة، يشد الخيوط المحملة بأوراق التبغ المصفرة، إلى الكلاّبات التي ثبتها على طرفي الشرفة، ويتركها هناك حتى تجفّ تماماً.

التبغ الذي كان يحصل عليه، ممتاز – عطري الرائحة، ليّن، حاد باعتدال. في أيام السبت التي كان يتجمع فيها بازار صغير في ساحة القرية، كان أفانيس ينضد أوراق التبغ الجافة في سلة مجدولة من القش، يذهب بها للبيع، مصطحباً معه طاولة الزهر، تسير برزانة إلى جانبه ياسامان، صغيرة الحجم، نشيطة، تغطي رأسها بمنديل مزركش، وترتدي معطفاً حريرياً مخصصاً عندها للمناسبات، فهي لا ترتديه إلا في الأعياد الكنسية في السبوت والآحاد. تذهب فيه إلى الساحة يوم السبت، وإلى الكنيسة الصغيرة يوم الأحد، وترتديه مرة في الشهر في القداس الصباحي الذي يقيمه القس الجوّال ترآزاريان. كان سكان القرية كلهم يجتمعون في الساحة في أيام السبت إذا كان الطقس مناسباً، يحمل كل منهم ما عنده من منتجات الموسم – الخضراوات، والفواكه، والحشائش الموسمية، والجبن، والزبدة، والقريشة، والقشطة، واللحم المقدد، ولحم الخنزير المملح، وبعض أنواع الشراب البسيطة. وكانوا لا يستخدمون النقود إلا نادراً في تجارتهم، التي يعتمدون فيها على المقايضة المباشرة،

حيث يمكن الحصول على سكين مقابل عشر بيضات، أو على زوج من الأحذية مقابل غرفانكان [5] (من جبنة الغنم، أو ثلاثة أرباع غرفانكان من جبنة الماعز، أو على سطل من السمن مقابل سطلين من شراب الورد، أو على أربعة غرفانكانات من جبن الغنم مقابل صوف نعجة واحدة.

في الماضي، حين كانت المزارع كبيرة، وعدد دور القرية المأهولة قرابة الخمسمئة، كانت الساحة تغص بالناس ومنصات البيع تنوء بما تحمله من أطعمة؛ صف منها يعرض منتجات الحليب، يليه صف يعرض الفواكه والخضار، الضجيج يسود المكان مما يجعل المرء يتمنى لو يسدّ أذنيه. وكان ثمة سوق للمواشي وراء منصات الخضار، وخلف بوابات الساحة مباشرة، وكانت تسود في هذه السوق قواعد تبادل صارمة أرساها أسلاف المارانيين منذ زمن بعيد. هناك كانوا يعطون حصاناً مقابل بقرة، وعجلاً عمره سنة مقابل غنمتين، وغنمة وخروفاً مقابل خنزير، وثلاث عنزات مقابل بقرة فتية، وثوراً مقابل بقرة ولود.

في يوم البازار تنتشر في خط طويل صاعد على منحدر مانيج – كار عربات الغجر – ينصبون خيامهم الملونة عند حدود القرية، ويأتون إلى الساحة حشداً فوضوياً صاخباً، يساومون دون كلل، ويحاولون حتماً سرقة بعض الأشياء، لكنهم حين يُضبطون بالجرم المشهود يضحكون ويدفعون الثمن نقوداً ذهبية، ثم ينتشرون بعد البازار في دور القرية – يمارسون التنجيم بورق اللعب، ويتسوّلون. وفي المساء، يغادر الغجر، بعد انتهاء البيع والشراء، تاركين خلفهم رائحة دخان ما أشعلوه من نيران، وأنغام غيتاراتهم المبتعدة، الآخذة في التلاشي.

كان السيرك الجوال يزور القرية في الأعياد الكبيرة، تمزق الهواء أصوات أبواقه تدعو الناس، ينصب قبته فوق الساحة، وينطلق في الهواء بهلواناته الذين يسيرون على الحبال – يقومون بحركاتهم على ارتفاع ترتجف له قلوب المشاهدين هلعاً، ثم يلقون بعصي التوازن جانباً، و(يتشقلبون) في الهواء، لكن أقدامهم الصغيرة تحط بعد كل قفزة، على الحبل، لا تخطئه، رغم أنه يكاد ينزلق من تحتها.

وفي الأسفل، يمدّ المشعوذون ذوو الوجوه المائلة إلى السواد، والعيون الصفراء، سجاجيدهم الرقيقة فوق التراب، وينفخون في مزاميرهم المصنوعة من القصب، فتطلق أنغاماً مديدة تدير الرؤوس، ويصاب المشاهدون برعب مقدس وهم يشاهدون الأفاعي السحرية تتمايل في رقصة رتيبة، بينما تدور من حولهم بائعات الحلويات الشرقية، وهنّ يكنسن ما تبقى من نفايات البازار بأذيال تنوراتهن الطويلة، ويدعين الجالسين لشراء التمر، والفطائر المحشوة بالجوز غير المعروف في هذه الأصقاع.

لكن هذا كان في زمن ماض يبدو بعيداً وخيالياً، أما الآن فقد نسيه الجميع إلى الأبد، فالقرية القلقة تترجح على كتف مانيج – كارا كما تترجح العصا بدلويها على كاهل السقّاء. الساحة تقلصت حتى صارت بحجم (كشتبان) – بضع منصات عرض شبه خالية، وصوت مكعبات النرد تتدحرج على طاولة الزهر، النهار يمضي في الأحاديث الفارغة واستعراض الذكريات، وعند المساء يتفرق المسنون إلى بيوتهم، كل منهم يحمل بضاعته التي لم يبع منها شيئاً – فلا معنى لتبديل شيء بشيء ما دامت البضاعة نفسها موجودة عند الجميع. الرابحان الوحيدان هما كودامانتس فاسيلي، وشالفارانتس أفانيس، فعند الأول يمكن أن يشحذ المرء أدوات تشذيب الحديقة، أو استبدال جديدة بها ودفع فرق الثمن، وعند الثاني يستطيع أن يملأ كيس تبغه.

في غير بازار السبت يستطيع الناس التسوّق في دكان نيميتسانتس موكوتش. كان موكوتش يسرج عربته مرتين في الأسبوع وينطلق بها إلى الوادي، فيجلب منه القليل من كل شيء – السكر، والملح، والأرز، والفاصولياء، والكبريت، والصابون، والسمك المعلب، وبعض الملابس والأحذية التي يأتي بها بناء على طلب الزبائن، شريطة أن يعيدها إذا لم يكن قياسها مناسباً. وكان موكوتش يساعد

أهالي القرية باللوازم الطبية وبوجه خاص – الشاش والقطن، واليود، وشراب المارغانيز الأخضر.

كان أهالي القرية يعالجون أمراضهم بالشرابات والأدوية التي تحضرها شلابكانتس ياسامان. فالمسنون كانوا ينظرون إلى الأدوية العادية بعين الشك ولا يحبذونها.

ياسامان تنهمك يومياً في تحضير شراباتها – في الصباح قبل شروق الشمس حتماً، أو في المساء بعد الغروب بالتحديد. وفي أثناء انشغال الزوجة بطبخ الأعشاب في بناء بسيط قرب قبو المؤونة، كان أفانيس يخفق صفار بيضتين مع عدة ملاعق من السكر الناعم حتى يتحوّل الخليط إلى رغوة كثيفة، يحضر شاياً ثقيلاً، وبعد ذلك يدخن أمام نافذة المطبخ المفتوحة على مصراعيها، متأملاً رقع السماء الشاحبة الشفافة التائهة بين أغصان شجرة التوت.

– أوخ! – يردد بعد كل رشفة شاي، بصوت ينم على الرضا.

بعد ذلك يخرج جذعه حتى الخصر من النافذة وينادي زوجته:

– شلابكانتس! آي شلابكانتس! هل تسمعين ما أقوله! يا شلابكانتس ياسامان!

– ماذا تريد يا شالفارانتس أفانيس! – ترد ياسامان باستياء. يضحك أفانيس.

لقد كانا الزوجين الأكثر طرافة في القرية. كلمة شلابكانتس، تعني أن ياسامان من آل شلابكا [6] ، وكلمة شالفارانتس – تعني أن أفانيس من آل شالفار [7] .

لكل أسرة في ماران لقب. وهذه الألقاب في غالبيتها مضحكة وطريفة، وأحياناً – تكون ساخرة، لكنها تكون في حالات نادرة – مسيئة جداً. ويتوقف لقب الأسرة على الأعمال الطيّبة أو غير اللائقة التي قام بها من أُطلق عليه اللقب، ثم انتقل فيما بعد إلى أحفاده.

والد جد ياسامان، مثلاً، كان في شبابه يزور كثيراً ابن عمه، كبير الممثلين في أحد المسارح الأكاديمية في الوادي. وكان ابن عمه يأخذه معه لمشاهدة العروض المسرحية، والتعرف على الحياة في المدينة، ويعلّمه كيف يختار ملابسه. وذات يوم، عاد من الوادي معتمراً قبعة مثيرة، إن جاز التعبير، لم يعرف لها سكان ماران مثيلاً من قبل. وفي جوابه على سؤالهم: ما هذا؟ كان يقول: «شلابكا!»، لذا أطلقوا عليه لقب شلابكا، وصار أحفاده – شلابكانتس.

أما حكاية لقب آل شالفارانتس فمختلفة تماماً. استعد جدّ أفانيس للالتحاق بالحرب العالمية وكأنه يستعد لاستقبال العيد، – عقص شاربيه، ونكّس قبعته العالية إلى الأمام، وصالب الجناد المحشو بالطلقات على صدره، وارتدى بنطالاً جديداً غالي الثمن. لكنه لم يصل إلى فوجه، إذ وقع في كمين، فأصابته شظية طائشة، شوهت القسم السفلي من ساقه. خطورة جرحه اضطرت الأطباء إلى بتر جزء من ساقه، وحين شفي سُرّح وعاد إلى البيت. الغريب هو أن جدّ أفانيس لم يحزن كثيراً في المشفى الميداني على فقد ساقه، بل حزن على بنطاله الذي اضطر إلى التخلي عنه.

– شالفارس، شالفارس، – كان يصرخ شاكياً أمام الممرضات والأطباء. وهذا ما جعلهم يطلقون عليه لقب شالفار، وصار (شالفارانتس) لقب أحفاده جميعاً.

كان أهل القرية يمزحون قائلين إن ياسامان وأفانيس يكمّل بعضهما بعضاً كقطعتي ملابس.

وكان أفانيس يحب كثيراً أن يسخر من زوجته، فلا يناديها باسمها، بل بلقب شلابكانتس مجرداً. أما هي، فلكي لا تبقى مدينة لزوجها، تسارع فتذكّره بتاريخ جده العائر الذي استطاع أن يصير مشوّه حرب من دون أن يحارب دقيقة واحدة.

وها هو ذا وقد تبادل اليوم مع زوجته المجاملة اليومية، يدخن سيجارته (اللف)، مبتعداً عن النافذة، فإذا به يسمع صوت بوابة الحديقة وهي تفتح. مدّ عنقه ناظراً إلى الزائر المبكر. كان القادم الحداد فاسيلي، حاملاً معه منجلاً على كتفه – فاسيلي رجل طويل القامة، متين البنية، عيناه واسعتان لهما لون الرماد المنطفئ، وحاجباه كثّان نافران، وهو يبدو أصغر بكثير من أعوامه السبعة والستين: قامته مشدودة، وشعره أشيب، وكتفاه يوحيان بالقوة، وقبضتاه ضخمتان – ذات يوم، في أعوام الصبا، استطاع في رهان أن يقتل بهما ثور نيميتسانتس موكوتش، فاضطر موكوتش إلى صنع (القاورما) من لحم ثوره، ولم يجرؤ على مطالبة فاسيلي بتعويض، إذ لم يكن يملك الحق في ذلك، فهو من راح يراهن بغباء ومن دون عقل، مؤكداً، والزبد يعلو شفتيه، أن الضرب بقبضة اليد لا يمكن أن يقتل ثوراً.

– أتريد أن أريك أن ذلك ممكن؟ – قال فاسيلي وهو يضحك ضحكة قصيرة ساخرة.

– أريد!

خلع فاسيلي سترته، ورفع كميّ قميصه عن ذراعيه، ومضى إلى تحت المظلة، حيث كان الثور الأسود اللامع المربوط إلى وتد دُقّ في الأرض، يشخر هازاً رأسه ذا الجبهة العريضة.

– ألن تندم؟ – دمدم أهل القرية خلف ظهر موكوتش.

ضحك ضحكة قصيرة، ساخرة، متعالية ردّاً على تساؤلهم.

عاد فاسيلي فضحك، مرة ثانية، ضحكة قصيرة ساخرة، ورفع قبضته فوق رقبة الثور ثم أسقطه أرضاً بضربة دقيقة على نقرته. بعد ذلك الحدث لم يجرؤ أحد من رجال القرية على خوض معركة بالأيدي معه، بل لم يعد أحد يدخل معه في رهان. كان فاسيلي القليل الكلام، الهادئ دائماً – الذي لا يتكلم إلا إذا سألته – من ذلك النوع من الرجال الذي يجعلك مجرّد مظهرهم تحترمهم احتراماً عميقاً.

– «سمّ الأفاعي ينقّط من حواجبهم» – هذا ما كان يقوله المارانيون عن أمثاله من الرجال بلهجة تنم على الاحترام.

فاسيلي كان متواضعاً بطبيعته، يتلقى بسخرية احترام أهل القرية له، لكنه لم يكن يظهر ذلك: كان متجهماً، وفظاً أحياناً، وقليل الكلام، لكن خشونته لم تكن تخيف زبائنه – كان حداداً مشهوراً، ورجلاً صاحب ضمير، كان، إذا عجز المشتري عن الدفع فوراً، يوافق على الانتظار المدة اللازمة. القرية كلها كانت مدينة له، لكنه لم يكن يطالب أحداً بالدفع. تضاءل العمل في ورشته بعد الحرب لكنه لم يشكُ، «حالنا كحال الناس»، – كان هذا ردّه على الشكاوى الدائمة لزوجته، من قلة المال، وكان هذا يخرجها حتماً عن طورها. ياكوليتشانتس ماغتاخيني التي قضى فاسيلي معها نصف قرن تقريباً، امرأة مدبرة وشغّيلة، لكنها كثيرة الكلام، حين تغضب يمكن أن تنهمر كلماتها بلا نهاية، تتخلل انهمارها وقفات قصيرة لالتقاط الأنفاس، فيصبر فاسيلي، ويصبر، ثم يمسكها من كوعها ويقودها إلى أبعد غرفة في المنزل، يحبسها هناك ويقفل الباب.

– أخبريني، حين تنهين كلامك!

كانت ماغتاخيني التي يشعلها تصرف زوجها الفظ، تتكلم بصوت عال كي تُسمعه قبل أي إنسان آخر، شكواها من حظها العائر، ومن أبيها وأمها، اللذين زوجاها من هذا الرجل الفظ، الخشن، القليل الحيلة، في حين أنهما زوّجا بناتهما الأخريات لأسر محترمة، لا سيما أختها الصغرى المحبوبة لديهما شوشانيك، التي جمعا لها، بالمناسبة، بائنة ثرية – ثلاث سجادات، وصندوقين من البياضات،

وقطعة أرض خصبة، وثلاث بقرات، وأنثى خنزير ولاّدة، وعشرين دجاجة بياضة، وذهباً، لو لبسته دفعة واحدة لانكسر عمودها الفقري النحيل، أما ماغتاخيني فمنحاها بائنة أقل بمرتين مما أعطياه لأختها، حتى الحليّ لم تكن ذهبية، بل فضية، غير أن الزمن أعاد كل شيء إلى مكانه، أولادهما الآخرون كانوا أول من غادر هذا العالم، عقاباً لهما على ظلمهما لماغتاخيني، الأختان الأكبر سناً قتلهما الجوع، والأخ الوحيد قتلته ضربة صاعقة، أما ابنتهما المفضلة شوشانيك، فماتت بالسكتة القلبية بعد أن اختنقت في نوبة إقياء. وهكذا اضطر الأبوان إلى الاعتماد على ماغتاخيني بقية أيام حياتهما، وهي لم تقصّر طبعاً، كانت بقربهما دائماً، محبة، متفانية، تخدمهما، وتحميهما، تحضر لأبيها المبولة، حين صار عاجزاً عن المشي، وتضع لأمها كمّادات الخلّ الساخنة على الكعبين لكي تخفف عنها ألم نوبات الصداع الشقيقي اللامتناهية التي ازدادت بعد أن غادرت شوشانيك هذا العالم الملعون، وقد ظلت الحال هكذا إلى أن مات أبواها، أبوها مات أولاً، في يوم بلوغ ابنته الستين من العمر، وها هي ذي الآن تقضي عيد ميلادها كل عام في المقبرة، تعتني بقبره، ثم ماتت الأم بعد أن أتلفت أعصاب ابنتها تماماً، لأنها مع اقتراب نهاية حياتها، فقدت عقلها، صارت تتغوط في فراشها، ثم تدهن الجدران والأرض بما تفرزه من «خيرات»، وهذا ما دفع البنت إلى سجنها في الغرفة، كيلا تنشر فنها في البيت كله، وحين ماتت، قامت ماغتاخيني بنزع الملاط عن الجدران كي تليّسها من جديد، فما رسمته الأم على هذه الجدران الأربعة التعيسة، لم يكن قليلاً، لقد كانت أمعاء المتوفاة، على عكس عقلها، تعمل بشكل جيد ومن دون أعطال. وهذا ليس مستغرباً، فالتغوط أسهل من التفكير، لكنها، الآن بعد أن مات أهلها، صارت وحيدة تماماً إذا لم يؤخذ بالحسبان هذا الزوج – شرّابة الخرج، الذي لا تتبادل معه كلمتين إلا بصعوبة، قبلاً، كان من الممكن أن تتحدث إلى أمها من وراء الباب المغلق، صحيح أن أمها فقدت عقلها، لكنها كانت تستطيع محادثتك، أنت تقول كلمة، فترد هي بكلمة، ليس المهم أن يكون جوابها سليماً، المهم أن يكون هناك تواصل حيّ، ومشاركة، لماذا قدّر لها أن تواجه هذا المصير المر؟! تعيش غير محبوبة من الجميع، وترحل غير محبوبة، كتلك الكلبة العجوز التي تشفق أن تقتلها، ولا ترى جدوى من إطعامها، فهي ستفطس على كل حال!

تفرغ ماغتاخيني شحنة انفعالها، فتتسلّ من النافذة وهي تتوخوخ، وتنهمر من فمها اللعنات، متلمّسة بحذر، بنعل حذائها المهترئ، كل درجة من درجات السلم الخشبي الذي تحتفظ به بالقرب من نافذة الغرفة التي يسجنها فيها. في أثناء نزولها عن السلم يكون فاسيلي جالساً في ورشته يقطّع النهار الذي لا عمل فيه، فيتذكّر، وهو ينفخ دخان غليونه، أيام كان العمل كثيراً لا يتيح له فرصة لتجليس ظهره، وكانت زوجته غارقة في أعمال المنزل، هادئة، مستكينة كليلة مثلجة.

كانت ماغتاخيني تعتقد اعتقاداً راسخاً بأنها ستعيش بعد زوجها، وكانت تقول له دائماً: «ماذا سأفعل بعد أن تموت؟» لكن ما حدث كان عكس ذلك. خرجت في ذروة اشتداد الحر تنظف الحديقة من الأعشاب الطفيلية – فسقطت ميتة، صرعها نزيف في الدماغ. بكاها فاسيلي، وتعذّب طويلاً وهو يحاول التأقلم مع الهدوء الخانق الذي انتشر في المنزل.

لقد كانت ماغتاخيني، بغض النظر عن كثرة شكواها، زوجة صالحة، لا يمكن وصفها بالحنان، هو، بالمناسبة، افتقر إلى الحنان طوال عمره، لكنها مخلصة، شديدة العناية به، تقف دائماً بجانبه، في الحزن والفرح، في الرخاء، والفقر.

بعد موت ماغتاخيني، صارت ساتينيك، عاملة البرق، تساعده في الأعمال المنزلية، وهي ابنة عم من الدرجة الثانية لفاسيلي، حاولت لفت انتباهه إلى سيفويانتس أناتوليا. في البداية، لم يهتم بكلامها، لكنها استمرت تحاول بإلحاح، منبهة إلى أنها، هي نفسها، في الثمانين تقريباً، صحيح أنها اليوم هنا، ولكنّها غداً لن تكون، وابن عمها، الاستاذ الماهر في أعمال الحدادة، طفل صغير في

الأعمال المنزلية، فهو لا يتقن الطبخ، ولا غسيل الملابس، أضف إلى ذلك أن الوحدة بالنسبة للرجل أخطر من أشد الأمراض فتكاً، وأن أناتوليا ما تزال شابة، وجميلة، وهي أيضاً وحيدة، وصموتة. وهو يحب المرأة الصموت، فلماذا لا يقترنان؟

– والأهم من ذلك كله، – قالت ساتينيك طارحة حجتها الأقوى، – أنها ذكية قرأت الكثير من الكتب!

ابنة العم كانت تعرف طبعاً، الحجة التي تستخدمها في الضغط عليه. لقد كان فاسيلي منذ طفولته يحترم المثقفين احتراماً كبيراً. فهو، لأنه فلاح، غير متعلم، – لم تكن هناك مدرسة في ماران، ولم تكن أمه الفقيرة قادرة على دفع نفقات تعلمه في الوادي، – بذل أقصى ما يستطيع من جهد كي يؤمن لأولاده تعليماً جيداً، بل لم يفقد الأمل في أن يتعلم هو أيضاً، فحين أرادوا فتح مدرسة مسائية في ماران فرح فاسيلي فرحاً لا يوصف، لكن المجاعة حلّت، فحصدت نصف سكان القرية وتوقف الحديث عن المدرسة المسائية.

الحرب انتزعت منه أخاه وابنيه، ساقوا الابنين من الأكاديمية التعليمية إلى الجبهة، وهكذا لم تتح لفاسيلي وماغتاخيني فرصة وداعهما. أما الأخ فأخذوه من ورشة الحدادة مباشرة، وفاسيلي ما يزال حتى اليوم يذكر نظرته الحائرة المتحولة إلى طفلية، وكف يده اليسرى المرفوعة إلى أعلى، وأثر جرح عميق في راحته حيث خط الحياة المنحني يلتف حول الإبهام ويتلاشى جانباً. لقد بقي هذا الأثر بعد أن أفلتت من يد فاسيلي قطعة من الحديد المصهور وسقطت على الأرض، فأصابت نقطة من النقاط المتطايرة منه راحة يد أخيه وأحرقتها حتى العظم تقريباً. استغرق التئام الجرح زمناً طويلاً، وسبب الكثير من الألم. التهب ونزف الكثير من الدم، وأنفقت عليه شلابكانتس ياسامان احتياطيها كله من الكريمات العلاجية. وحين التأم الجرح وشفي، وصار بمقدور الأخ أن يحمل مطرقة الحدّاد من جديد حلّت الحرب. كانت كف فاسيلي تصاب بالخدر كلما تذكّر أخاه. كان يعبس، ويتأوه، ويفرك يده طويلاً عن عمد، ويكزّ على فكيه ويرفّ بعينيه كثيراً كي يطرد الدموع. هو لم يعد أبداً للحديث عن ولديه – منع نفسه إلى الأبد عن ذكرهما، بعد أن بدأ يتعافى من ذلك الألم الفظيع الذي عاناه حين تلقى خبر موتهما، ومنع زوجته أيضاً من ذكر اسميهما في مونولوجاتها التي لا تنتهي.

– حين نموت سنلتقي بهما، وسنتحدث معهما قدر ما نريد.

وافقته ماغتاخيني بسهولة غير متوقعة، ولم تلفظ اسميهما أمام زوجها أبداً، فتأثر فاسيلي بالتزامها، وصار لبعض الوقت يتحمل بصبر سيل الكلام المتدفق منها بلا ضوابط، إلى أن وجدها ذات يوم، وقد عاد إلى المنزل قبل الموعد المعتاد، واقفة أمام المرآة، حاملة بيديها صورتي ولديها، وهي تتمايل برتابة، تنقّل بصرها من صورة إلى أخرى، وتشكو مصيرها، ومصير جدّهما العاجز المسمّر في كرسيه الهزاز، الذي عدّله فاسيلي بحيث ينزاح المقعد ويوضع مكانه وعاء التغوّط، دون الحاجة إلى تحريك العجوز، وقد اضطرت ماغتاخيني إلى أن تخيط له سروالاً يستطيع أن يقضي حاجته دون أن يخلعه. لولا ذلك، تقول شاكية، لكان الأمر مستحيلاً، فأنا لا أستطيع رفعه، وما من معين، فأبوكما في ورشته من الفجر حتى غروب الشمس، وجدتكما لا فائدة منها، كل ما تفعله هو الطواف على الجيران وجمع الشائعات. لقد صارت غريبة الطباع، لا يعجبها هذا، ولا يعجبها ذاك، أنا أحياناً أظن – واللّهَ أرجو أن يسامحني – أنها فقدت عقلها، قبل فترة وجدتها في القبو، كانت تجلس في إحدى زواياه، تقول وعيناها تتوهجان: أنا أنتظر الريح، سألتها أية ريح يا ماما؟ أجابتني: أنت لا تفهمين أية ريح، فقلت لها: ومن أين لي، أنا المحدودة العقل، أن أفهم! لو كنت شوشانيك لاختلف الأمر. ما إن سمعتني أنطق اسم عمتكما الصغرى، حتى هبت واقفة، مهتاجة، تصول وتجول في

القبو، فتكاد تحطم موجوداته، ولم أستطع تهدئتها إلا بصعوبة. اقتدتها إلى البيت، وسقيتها الشاي بالنعناع، وفركت صدغيها بورق التوت، فاستعادت هدوءها، وظلّت كذلك مدة شهر تقريباً، لكنها قامت البارحة بتصرف غريب آخر – ذهبت إلى جارتنا ييبوغانتس فالينكا، وقفت على عتبة باب بيتها وقالت لها: نادي لي أمك، فلي معها حديث، كانت تريد أن تتحدث إلى ييبوغانتس كاتينكا، التي ماتت منذ ما يقرب النصف قرن، من حسن الحظ أن فالينكا لم تزعل من طلبها، فقد فهمت على الفور أن الإنسان العاقل لا يمكن أن يفعل ما تفعل، قادتها إلى الغرفة، أجلستها على الديوانة، وقالت لها: انتظري قليلاً، سأذهب لأنادي ماما، ثم أسرعت إليّ، وحدثتني بالأمر قائلة: يبدو لي يا ماغتاخيني أن امك ليست على ما يرام. عدت معها إلى بيتها فرأينا جدتكما جالسة على الأرض، وقد أحاطت نفسها بالمساند، كما لو كانت شاهانة، حين رأتنا راحت تقول: هاتوا لنا حلاوة بالفستق، وغرفانكان من الزبيب، واحرصوا على أن يكون الزبيب خالياً من البذور، ثم استدارت نحو الحائط وشرعت تحادثه وتسميه كاتينكا.

في صباح اليوم التالي، انتهز فاسيلي فرصة ذهاب زوجته إلى الحاكورة، فلفّ صورتي ولديه في جريدة وحملها إلى ساتينيك، وطلب منها أن تخفيها في مكان لا تستطيع ماغتاخيني الوصول إليه.

أخذت ساتينيك الصرّة منه، غير أنها سألته عن سبب هذا التصرف القاسي تجاه زوجته.

– لقد التهمت قرعتي كلها بشكاويها، والآن التفتت إلى الولدين. لن أسمح لها بتعكير صفو مرقدهما! – قال فاسيلي بلهجة قاطعة.

جالت ساتينيك طويلاً في المنزل، باحثة عن مخبأ للصورتين، ثم خبأتهما في آخر الأمر، في علبة دبابيس معدنية، وضعتها في قاع صندوق البياضات، تحت أكياس صغيرة معبأة بورق الغار المجفف والنفتالين. حين اكتشفت ماغتاخيني فقدان الصورتين خشيت أن تتشاجر مع زوجها، فهرعت إلى ساتينيك، التي اضطرت إلى استجماع طاقتها كلها وبذلها كي لا ينفضح أمرها. وبعد نقاش طويل استطاعت أن تقنع ماغتاخيني بعدم فتح الحديث عن الصورتين المفقودتين مع فاسيلي. التزمت ماغتاخيني بنصيحتها، ولكنها أضمرت زعلاً كبيراً من زوجها، وانتقاماً منه زادت كثيراً سيل شكاويها التي لا تنتهي، بتلميحات غامضة إلى أنه حتى أقسى الناس الأغبياء قلباً، لا يستطيع أن يمحو من قلبها صور الذين تحبهم، لأن قلبها كبير وعميق بلا حدود، لا يقارن بالقلوب البائسة لأولئك الذين يستطيعون، دون أن تتأثر ضمائرهم، أن يأخذوا من البيت أغلى ما كان، ويكون، وسيكون لدى أم مضحية، محبة، وتعيسة، وإذا ما كان باستطاعة قساة القلوب هؤلاء، أن يحبسوا حزنهم، فإنها، هي، لا تستطيع ذلك، لأن قواها شارفت على النفاد، وروحها كروح ذك الحيوان الذي وقع في الفخ، فهو لا يستطيع الإفلات، ولا يستطيع الموت، وليس بمقدوره إلا أن ينتظر نهايته الحتمية الفظيعة. كان فاسيلي يتحمّل شكاويها في صمت، يعبس، يتوخوخ، ثم يغادر إلى ورشته، فيجلس بالقرب من فرن الصهر البارد، يدخن غليونه، ويفرك كفّ يده اليسرى دون توقف، محاولاً بلا جدوى، تخفيف ألمها الذي لا يهدأ.

بعد موت ماغتاخيني، أرادت ساتينيك أن تعيد لابن عمها صورتي ولديه، لكنها قررت التريث – دعه يخرج قليلاً من حزنه. الصورتان اللتان لم تتأثرا بالصقيع، وهجمات العفن، بفضل علبة الدبابيس المعدنية انتقلتا الآن من صندوق البياضات إلى علبة خشبية في انتظار ساعة عودتهما لتكونا تحت جناح الأب.

في هذه الأثناء انشغلت ساتينيك في ترتيب حياة ابن عمها. خطوتها الأولى كانت تبادل بضع كلمات مع شلابكانتس ياسامان.

ابتهجت ياسامان بظهور إمكانية لتخليص صديقتها من وحدتها، فوعدت ساتينيك بالتحدث مع أناتوليا. أما ساتينيك فشرعت، بعد أن ضمنت تأييد ياسامان، بإقناع فاسيلي، الذي رفض الفكرة في البداية، ولم يأخذ كلماتها على محمل الجد، لكنه فيما بعد أرغم نفسه على الموافقة، لأنه، هو نفسه، يعرف أن العذابات التي تفوق عذاب الوحدة في الشيخوخة، قليلة في هذا العالم.

كان فاسيلي يكنّ لأناتوليا احتراماً كبيراً، وقد نوى مرات عدة، حتى قبل الحرب أن يزور المكتبة ليستعير كتاب تعلّم القراءة ذاتياً، لكنه كان يخجل دائماً، فيمر بالمكتبة دون توقف، وذلك لأنه رأى ذات يوم كيف عقدت أناتوليا على عصا المكنسة خرقة بللتها بالخل المخفف بالماء، وراحت تمسح الجدار الحجري تحت أعشاش السنونو، كانت تلتف بحذر حول كل عش كيلا تعلق به الممسحة مصادفة فيتهدم. تذكّر نفسه حين كان شاباً برأس فارغ، مستعداً لقتل ثور بريء في رهان، – فشعر بالخجل. هذا هو الفرق بين الإنسان المتعلم، والإنسان الجاهل، قال فاسيلي في سره، وهو يمشي نحو ورشته الساخنة مبتعداً عن المكتبة، المتعلم يخاف أن يهدم عشّاً فارغاً، اما الجاهل فمستعد لأن يزهق روح حيوان بريء، لا لشيء، إلا ليظهر قوته الغبية.

– إنها ذكية، قرأت كتباً مثيرة، فما حاجتها إلى رجل غبي، خشن مثلي! – قال لابنة عمه، يقاسمها شكوكه وأفكاره.

– ألم يكن زوجها ذكياً وقارئاً أيضاً؟ – قالت ساتينيك وهي تضحك ضحكة قصيرة ساخرة. لقد ضربها ذلك المشوه، القاسي القلب، ضرباً مميتاً، أما هي المتعلمة فصبرت. انظر إلى نفسك – أنت محترم، وشغيل، ويمكن الاعتماد عليك. لم ترفع يدك أبداً لتضرب ماغتاخيني، رغم أنها، غفر الله لها، كانت في مرات كثيرة تستحق الضرب الشديد. الثقافة يا فاسو – الحبيب، ليست هنا، – نقرت ساتينيك جبين ابن عمها بإصبعها، – بل هنا، في القلب، – قالت ذلك وهي تضع يدها على صدره.

نزل فاسيلي عند رغبتها، انتظر حتى نفد التبغ عنده ثم ذهب إلى أفانيس، اشترى تبغاً، ثم تنحنح وسأل متلعثماً، مرتبكاً، عن أناتوليا، فقاطعه أفانيس قبل أن ينهي كلامه:

– إنه لمن دواعي سروري أن تتزوجا. صحيح أن ياسامان تقول: أناتوليا ليست راغبة في زواج جديد، لكنك تعرف النساء. إنهن يفكّرن اليوم في أمر، وغداً في نقيضه. امنحها بعض الوقت كي تألف هذه الفكرة، آنذاك سنرى ما يكون.

منذ ذلك اليوم، صار فاسيلي يكثر من زياراته لأفانيس وياسامان، يتبادلون الأحاديث ويلعبون النرد. وذات يوم التقى عندهما بأناتوليا فحياها باحترام، لكن مزاجها كان عكراً لسبب ما، فأخذت الملح من عند ياسامان وغادرت على عجل.

– أظن أنك قلت إن منجلك لم يعد يحصد العشب جيداً، يا بنيتي، اطلبي من فاسيلي أن يشحذه – قال أفانيس محاولاً أن يستوقفها.

– شكراً، لا داعي لذلك، فقد شحذته بنفسي، – قالت أناتوليا رافضة عرضه برفق، ثم اتجهت نحو الباب.

– إنها عنيدة كالحمار. هي كأبيها تماماً، – قال أفانيس بعد أن غادرت، باسطاً يديه علامة العجز.

– هي ابنة أبيها، وأنا ابن أبي. سنرى من سيغلب من، – قال فاسيلي وهو يكتم ضحكة

ساخرة.

آنذاك ضرب أفانيس ركبتيه بيديه وضحك. أما الآن فهو يخفي ابتسامته بلحيته ويتأمل كيف كان حد المنجل المسنون جيداً، وقبضته المحفوفة حتى اللمعان، يتلألآن على كتف فاسيلي في ضوء الشمس.

– أرى أنك جئت تحمل هدية، صاح أفانيس.

تابع فاسيلي صعود الدرج وحدّ منجله يرتطم بعريشة الكرمة التي تغطي الإفريز وأعمدة الشرفة.

– أليس الأفضل أن تترك المنجل في الأسفل؟ – قال أفانيس وقد نفد صبره. ارتبك فاسيلي، انزل المنجل عن كتفه، وأسنده إلى إفريز الدرج في وضع ثابت.

– أنا جئت لرؤية أناتوليا. لقد صنعت لها منجلاً جديداً بدلاً من منجلها الذي لم يعد صالحاً.

– وكيف أخطأت منزلها؟

– اسمع... البارحة، عند غياب الشمس مررت بها – كل الأنوار عندها مطفأة. مررت اليوم صباحاً – الطيور ما زالت في القن، والفناء جاف، يبدو أنه لم يُرشّ بالماء ولم يكنس. قرعت الباب – لم يجب أحد.

– هيه، لعلها ما زالت نائمة.

– قد تكون نائمة. ما أطلبه يا أفانيس، هو أن تذهب ياسامان وترى ما حالها.

– ياسامان تطبخ أعشابها. ستذهب إليها حين تنهي عملها. وعموماً، – قال أفانيس بلهجة ذات مغزى، – لو كنت مكانك لأوصلت بنفسي هذا الأمر إلى نهايته، ما دمت، والحمد لله، قد قررت ذلك وحكّ فاسيلي نقرته، ثم تنكب المنجل من جديد.

– سأذهب وأقرع الباب مرة ثانية.

– اترك المنجل هنا على الأقل، أنت تسير به كالمقيد، دعه هنا، فهو لن يذهب إلى أي مكان، ستأخذه إليها فيما بعد.

– لا، سآخذه معي، ذلك أفضل.

– طبعاً، طبعاً، تذهب للخطبة والآلة في يدك.

– ماذا قلت؟

– أقول – بالتوفيق. مرّ بي فيما بعد، وأخبرني بالنتيجة.

انتظر أفانيس حتى غاب فاسيلي وراء البوابة، ثم تناول حذاءه، ودسّ شرائط الحذاء في داخله، كي لا تتعثر بها قدماه، ومضى مسرعاً إلى زوجته في المبنى المجاور. كانت ياسامان تصفّي في هذه الأثناء مغليّ الأعشاب الذي برد، عبر قطعة من الشاش، في قارورة زجاجها غامق اللون. في الغرفة تنتشر بقوة رائحة الأعشاب الجافة والكحول المقطر من التوت البري، وهو ما كانت تستخدمه دائماً في تحضير المراهم العلاجية.

– اسمعي يا ياسامان، – أغلق أفانيس الباب خلفه بإحكام كي لا تتسلل إلى المكان أشعة الشمس القاتلة للمراهم.

– مع من كنت تتحدث؟

– مع فاسيلي. هو يقول إن أناتوليا لا تفتح له الباب.

– كيف لا تفتح؟

– هكذا، لعلها خافت من المنجل.

جمدت ياسامان وفي يدها قطعة الشاش.

– أي منجل؟

– ذلك الذي حمله إليها هدية، ملّ الانتظار حتى تعامله بمودة فجاء إليها حاملاً منجله، وكأنه يقول: ستفقدين رأسك إن رفضتني.

ضحكت ياسامان ساخرة وهي تنظر إلى زوجها. أما هو فكان يتأمل بهدوء مطلق زجاجة مغليّ الأعشاب في ضوء شعاع يتسلل من أحد الشقوق. أعاد الزجاجة إلى مكانها على الرف وضحك ضحكة قصيرة ساخرة.

– كنت أنوي الذهاب لسقاية شتلات التبغ، لكني مضطر لانتظار عودة فاسيلي، أريد أن أعرف نهاية هذا الأمر.

– ليته ينجح في إقناعها، – قالت ياسامان وهي تتنهد.

الفصل الثالث

كانت أناتوليا، في كل مرة يميل فيها أبوها بثقله على ساقه اليسرى، ويطوف بالمنجل في حركة حادة واسعة بيده اليمنى حاصداً صفّاً جديداً من العشب، ترى كيف تتقلص عضلات ساقيه تحت فردتي بنطاله المدكوكتين داخل جزمته. فتقول في سرها: "أظن أن العمل غير مريح حين تكون الملابس ملاصقة للجسد إلى هذا الحد". كان المطر يهطل قوياً، ولكنه كان مدهشاً في سهولة انصبابه، يسيل وكأنه يجري في ساقية. بسطت أناتوليا راحتها فأحست بملامسته وكأنها الأنفاس الخجولة للعجل غروشا الذي كانت في طفولتها تحضر له الجزر في كل صباح، – فيأكل (الضيافة) وينفخ في راحتها وهو ينظر إليها بعينين واسعتين مبللتين تظللهما رموش طويلة لمّاعة.

– غرو – و – شا، تقول له بلهجة رجاء، غرو – و – شا.

– مو – مو – مو، يجيبها العجل وهو يحرّك أذنيه الكبيرتين – مو – مو – مو.

عبّت أناتوليا الهواء الرطب ملء صدرها – شعرت بدوار سببته رائحة التفاح المبكر الحادة، ثمار صغيرة الحجم، لونها زهري فاتح، تتخلله خطوط وردية، أما بذورها فلونها خمري ساطع. ماما كانت تصنع من هذا التفاح مربى عطراً بطعم العسل والقرفة، فتنتشل أختها الكبرى من الإناء تفاحة ممسكة بذيلها، واضعة يدها تحتها كيلا تسقط نقط المربى على الأرض، وتقدمها لها قائلة: هيّا، كلي.

كان المطر يهطل وكأنه يغسل الأحزان كلها، يمسّد شعرها، ويعانق كتفيها، ويدغدغ نقرتها. ترفع أناتوليا وجهها نحوه، دون أن تغمض عينيها، كيلا تُضيع صورة والدها، وتفرح لأن أباها اختار الوقت المناسب للعمل، فقص العشب يكون أسهل ما يكون في الطقس الماطر.

آ، آيريك! – تنادي بصوت مديد منغّم، – آ، آي – ريك [8] .

والدها لا يسمعها. يظل يحرك منجله الثقيل الطويل الساق، دون أن يبدو عليه أنه يبذل جهداً. كان يتقدم نحو طرف الحقل – لم يكن يستخدم هذه المناجل الكبيرة إلا الرجال ذوو القامات الطويلة والقوة الخارقة، الذين كانوا يسمونهم أجداآكات، أي المردة. سيفويانتس كابيتون كان، على ما يبدو، واحداً من هؤلاء الأجداآكات – إنه قويّ، طوله متران، لا ينحني، صلب كالصخر، له كتفان عريضان جداً، يحمل على أحدهما الأختين الكبيرتين، وعلى الآخر فوسكي وأناتوليا، ويدور بهن في الفناء وهنّ يزقزقن بسعادة، تتداخل مع أصواتهن صرخات الجدة العجوز الخائفة مانيه – حذار أن يقعن يا حبيبي كابيتون، حذار أن يقعن!

– لن يقعن، يجيبها كابيتون ضاحكاً.

المطر ينهمر سيلاً متصلاً، يغمرها، يهدهدها، يشد كتفيها إلى الخلف، إلى هناك، حيث الجو صاخب وغير مريح، إلى حيث لم تكن تريد أن تلتفت، ولم تكن تريد أن تعود. جداول الماء صارت أكثر سماكة وكثافة، إنها تحجب عن أناتوليا أباها – أقلقها ذلك، حاولت أن تخطو نحوه، لكن ساقيها خذلتاها، الضجة التي كانت خافتة وراءها، ازدادت قوة ونمت، وأخيراً تجاوزت حواجز مبهمة غير مرئية، ووصلت إليها، وتحولت إلى نداء ملحّ، مديد، يائس:

– أناتوليا! آي أناتوليا! آ – نا – تو – لي – ا!

فتحت أناتوليا عينيها، فرأت في الحال خيط عنكبوت رفيعاً عالقاً على جسر السقف الخشبي

يؤرجحه تيار الهواء. لو رأته الجدة مانيه لوبختها – ربة البيت الجيدة لا يمكن أن توجد عندها خيوط عنكبوت في السقف، ربة البيت الجيدة يجب أن تكنس الزوايا العلوية في الغرفة بواسطة خرقة جافة ملفوفة على المكنسة، كلّ يومين مرة على الأقل، كي لا يشاع في القرية كلها أنها امرأة مهملة.

غطت وجهها براحتيها، وأطلقت تنهيدة عميقة.

هي لم تمت.

أزاحت عن جسمها الغطاء بحذر شديد، وجلست. قطعة المشمع التي وضعتها تحتها للوقاية، ملوثة حتى أطرافها بالدم، وقميص نومها المبلل مشمور إلى أعلى. في أذنيها ضجة، وفي فمها طعم مرارة حاد، مزعج. صبت لنفسها ماء في الكأس وشربت.

خفّ صداعها قليلاً، لكن حوضها كان يؤلمها، وكأنها لم تقض يوم البارحة في السرير، بل قضته في العمل في الحقل. ألقت أناتوليا نظرة على شعاع الشمس الذي رقد ساكناً على حافة النافذة ودهشت من كونها استطاعت الاستمرار في النوم حتى منتصف النهار تقريباً. حين همت بالنهوض من الفراش سمعت صوت خطوات في الغرفة المجاورة.

عادت فرقدت بسرعة على الوسادة وغطت جسدها باللحاف، وفي هذه الأثناء علا صوت طرقات خفيفة على الباب.

– أناتوليا؟ أنا فاسيلي.

شعرت أناتوليا بالخوف، فقد يكون جاء يحمل خبراً سيئاً.

– هل حدث مكروه ما؟ – سألته.

صرّ الباب وانفتح مواربا.

– لقد طرقت الباب، وطرقت، دون جدوى. درت حول البيت، فرأيت النافذة مفتوحة. ناديتك فلم تجيبي. وهكذا قررت الدخول، فقد تكونين بحاجة إلى المساعدة.

تنهدت أناتوليا. هذا هو، إذن، من أعادها نداؤه إلى الحياة. جلست في السرير، وتناولت (الجاكيت) عن ظهر الكرسي، ارتدته، بكّلت أزراره كلها، مسّدت شعرها ترتّبه، وعدّلت وضع اللحاف، غطت به الشرشف كله فوق الفراش.

– ادخل، ما دمت قد أتيت.

علت خشخشة خلف الباب، ثم انفتح على مصراعيه، مفسحاً الطريق لدخول نصل المنجل الحاد. وراحت أناتوليا مذهولة تراقب في صمت كيف كان فاسيلي يحاول إبعاد المنجل عن الارتطام بخزانة البياضات، أدار نصله إلى أسفل وأسنده إلى الجدار، ثم التفت إليها وحيّاها بانحناءة قصيرة من رأسه.

ردت تحيته بانحناءة رأس حذرة، وعيناها المندهشتان لا تكفان عن النظر إلى المنجل.

– هل أنت مريضة؟ أتريدين أن أذهب فأدعو ياسامان إلى هنا؟ – سأل فاسيلي.

هزت أناتوليا رأسها، ونقلت بصرها ببطء إلى قدمي الضيف الذي خلع حذاءه حين دخل إلى الغرفة، وها هوذا يقف أمامها الآن مرتدياً جوربين مختلفين – أحدهما بني، والآخر متعدد الألوان، مقلماً بالأزرق والأصفر والأخضر. تتبع فاسيلي نظرتها، وقد انكمش تماماً. دمدم: «ارتديت ما وقع

تحت يدي»، وراح ينقّل قدميه في المكان مرتبكاً، يحاول دسّ يديه الضخمتين في جيبي بنطاله، لكنه أخفق، فخبأهما خلف ظهره، وعبس.

– سأذهب إذن؟

– ولماذا أتيت؟ – عادت ملكة الكلام لأناتوليا أخيراً.

– جئتك بمنجل هدية. – تمتم فاسيلي مرتبكاً، وأضاف مستاء من تردده: وأردت أن أطلبك للزواج.

جحظت عينا أناتوليا. دار ودار كل هذا الدوران، تارة يزور أفانيس وكأنه يريد أن يلعب النرد، وتارة تلمّح ياسامان إلى الأمر ببعض الكلمات، وها هو ذا قد ظهر الآن يحمل منجلاً لسبب غير مفهوم.

إنه يقف كمن رشوا على ذيله الرماد – يريد نفضه عن ذيله، ولا يريد أن يوسّخ الأرض.

كل فرد في ماران يعرف كل أسرار سائر أهل قريته، فهي مكشوفة لكل منهم كأنها في كفه – بكل ما فيها من أحزان، وآلام، وأمراض، وأفراح نادرة يطول انتظارها. علاقة كل منهم بالآخر تتسم بالحميمية والتعاطف، وهي مبنية على حسن الجوار، ليس أكثر. وأناتوليا لم تستطع أن تفهم ما المناسبة التي جعلت فاسيلي يفكر في خرق نظام الحياة هذا، فراحت تستعرض صور حياته الراشدة كلها – منذ ذلك الصباح الخريفي الذي عادت فيه، وهي صبية في التاسعة عشرة، إلى بيت أبيها (في ذلك اليوم بالذات ولد ابن فاسيلي البكر)، حتى ذلك اليوم الذي ماتت فيه ماغتاخيني وتركته أرمل وحيداً. هي لم تشعر يوماً نحوه بغير المودة والتعاطف، ولم تكن تفكر بالزواج منه. لكنها خجلت ولم ترد أن تسبب له الحزن – ها هو ذا منتفخ الأوداج، ينظر إليها من تحت جبينه، بعينيه الكبيرتين الجاحظتين قليلاً، السوداوين بلون الهباب البارد – ويقف صامتاً، مترقباً.

أقلق طول صمتها فاسيلي الذي لم يحوّل نظره المتوتر عن وجه أناتوليا الحائر، فقرر في سره أنه لن يصبر طويلاً إذا رفضته، بل سيذهب إلى ابنة عمه في مقسم البرق، فيسلخ جلد ظهرها، كيلا تدفعه مستقبلاً إلى ارتكاب الحماقات. لقد تدبر أمره، وهو أرمل، في الأعوام الثلاثة الأخيرة، ويستطيع أن يتدبّر أمره لاحقاً. الناس، حتى العجزة، يعيشون وحيدين، ولا يشتكون، أما هو فليس لديه ما يشكو منه، والحمد لله، فيداه ورجلاه في مكانهما، ورأسه ما زال يعمل، وليس هناك ما يدعوه للتذمر.

الاستمرار في الصمت صار بلا معنى – ففاسيلي تملكته غيوم عاصفة أمام عيني أناتوليا، الأمر الذي دفعها إلى اتخاذ القرار. إنها سترحل قريباً على كل حال، لذا لا داعي لأن تترك في نفسه حقداً عليها بسبب رفضها. استجمعت كل طاقتها في قبضة واحدة، وابتسمت ابتسامة قصيرة وهي تحني رأسها إيجاباً.

– هل تقبلين؟ – سأل فاسيلي متضرعاً.

– نعم، – أجابت أناتوليا ببساطة.

ارتبك فاسيلي. إنه رسم بدقة طرق التراجع في حال اتخاذ الأحداث مجرى غير ملائم، لكنه لم يفكر، لسبب ما، بردة فعله إذا جاء الجواب بالموافقة. لذا هو يقف الآن كمن صرعته صاعقة، لا يتحرك فيه إلا فمه الذي يعبُّ الهواء.

– أتراك غيرت رأيك؟ – قالت أناتوليا ضاحكة.

– لا، أبداً! – تمتم، أخيراً فاسيلي، ثم تنحنح خجلاً، وأسرع نحو الباب. – سأذهب إلى مركز البرق لأحضر ساتينيك.

– لماذا؟

– لأطلب يدك حسب الأصول.

– نحن لسنا في العشرين من عمرنا، – اعترضت أناتوليا بلطف. – دعنا نتجنب الشكليات.

– ما دمنا سنتجنب الشكليات، لا داعي للمطمطة! قال فاسيلي بحماسة. – اجمعي أشياءك وهيا بنا إلى بيتي.

– لا، نحن سنقيم في بيتي. هذا ما أريده.

– لك ما تريدين. سأذهب، إذن، فأجمع حاجتي، وآتي بها في المساء.

رفعت أناتوليا يدها في رجاء.

– امنحني يومين على الأقل.

– لماذا؟

– لكي أعتاد على الأمر، وأحضّر البيت لقدومك.

– حسناً، ليكن ما تريدين.

رفع فاسيلي المنجل ووضعه على كتفه.

– أين تحتفظين بالأدوات؟

– في القبو الكبير، على يمين الدرج.

– سآخذه إلى هناك. وسأخبر ياسامان وأفانيس أنك بخير. أظن أنهما قلقان جداً الآن.

– وماذا يقلقهما؟

– من أين لي أن أعرف؟

– قل لهما إني سأزورهما في المساء.

– في هذه الحال سأزورهما أنا أيضاً. قال فاسيلي ثم أغلق الباب وراءه خارجاً من الغرفة.

أصغت أناتوليا إلى وقع خطواته وهو يبتعد. كانت تشعر بعذاب الضمير، لكنها لم تستطع أن تتصرف بغير تلك الطريقة، لقد كان، المهم عندها آنذاك أن تتخلص من الضيف الذي لم تدعه. لذا لجأت إلى لعب ذلك الدور. لا شيء يخيف، فهو ليس صغيراً، وسيتجاوز هذا الأمر. أزاحت اللحاف، ونهضت بحذر. كان أول ما فعلته هو أنها خلعت ملابسها الملطخة وهي متقلصة الأسارير، تغالب رغبة شديدة بالتقيؤ. إنها، حتى في تلك الأعوام التي كان فيها كل توعك نسوي جديد يقضم قليلاً من أملها في الحمل، – لم تشعر بمثل هذا القرف الغامض الذي تشعر به الآن تجاه جسدها. كانت الدورة الشهرية التي لم تتوقف إلا ببلوغها الخمسين من العمر، تعذبها طوال حياتها، ترهق

أعصابها، إرهاقاً تاماً، ويترافق فيها النزف بآلام فظيعة يجعل أناتوليا في كل مرة تتمنى أن تقتل نفسها كيلا تعاني مثلها في مرة ثانية. خليط دهن الإوزّ ومنقوع الفلفل الأحمر الذي كانت تدهن به أسفل بطنها بانتظام لم يكن يخفف ألمها، وكذلك لم تكن تساعدها الشرابات التي تحضرها ياسامان. كانت أناتوليا تلف نفسها بشال من الصوف وتمضي أربعة أيام مكورة على الكرسي – فيصير الألم محمولاً نوعا ما وهي في وضعية الجلوس. لقد كانت في كل شهر تتحمل هذا العذاب بصبر، ولا تشكو أبداً. إلا أنها كانت في أحيان نادرة تبكي على كتف ياسامان ليس بدافع الألم، بل بدافع الحزن واليأس. إنها الآن، بعد مرور ثمانية أعوام على انتهاء دورتها الشهرية الأخيرة، لا تدرك ما معنى قلقها وهي التي لم يبق لها من الحياة سوى ساعات معدودة في أفضل الحالات.

لم يبق لديها وقت للتفكير، إذ يجب عليها أن ترتّب أمورها. تنفست ببطء وعمق وهي تغالب الغثيان. ولكي يسهل عليها تحمّل الدوار، أغمضت عينيها ومشت مستندة إلى الجدار. وصلت إلى المطبخ، وراحت تبحث عن شيء يؤكل. وجدت على الرف علبة منسية فيها قليل من مربّى الورد، أكلت المربى دون أن تشعر بطعمه. حلاوته منحتها شيئاً من القوة. غسلت وجهها وارتدت ملابس نظيفة.

ضمت شعرها المبلل بمنديل رأس، وجلست تمنح نفسها قسطاً من الراحة.

وضعت على السرير أغطية جديدة، ثم أحضرت ماء من البرميل الذي تجمع فيه ماء المطر، وضعت في الماء بعض قطع الصودا، كي تسهل إزالة البقع، ونقعت فيه البياضات الملطخة. بعد ذلك فتحت القن لتخرج منه الدجاجات، ثم قطفت حفنة من أوراق المليسة. ذهبت إلى القبو لإحضار العسل. كان المنجل الجديد معلقاً في مكان المنجل القديم الذي اختفى – يبدو أن فاسيلي أخذه معه كي يصلحه. أحست في روحها بعذاب الضمير مرة ثانية، لكن أناتوليا كبتته بسرعة، فالوقت ليس وقت معاناة. أخذت قطرميز العسل وعادت إلى البيت لتعدّ شراب الليمون مع الملّيسة والعسل وتأكل مع هذا الخليط قطعة من الخبز – هذا سيكفيها للصمود بعض الوقت.

كانت في الفناء تنشر البياضات المغسولة حين جاءت ياسامان لزيارتها.

– لم أستطع الاستمرار في انتظارك، فجئت إليك، – قالت لها بدلاً من التحية المعتادة.

– انشغلت كثيراً بشؤون المنزل، وقد شارفت الآن على الانتهاء، – أجابت أناتوليا.

ألقت ياسامان عليها نظرة قلقة.

– أنت اليوم شاحبة على غير العادة. هل تشعرين بصداع؟

– لم أنم جيداً، هذا هو سبب شحوبي.

– سأذهب لأحضّر لك مغليّ النعنع، ما رأيك؟

– شكراً، لا داعي لذلك، لقد حضّرته.

انتهت عبارات الاستقبال التقليدية، فوضعت ياسامان يديها على خاصرتيها وأسندت رأسها إلى كتفها – إنها تفعل ذلك دائماً حين تريد أن تحتج.

– لقد مرّ بنا فاسيلي وقال إنكما اتفقتما، أما أنت فتصمتين ولا تقولين شيئاً.

– هكذا إذن!

– لا تمغمغي الكلام، هيّا، حدثيني.

نزعت أناتوليا غطاء رأسها، وفردت جديلتها التي ضفرتها على عجل – وذلك كي يجف شعرها بسرعة، ثم رفعت عن الأرض الطست الذي حملت فيه الغسيل إلى الفناء، لكنها لم تأخذه إلى المستودع، بل أسندته إلى الجدار القريب، لتجمع فيه البياضات المغسولة حين تجف.

– ليس لدي ما أحدثك به يا ياسامان. هو دعاني للزواج، وأنا قبلت. أنت كنت ستظلين تلاحقينني حتى أقبل الزواج به، أليس ما أقوله صحيحاً؟

– صحيح، – قالت ياسامان.

– وها أنا ذي أستسلم.

– أنت فعلت الصواب. فاسيلي رجل جيّد ولائق، وليس هناك ما يدعو لبقاء كل منكما يغرّد منفرداً في عزلته!

– هيا بنا ندخل إلى المنزل، فنحن نقف في الشمس وهي في ذروة حرارتها، – قالت أناتوليا وهي راغبة في نقل الحديث إلى موضوع آخر، لكنها تذكرت على الفور أن الثياب التي أعدتها لدفنها، موضوعة في مكان بارز جداً، وياسامان، خلافاً لما هو حال فاسيلي، ستدرك في لحظة لماذا كُدّست هذه الملابس على الطاولة الصغيرة.

– لا، الأفضل أن نجلس في الشرفة، الجو خانق في الداخل، – استدركت الأمر سريعاً، – أتريدين شراب الليمون؟ لا شيء عندي غيره الآن، فأنا لم أحضّر طعام الغداء بعد.

– الأفضل أن نذهب إلى بيتي. لقد حضّرت العجين، سأصنع فطيرة بالجبن. وعندي شوندر، وقد قطفت بعض البقدونس. ستساعدينني في تحضير سلطة الشوندر بالثوم والبقدونس، فننهي تحضير الغداء في موعد عودة أفانيس، فاسيلي وعد بالمجيء أيضاً – قالت ياسامان وهي تنظر إليها بثبات وتبتسم ابتسامة ذات مغزى، لكنها سرعان ما اتخذت وضعية جادة: – أنا لا يعجبني لون وجهك، أنت تبدين اليوم شديدة الشحوب.

لقد استنفد الغسيل آخر قواها، والشيء الوحيد الذي تريده أناتوليا الآن، هو أن تتمدد في هدوء واطمئنان. لكن حوصرت الآن، فرفضها دعوة ياسامان سيزيد في قلق الأخيرة، ولذا توجهت نحو البوابة دون أن تقول شيئاً، وهي تحاول أن تبقى متماسكة.

كان أول ما فعلته ياسامان هو أنها سقتها شراباً علاجياً وأرغمتها على أكل القليل من العسل بشهده، وأمرتها بحزم أن تبلع الشهد أيضاً. تحسنت حال أناتوليا كثيراً بعد الشراب، وزالت الضجة من أذنيها، وتوقف شعورها بالغثيان، لكن شعورها بالعطش الذي كان يعذبها منذ الصباح ازداد، فطلبت ماء، شربته رشفات صغيرة، خشية أن يشتد نزيفها من جديد.

كان مطبخ الجيران يعبق برائحة العجين المختمر اللذيذة – كانت أناتوليا تحب فيه دائماً رائحة الحموضة المشوبة بالبرودة والرطوبة. وفي أثناء انشغال ياسامان بفطيرة الجبن قامت أناتوليا بتنقية البقدونس وتقشير الشوندر وغسله بالماء البارد، شرعت في الطبخ – قلت بالزبدة كمية كبيرة من البصل (الفريك)، ثم أضافت الحشائش الخضراء المفرومة وغطّت القدر. وحين كاد السائل الذي أفرزته الحشائش يغلي – رفعت القدر عن النار وملّحت الخليط ثم تركته يهدأ جانباً. قشّرت سنّات الثوم، ووضعتها في الجرن الحجري، رشّت عليها ملحاً خشناً ودقّتها حتى صارت ناعمة كالعجين، ثم دلقت فوقها اللبن البارد وخفقته – ووضعت الخليط جانباً أيضاً. هي ستنتظر حتى يتشرب اللبن رائحة

الثوم، عند ذلك ستصب اللبن المثوّم فوق الخضرة المطبوخة.

انتظرت الصديقتان قدوم الرجلين في الشرفة. شجرة الكرمة التي تشبثت أغصانها الدقيقة بالأوتاد الخشبية الثقيلة، امتدت إلى الأعلى نحو السطح. وفي المطبخ بردت الفطيرة التي غطتها قشرة من الجبن المحمر، وفي الحديقة، راح زيز ينشد أغنيته الحزينة وقد اختلط عليه الأمر فلم يعد يميز الليل من النهار، وتدحرجت الشمس ببطء نحو المغيب، تختفي وراء الغيوم النادرة وكأنها تقيسها كما تقاس الثياب، تارة ترفض هذا الثوب من الغيوم، وتارة ترفض ذاك.

كانت أناتوليا تجلس مسندة ظهرها إلى الجدار الحجري البارد. أما ياسامان فراحت تدندن بصوت منخفض أغنية الفلاح.

– رأيت أبي في المنام، – قالت أناتوليا.

قطعت ياسامان غناءها دون أن تلتفت، بل اكتفت بوضع يديها على صدرها.

– هل قال شيئاً؟ – سألتها ياسامان بعد دقيقة صمت.

– لا، بل إنه حتى لم يلتفت نحوي.

أسبلت ياسامان يديها وقد بدا عليها الارتياح بوضوح.

– ما اسم هذا اليوم من أيام الأسبوع؟

– الخميس.

– الخميس يوم مبارك.

كان المارانيون يهتمون اهتماماً خاصاً بالمنامات. يرويها بعضهم لبعض، محاولين تفسير المعاني الغامضة التي تعبر عنها. وكانوا يحددون حتماً اليوم الذي شاهدوا فيه الحلم، فلا داعي للقلق، إذا كان الحلم في يوم الأحد – الحلم في يوم الأحد فارغ، لا يعد بشيء، ولا يعبّر عن شيء. أما إذا كان في ليل الثلاثاء/ الأربعاء، فمن الضروري فهم كل ما رآه النائم في حلمه، ففي يوم الأربعاء بالتحديد، ما بين صيحتي الديك الأولى والثانية يرى الناس المنامات المهمة.

– ليتني أعرف كيف حاله هناك، قالت أناتوليا وهي تتنهد.

– إنه بخير ما دمت قد رأيته في المنام.

– أتظنين ذلك؟

– أنا أقول ما أعرف.

– وإذن، أنت تشفقين عليّ.

– هل أشفق عليك أنت فقط؟ أنا أشفق على نفسي أيضاً.

إنه مساء من مساءات أيار، السماء واطئة ولزجة، يغمرها سواد متموج، لو لمسته بإصبعك لتفرق موجات جزعة، معريّاً جوهره المخملي، اللين الحيّ.

– لن نعرف كيف حالهم هناك من دوننا، إلا بعد أن نموت، – همست أناتوليا وهي تنظر إلى مكان ما في السماء.

أحنت ياسامان رأسها موافقة بحذر. شدت على ذراع الأريكة الغطاء المطوي أربع طيات، ومرّت بخنصرها على طرفه. إنه يحتاج إلى خياطة، وإلا فهو لن يصمد إلى الغسلة القادمة.

الفصل الرابع

الذاكرة البشرية انتقائية. أنت تزعل حتى الموت، ثم تنسى فوراً كيف ضربتك أمك بقسوة بعصا نفض الصوف، لأخذك دولاباً من مستودع الجيران. العربة ترقد معطلة منذ زمن، غير أن الدولاب ما زال يقف كبيراً، مستديراً، متيناً. دحرجتَه نحو الأسفل في درب القرية غير الممهد، وطرتَ وراءه متحمساً، خافق القلب، تقفز فوق برك ماء المطر التي عكّرها تراب الأرض الأصفر. سامحتَ أمك ونسيتَ ما فعلته، أما الجار أونان – الرجل الضخم، المشعث الحاجبين، ذو الفكين الوحشيين – فلن تنساه، ولن تسامحه. إنه، بدلاً من أن يكتفي بصفعة على قفاك، ويأخذ الدولاب كما يليق بالرجال أن يتصرفوا، أمسك بك واقتادك إلى بيتك، وسلّمك لأمك، فماذا فعلت هي؟ ها قد مرّ على استدانتها منه ثلاث غرفاكانات من السمن، دون أن تتمكن من ردّها، لأن أونان يرفض أن يستردها بالتقسيط، وهي لا تستطيع أن تعطيه نصف جرّة من السمن دفعة واحدة، وتحرم منه أبناءها الجياع، وهذا ما جعلها تنفّث عن غضبها بضربك على ظهرك ضرباً أرغمك على النوم ثلاثة أيام منبطحاً على بطنك.

أمي من الطرف الآخر من الوادي، وهي لا تفهم اللهجة المحلية جيداً. وقد نجت بمعجزة، هي وأربعة أطفال من مجزرة كبيرة، هربت إلى ماران وأقامت في مزرعة أرشاك بيك. أرشاك بيك، رحمه الله، كان إنساناً كريماً وصاحب ضمير، أسكن العائلة المنكوبة عنده، وساعدها بالمواد الضرورية لبناء المسكن، ووعدها بالمال، لكنه لم يتمكن من تقديمه – هرب من البلاشفة إلى الجنوب، ومن هناك، كما تقول الشائعات، هرب عن طريق البحر إلى الغرب. وقد نُهبت المزرعة بعد خلع القيصر، ولم يتبق للأم وأولادها، إلا الانتقال إلى بيت غير مكتمل البناء على المنحدر الغربي من مانيج – كار. لم يكن لدينا متاع أو طعام. واضطررنا للذهاب صاغرين إلى الجار أونان. استبدلنا في الساحة بنصف السمن الذي استدناه منه، غرفاكاناً من القمح، وسطلاً من البطاطا، وعشنا بهما وما تبقى من السمن حتى الربيع. في آذار نبت العشب، وزرعنا الخضار في الحاكورة، وبدأت الحياة تأخذ مجراها رويداً، رويداً.

كانت أمي تجيب أونان، كلما ذكّرها بضرورة ردّ الدين، قائلة بلهجتها المحلية – "كودام". في البداية كان أونان يسخر من لهجتها لكنه فيما بعد، صار يلقبها ب."كودام"، حتى بعد أن أعادت إليه السمن ظل يطلق عليها ذلك اللقب بإصرار. (هذه هي يا ولدي حكاية كنيتنا كودامانتس. إن أصل هذه الكنية هو كلمة "كودام" أي سأردّه).

نزع كودامانتس فاسيلي المنجل عن عصاه، وراح بضربات خفيفة من المطرقة يقوّم حده، ثم أخذ يسنه بواسطة دولاب المسن. كان يعمل بحركات شحيحة، دقيقة، صقلتها السنون. كان الجو في ورشة الحدادة معتماً وبارداً، وقد غطى الغبار الكثيف الأدوات التي لم تستخدم منذ زمن – كان فاسيلي يأخذ أحياناً، شيئاً عن المنصة، ثم يطلق الشتائم متذمراً، نافضاً عن يديه الغبار الذي التصق بهما.

في الماضي، حين كان الزبائن كثيرين إلى حد لا يتيح له فرصة تجليس ظهره، وكانت حرارة الفرن تجعل الهواء لاسعاً إلى حد لا يطاق، ليس عند الاستنشاق فقط، بل عند الزفير أيضاً، كانت بقايا التعامل مع المعدن، هي النفايات الوحيدة في الورشة. أما الآن فالورشة منسية، عديمة الفائدة، مغلفة بكتل من الغبار، وقد تناثرت فيها برادة الحديد، وتشققت جدرانها – إنها تشيخ، وتموت، ولا يحتاجها أحد.

– ليس هناك ما هو أشد تدميراً من العطالة، – قول كان الأب يحب ترديده. – العطالة والبطالة يُفقدان الحياة معناها.

فاسيلي يفهم الآن صواب كلماته. الحياة تفقد معناها فعلاً في اللحظة التي يصبح الإنسان فيها عديم الفائدة بالنسبة إلى المحيطين به. ولكن كيف يستطيع الإنسان أن ينفعهم؟ إنه لا يستطيع ذلك إلا بعمله.

مضى نصف قرن على ذلك اليوم الذي جاء فيه الأب بفاسيلي الطفل، وهو لم يتجاوز بعد الثماني سنوات، إلى ورشة الحدادة، لكي يعلمه رويداً، رويداً، مهنة الحدادة. وسرعان ما تبين له أن الفتى مساعد فهيم ومحب للعمل، يلتقط المهارات بسرعة، فكلفه، بعد وقت قصير بجزء من العمل. مات الأب وفاسيلي لم يكد يتم الخامسة عشرة، إن ذلك اليوم راسخ في ذاكرته مدى الحياة، كان الوقت صباحاً، باكراً جداً، لكن القرية لم تكن نائمة – البوابات تصرّ وهي تنفتح وتنغلق، والكلاب تتبادل النباح، والديكة تصيح، والقطيع يخور بأصوات مديدة ويمشي مثيراً الغبار الأحمر في الطريق – البقرات الشهباوات ذوات الخواصر المستديرة في المقدمة تليها العنزات والنعاج، وفي ختام الموكب يمشي الراعي وولداه الصغيران، أحدهما يحمل زوّادة الطعام، والثاني يستعين بغصن شجرة في قيادة القطيع، ويصيح به بصوت رنان: «تسو – تسو»، ويلملمه بأسلوب لا ينم على خبرة حين ينتشر في الدرب على مسافة أطول مما يجب. فاسيلي وأبوه تنحيا جانباً، وانتظرا فوق تلة صغيرة، حتى يمرّ سيل الحيوانات الذي تفوح منه الرائحة الرطبة الحادة للحظائر وروث الماشية، مرّر الأب يده على حرف السور الرطب، ينفض عنه الندى، وأراد أن يقول شيئاً، لكنه سقط فجأة على كتفه، وانزلق إلى أسفل وهو يلتقط الهواء بفمه.

كانت الأم في الشهر الثاني من الحمل، انهارت فوراً بعد الدفن، رقدت مريضة فترة طويلة، ولم تشف إلاّ بعد نصف عام. لم يسمح فاسيلي لأحد أن يعتني بها، راح يرعاها بنفسه – يطعمها بإخلاص ووداعة، بالملعقة، ويسقيها الأشربة العلاجية، ويساعدها بنفسه في الاستحمام أيضاً – يحضر الماء الساخن في الطست، يضيف إليه مسحوق الصابون، يخلع عنها ملابسها ماعدا قميص نومها، يغسل شعرها وساقيها، يفرك ظهرها النحيل – فتظهر من تحت القماش المبلل فقرات ظهرها وأضلاعها المثيرة للشفقة، ثم يتركها وحدها، ويقف عند الباب، يصغي مرهفاً سمعه لتأوهها وهي تخلع القميص، وتغسل بقية جسدها، ثم ترتدي ملابس نظيفة. بعد ذلك يحملها على ذراعيه إلى الديوانة، يلفها بلحاف، ويسقيها الشاي، ويجلس إلى جانبها حتى تغفو. وكان، حين يسمح الطقس، يحملها على ذراعيه إلى الحديقة – كي تستنشق هواء نقياً، كانت الأم تتعلق بذراعيه كعصفورة شوك لا يبرز منها سوى بطنها الكبير المكوّر. يجلسها على المقعد تحت شجرة إجاص، فتسند ظهرها إلى جذع الشجرة الخشن وتتأمله وهو، في هذه الأثناء يشتغل في الأرض، يقلّب التربة، يسقيها، وينظفها من الأعشاب الضارة.

كان يأتي إلى ورشة الحدادة بعد الظهر، تاركاً أمه برعاية العمة ساتينيك التي كانت حينذاك متزوجة، وقد أنجبت طفلها الثاني.

حافظت الأم على جنينها بمعجزة، وولدته ضعيفاً، عليل البنية، لكنه كان حياً، إنه مولودها الثامن بعد فاسيلي، والأول الذي قدّر له أن يحيا. السبعة الآخرون، ماتوا قبل الولادة، وبكى الأب والأم بمرارة كل واحد منهم، لكنهما ظلاّ يأملان في إنجاب ولد آخر على الأقل، فالأسر في ماران كانت، كما في كل المجتمعات البطريركية، كثيرة العدد، ماعدا أسرتهما التي لم يقدّر لها أن تذوق تلك السعادة.

ولادة الطفل أعادت الأم إلى الحياة، استيقظ البيت أخيراً وضاعت فيه الروائح التي عرفها فاسيلي في طفولته، واشتاق إليها طول الأشهر الماضية، – رائحة لحم الخنزير المدخن، ومربى

الجوز، وجبنة الغنم المطعّمة بأعشاب الجبل. لم يعد البيت الآن يستقبله بصمت القبور، بل بطقطقة خضّاضة الزبدة، والهسهسة الحجرية للمطحنة اليدوية وحرارة التنور حيث تخبز الأم الأرغفة المرقوقة، وتحمّر لحم العجل المتبّل بالملح والبهارات.

الطفل الذي سمّوه تكريماً لأبيه آكوب، هو كودامانتس آكوب الثاني في آل آروسياك – جدة فاسيلي التي لقبها جارها الوقح باللقب المزعج «كودام»، – كبر فهيماً، لكنه كان مدهشاً بهدوئه واستغراقه في التفكير. وقد أحبه فاسيلي حباً يوجع الصدر، لكنه لم يدلّه، ولم يسمح لأمه أن تفعل ذلك، وفرح كثيراً بالمدرسة التي شرعوا ببنائها في ماران – أخوه يحب أن يتعلم حتماً. الورشة تحقق دخلاً غير كبير، لكنه مستقر، وكان فاسيلي يعطي أمه كل ما يكسبه من نقد تقريباً، لكنه كان يوفر جزءاً يسيراً للمستقبل – إنه يخطط لإرسال آكوب إلى الوادي – ليحصل على تعليم جيد. في الربيع بلغ التاسعة عشرة وحان وقت زواجه. أمه ألمحت له عدة مرات أن يهتم بياكوليتشانتس ماغتاخيني، إنها فتاة من ذهب، متواضعة، وشغّيلة، ويا حبذا لو طلب يدها. لكن فاسيلي كان متردداً لأنه يشك في أن يوافق ياكوليتشانتس بيتروس على تزويجها لحداد مبتدئ. جمعت الأم ما لديها من حليّ في صرة – قرطان، وخاتمان، وسوار – وذهبت إلى بيت بيتروس، دون أن تطلب إذناً من ابنها. استقبلوها بحذر، لكنهم أحسنوا استقبالها، أعدّوا مائدة طعام، وقدّموا حلوى فاخرة – أوراق ورد بالسكر، ومربى بالفستق، وكعكاً منفوشاً محشواً بالبندق. تهيبت الأم، لكنها أرغمت نفسها على إنهاء العمل الذي جاءت من أجله، أزاحت طبق الحلوى جانباً، وفردت الصرة ونثرت ما فيها على الطاولة:

– هذا كل ما أستطيع تقديمه لابنتكم ماغتاخيني.

– إنها لم تحد ببصرها عني لحظة، ولم تقل كلمة واحدة زائدة – هذا ما رواه بيتروس لفاسيلي بعد أعوام. – جلست منتصبة الجذع، واضعة يديها على ركبتيها، وخاطبتني خطاب الند للند. لذلك وافقت على تزويجك من ابنتي.

تم الاتفاق على إقامة العرس في الخريف، أي بعد جني المحصول، كما جرت العادة، لكن العروسين اضطرا إلى انتظاره خمس سنوات كاملة – في البداية بسبب الحداد على أخي ماغتاخيني الذي قتلته الصاعقة، ثم بسبب المجاعة التي حامت في سماء مانيج – كار، ثم حلت بحلول أول صيف جاف، قدراً محتوماً، وبدا للناس أنها باقية إلى الأبد. لكن المارانيين صاروا بعد أعوام يتذكرون بمرارة أن الجوع بدا وكأنه كان يلعب معهم لعبة «القط والفأر»، يرسل إليهم النذر والإشارات، كي يحذرهم، أو كي يسخر منهم... غير أن الناس الغارقين بمشاغلهم اليومية، لم يستطيعوا، للأسف، أن يعرفوا المعنى الخفي لتلك الإشارات. لقد بدأ كل شيء في تلك الليلة حين استيقظت القرية عن بكرة أبيها على ضجة غير عادية، والتصق الناس بزجاج النوافذ يراقبون بهلع كيف تنصبّ غدران صغيرة من الجرذان والفئران في سيل هائج يندفع نحو الساحة. في المقدمة يندفع الذكور صامتين، رهيبين، تغطي أجسادهم آثار الجروح التي أصيبوا بها في المعارك الكثيرة، يتلو هؤلاء جرذان صغيرة تتدافع على غير هدى، الأصغر حجماً، يتشبث بذيل من يتقدمه، ويحاول الصعود على ظهر من هو أكبر منه، لكنه ما يلبث أن يقع أرضاً وهو يصرخ متألماً من عضة موجعة، فيدوسه الرتل المندفع خلفه. وتختتم الإناث هذه المسيرة ذاهلات ذهولاً غريباً عن موت صغارهن، يسرن في صفوف غير منتظمة، ويتحاشين بلا مبالاة الأجساد الصغيرة التي تنتفض في حضرة الموت. القمر معلّق في السماء كرحى طاحونة كبير، ولسبب ما، صمتت الكلاب في الدور – الكلاب ذات الأكف الضخمة، التي كانت تهرّ هريراً مخيفاً لدى سماعها أي صوت مهما كان خافتاً، تقف صامتة الآن. أما الناس الذين أصابهم الرعب بالشلل، فخافوا الخروج إلى الشرفات، وظلوا داخل البيوت يراقبون في صمت هذا الحدث الرهيب الغامض من النوافذ. حين وصل قطيع الفئران إلى الساحة، تحوّل إلى كتلة فوّارة تندفع موجة

عريضة نحو طرف القرية فتخمد هناك، وتذوب في ضوء القمر الشاحب، تاركة خلفها رائحة العفن الرطب ودرب القرية المتعرج المفروش بجثث صغيرة متيبسة.

استقبلت مارات الصباح من دون الانشغال المعتاد بالأقبية وغرف المؤونة، لكن ربات البيوت رحن، تحسباً لعودة الفئران، يواصلن طمر أسفل براميل خزن الحبوب بالتراب، ويملأن الجحور بالزجاج المهشم وسم الفئران، ويبعدن الرفوف عن الجدران كي لا تتمكن القوارض من الوصول إليها. وتحدث الناس في الوادي عن أن الفئران ذهبت إلى الشرق، حيث تتدافع أمواج المياه القاتمة في البحر – المحيط الذي لا ضفاف له، وعن أن الناس الذين يعيشون على ساحل المحيط، رأوا كيف كانت القوارض تلقي بنفسها في الأمواج المتوهجّة في الغروب، محركة قوائمها المضرجة بالدم، محاولة العوم حتى آخر نفس، وكيف كانت تعيا في نهاية المطاف، وتتقطع أنفاسها وهي تصرخ شاكية، وتغرق أسراباً كاملة في القاع الميت الذي يغطيه الماء العكر بغطاء خانق.

أغلب الظن أن الناس كانوا سيناقشون طويلاً هذا الحدث غير العادي، لو لم يحدث بعده ما حدث عشية عيد الشكر، في منتصف نهار من نهارات نيسان المشمسة. السماء التي كانت منذ الصباح رائقة، لا غيم فيها، واعدة بطقس مشمس، دافئ، تجللت فجأة بستارة سوداء وكثيفة من الأفق إلى الأفق، وأرعدت إرعاداً مخيفاً. ولم تكد النساء اللواتي هرعن متعثرات بشالاتهن ينزعن الملابس التي جفت عن حبل الغسيل. ويجمعن الطيور في الأقنان، حتى انهمرت من الغيوم المرعدة أسراب ثقيلة من الذباب الحاد الأجنحة على القرية، محاولة تدمير كل شيء يقع في طريقها، – الحدائق، والحقول، والأسوار، والبيوت، والحظائر، – وتحويله إلى كتلة من الركام. كان الذباب كثيراً إلى حد جعل الناس يعتقدون أنهم أغضبوا الله بإثم ارتكبوه، فأرسل إليهم هذا المطر من الحشرات عقاباً لهم. كان الذباب يحوم في الهواء أسراباً مزعجة، يندس في أفواه الناس، يغطي عيونهم، يلتهم براعم النبات الفتية، يفرغ أواني أطعام الطيور، بل حاول أيضاً أن يسلب المواشي طعامها.

كان الذباب يتسلل إلى البيوت عبر المداخن، ويزحف في الزوايا والشقوق تاركاً على الجدران والموبيليا بقعاً سوداء لا تزول بالغسل. إنها حشرات ضخمة ومخيفة – الواحدة منها بطول الخنصر، ولها أجنحة شفافة خضراء تشوبها صفرة، وظهرها مقلّم بخمسة خطوط طولية، وبطنها الشاحب المتهدل مقلّم خطوط عرضية. وهي تتكاثر بسرعة فظيعة وكأنها تنوي أن تملأ كل شيء وكل مكان. الذكور منها تصدر أزيزاً حاداً يصم الآذان بأجنحتها لإغواء الإناث. وهي تتلاقح في الهواء، تهوي كالحجارة نحو الأسفل، تدور حول نفسها بسرعة مجنونة، الإناث تئن في أثناء ذلك، وتتلوى لكنها لا تستطيع الإفلات، لأن الذكور تمنعها من الحركة وتفرز عليها من غددها لعاباً ساماً. بعد بضع ساعات تفقس الحشرات الصغيرة شرهة، لا تشبع، وبطرفة عين تنمو فتصبح ديداناً ضخمة بحجم الكف، مقرفة، لزجة لا تلتهم النبات فحسب، بل الكائنات الحية الصغيرة أيضاً – النمل، والزيزان، والنحل. اتخذ المارانيون الاحتياطات الدفاعية الممكنة – أغلقوا المداخن، وحبسوا الطيور الداجنة والكلاب في الأقبية، وامتنعوا عن إرسال الماشية إلى المرعى، وأغلقوا النوافذ ووضعوا الستائر على مداخل البيوت. كما أنهم اضطروا إلى ارتداء ملابس خروج سميكة تغطي الجسد كله، ولفّوا على أعناقهم شالات، وغطوا رؤوسهم بمناديل لا تترك إلا شقاً صغيراً لعيونهم. واستخدموا من أجل تدمير الحشرات التي تدخل المساكن عصيّ تنفيض السجاد، لكنهم سرعان ما صاروا يمسكون بها ويرمونها خارجاً، لأن الذباب يخلف حين يموت بركاً صغيرة من سمّ قوي يدمّر جلد يدي من يمسحها، تتقيّح القروح التي يسببها ذلك السم ولا تشفى إلا بعد معاناة كبيرة. لم تكن المبيدات العادية تؤثر في الذباب، ولم يكن يتأثر حتى بالخليط المكون من خلاصة الخل وسم الفئران. شلابكانتس ياسامان حضّرت قدراً من مغليّ نباتات الخروع والشمرة والحشائش المخدرة، ووضعت القدر في الفناء، لكنه لم يؤثر مطلقاً

في ذلك الذباب. والخيالة الذين أرسلوا إلى الوادي طلباً للمساعدة عادوا بوفاض خال – المبيدات الكيماوية التي كانت تستخدم قبلاً لقتل الحشرات لم تجد نفعاً بل إن استخدامها المبالغ فيه والمتهور أدى إلى إيذاء عدد كبير من الناس. وتبين أن الحال في الوادي كانت أكثر تعقيداً من حال القرية القابعة في ذروة مانيج – كار، لأن القسم الأكبر من الحشرات فضل السفوح الهادئة المنخفضة الخصبة على القمة التي تعصف فيها الرياح. المارانيون العائدون من الوادي تحدثوا عن الفوضى والذعر اللذين دبّا في الوادي في اليوم الثالث لهجوم الذباب. بعض الناس أطلق إشاعات عن قرب فقدان الطعام، لأن مخزونه بدأ ينفد، ولا مجال للحصول عليه من أي مصدر آخر بسبب توقف الإنتاج، فأدت الفوضى فعلتها السوداء – في البدء خلت المخازن من الأطعمة، ثم نُهبت المستودعات. وحين تدخلت الحكومة وفرضت منع التجوّل، لم يكن قد بقي ما يمكن إنقاذه، فالناس الذين خبؤوا في بيوتهم ما حصلوا عليه من أطعمة، صاروا الآن مستعدين لافتدائها بأرواحهم. لم يعرف المارانيون ماذا حدث في الوادي بعد ذلك، ولم يفكروا به، إذ ما ضرورة أن تتخيل ما حدث وأنت تعرف طبائع الناس؟

لم يختف الذباب إلا في أواخر أيار. انطلق في أسراب ثقيلة صاخبة، دارت فوق الوادي ومانيج – كار، ثم طارت نحو الشمال، تاركة خلفها مراعي التهمتها حتى آخر عشبة فيها، وغابات عارية، وماء مسموماً. وحاولت الطبيعة أن تقوم بقسطها – تفتحت براعم أوراق خضراء جديدة، واخضرّت الحقول الشاسعة، ومن حسن الحظ أن المطر ظل يتساقط أسبوعاً بعد رحيل الذباب، غاسلاً كل القذارات التي خلفتها أسرابه: البراز السام، وقواقع البيوض، وبقايا جثث الطيور التيي التهمها الذباب حتى العظم، وأشلاء شتى الحشرات الميتة. وبعد المطر حلّ الجفاف. شمس ضخمة حامية إلى أقصى حد، قاسية، بيضاء تعشي لها الأبصار، تعلقت كرة نارية فوق الوادي، جفت الرطوبة كلها، وأحرقت الخضرة المستيقظة حديثاً، عن آخرها، وغطت العالم بسقف من اللهب – فلا يستطيع المرء أن ينهض واقفاً، أو يتنفس ملء رئتيه. وتشققت الأرض الجافة وغطى وجهها الغبار، وأصدرت هسيساً كمكواة من الحديد الصب محمّاة على موقد إلى حدّ الاحمرار – فيشش، بيشش. ضحلت الأنهار، ثم جفّت تماماً، وصمتت الينابيع، وفقد الظل برودته المعهودة، ويبست الأشجار وتقصفت كأنها صواري سفن حطمت العاصفة رؤوسها.

كان الجفاف آخر نذير أرسله الجوع قبل حلوله، فبعد الجفاف حلّ هو مستقلاً عربة الرياح التي ألهبتها الشمس – حلّ قبيحاً، منحطاً، لا يعرف التعاطف أو الرحمة، أفظع من أفظع شيء في هذا العالم، – أفظع من الموت. كان فاسيلي، في كل مرة يتذكر فيها تلك الفترة المريعة، يختنق بسعال صعب يؤلم رئتيه، يشرب الماء كأساً بعد آخر، فلا يرتوي عطشه، بل يستمر في سعاله المؤلم الجارح، وهو يتلوى وتنفر دموع العجز من عينيه، يتذكر كيف ذبح آخر كبش – الجفاف أحرق بقايا الأعشاب القليلة، ولم يبق أي علف للحيوانات، راحت الماشية تسقط ميتة بالجملة، وكانوا يدفنون الميتة منها، أما تلك التي في طور الاحتضار، فيسارعون إلى ذبحها، ثم يقطعون لحمها ويحتفظون به في سائل ملحي كثيف، ثم يجففونه في الهواء. لقد كان الأب مستعداً في حينه لأن يدفع ثروة كاملة ثمناً لهذا الكبش: كبش ضخم الجثة، أصيل، من نوع كثير اللحم والصوف، بلغ وزنه في الشتاء نحو خمسمئة غرفاكان، لكنه هزل بعد أربعة أشهر من الجفاف، حتى برزت عظامه، وعمي تقريباً، وتساقطت أسنانه. مدّد فاسيلي الحيوان على جنبه، وضغطه بركبته. في الماضي، كان يضطر لتثبيته، إلى الاستعانة بعدد من الرجال الأقوياء، أما الآن فجرى ذلك بشكل تلقائي، لم يقاوم الكبش، أطلق صرخة شاكية أقرب إلى خوار البقر، وقد أحس بقرب نهايته. أشاح فاسيلي بنظره، وذبح العنق المستسلم بسكين حادة، ثم انتظر قليلاً ريثما يهدأ ارتعاش الكبش المذبوح، ثم رفع الذبيحة بيد واحدة وعلقها بكلاّب حديدي كي ينزف ما تبقى فيها من دم.

كان آكوب ابن الخمس سنوات يقف غير بعيد حابساً أنفاسه، يراقب في صمت كيف يسلخ أخوه الأكبر جلد الكبش بحركات سريعة، وقصيرة، ودقيقة، وكيف وجدوا في معدة الحيوان التعيس، قطعاً من النايلون، وملقط شعر، وصندلاً جلدياً لآكوب، فقد قبل يوم. في البداية فركت الأم الصندل بمسحوق الفحم (الاقتصاد الشديد في استخدام الماء كان اضطرارياً)، بعد ذلك مسحته بخرقة مبللة بالفودكا، لكن الطفل رفض انتعاله رفضاً قاطعاً.

كانت سنوات المجاعة تلوح في ذاكرة فاسيلي كهوّة سوداء – لم يكن يسمح لنفسه بالنظر إلى الوراء خوفاً من أن يتذكر ما لا يمكن نسيانه فيما بعد. لكن لم ينجح في الاحتماء من الذكريات التي كانت تعوم رغماً عنه من دوامة الماضي فتظل بعد ذلك تعذب طويلاً وتجرح روحه بتفاصيلها. ففاسيلي لا يزال يشعر في فمه بالطعم المر للحساء الذي كانت أمه تجتهد في تحضيره من جذور الأشجار، وأكواز أشجار العفص، ولحاء الشجر. لم يكن الحصول على الخضار والحشائش ممكناً بأي ثمن، أما ما بقي من لحم الماشية المذبوحة المقدّد، فعاشوا به بضعة أشهر، غير أنه انتهى. نفد تماماً كل ما يمكن أن يأكلوه. ولم يتراجع الجفاف إلا في أواخر الخريف حيث أعطت أمطار تشرين الثاني المتأخرة الفرصة للطبيعة كي تخضرّ بخجل فترة قصيرة من الزمن قبل أن تهجم الثلوج. بهذه الأعشاب القليلة، وجذور النباتات، وأكواز العفص، ولحاء الشجر استمرت القرية تحيا حتى آذار وقد فقدت نصف سكانها قبل نهاية فصل الشتاء. لقد تحول شهر شباط إلى شهر دفن الموتى، ففي كل صباح كان فاسيلي وآخرون من الرجال يطوفون على البيوت، يجمعون الموتى، ثم يدفنونهم في قبور جماعية – لم يكونوا يملكون القوة اللازمة لحفر قبور فردية، كان الشيوخ والأطفال أوائل الموتى، ثم النساء، أما الرجال فصمدوا أكثر من الجميع.

لقد كانت تلك الفترة لعنة قاهرة، خالية من الإنسانية – كان المرء يودّع العزيزين على قلبه، الذين يحبهم أكثر من حياته، واحداً تلو الآخر. الرجل الفتي الوحيد الذي مات في العام الأول للمجاعة، كان والد أناتوليا؛ سيفويانتس كابيتون، بعد أن دفن بنتيه الكبريين، أخذ أناتوليا إلى الوادي، وكلّف بتربيتها بعض أقربائها البعيدين، لكنه بعد موت الجدة العجوز مانية، وفي لحظة من اليأس المطبق، كف عن تناول الشراب والطعام البائس. بعد ذلك ظل مدة يومين يساعد قدر استطاعته في جمع جثامين موتى القرية، غير أنه ضعف كثيراً في اليوم الثالث فرقد رقدة لم يقم بعدها. والوحيد الذي كان يعرف أن كابيتون قرر قتل نفسه هو أفانيس، الذي حاول أكثر من مرة ثني صديقه عن ارتكاب الإثم بحق نفسه بالانتحار، وذكّره بأناتولي، لكن كابيتون كان يجيب على كل نصائحه بالصمت البارد. إنه لم يتحدث سوى مرة واحدة قبيل موته، فطلب أن يدفن إلى جانب زوجته وابنتيه، وعدم دفنه في مقبرة جماعية. نادى أفانيس بعضهم للمساعدة، فنقلوا فاسيلي، وفتحوا قبر فوسكي، وهم يغالبون ضعفاً شديداً، ثم أنزلوا فوق جثتها نصف المفتتة جثمان كابيتون ملفوفاً بغطاء – كان عدد الموتى كبيراً إلى حد أن أحداً لم يكن يفكّر بالتوابيت، فالمهم هو أن تسلّم جثث الموتى إلى الأرض في أسرع وقت. بعد ذلك وقفوا يدخنون في صمت، غير عابئين بالبرد والثلج الذي كان يلسع أعناقهم متسللاً عبر ياقات ستراتهم. كان فاسيلي يخمن سبب موت كابيتون تخميناً غامضاً، دون أن يحاول الاستفسار عن ذلك. لكنه كان في كل عام يأتي في شباط بصحبة أفانيس لزيارة قبر صديقه، فيقف الاثنان صامتين، مستندين إلى السور البارد. مرة واحدة فقط، وبعد زمن طويل، سمح أفانيس لنفسه بقليل من الصراحة وقال:

– من نحن حتى ندين تصرفات الآخرين، – ثم تنهد بحسرة وهو يفك ربطة أعواد البخور.

– هناك قرارات وتصرفات لا تخضع للمناقشة – ردّ فاسيلي بإيجاز.

لم يعلّق أفانيس بشيء، لكنه شدّ على يده بقوة وهو يودعه، وكفّا بعد ذلك اليوم عن زيارة قبر كابيتون. من الواضح أن كلمات فاسيلي أقنعت أفانيس، إن لم يكن بعدالة الخطوة التي أقدم عليها كابيتون، فبحتميتها على الأقل، وهذا ما جعله يترك صديقه يرقد بسلام.

لم يكن فاسيلي يتذكر أول شباط يمرّ في زمن الجوع بكثرة الجنازات فحسب، بل كان يتذكر فيه أيضاً السلوك الغامض لأخيه الأصغر آكوب، الذي هزل جسده حتى برزت عظامه، لكنه، مع ذلك، كان نشيطاً وصحيحاً إلى درجة مدهشة بفضل قطرميز العسل الذي أهدته له أسرة ماغتاخيني، – كانت أمه تذيب ملعقة من العسل في إبريق من الماء الساخن، ثم تضيف إلى المحلول أكواز العفص، وتسقي ابنها هذا الشراب ثلاث مرات في اليوم، فيظل، على الرغم من نحوله، طفلاً مرحاً، مقبلاً على الحياة. لكنه كان، رغم إبهاجه الأهل بحالته الجسدية، يسبب لهم القلق على حالته النفسية. إنه، وهو الصاخب الكثير الحركة طوال النهار، يكتئب في المساء، ويرفض النوم في سريره، ويقضي نصف الليل قرب النافذة التي غطت زجاجها أصابع الجليد.

كان يجلس ملتحفاً بغطاء من الصوف، ويحملق في الظلمة متوتراً، ويجيب، إذا ما سؤل عمّا يراه، قائلاً: الأعمدة الزرقاء. كانت الأم تحملق أيضاً في الظلمة فلا ترى شيئاً، فتخاف، وتبكي، غير أن آكوب كان يتظاهر بأنه لا يلحظ دموعها، ولا يستجيب لطلبها منه أن يرقد في السرير وينام. وحين حاول فاسيلي ذات يوم أن يحمله على ذراعيه إلى الفراش، بكى الطفل بدموع غزيرة أرغمت فاسيلي على أن يعيده إلى النافذة. وبات الأهل مضطرين بعد ذلك إلى قضاء الليالي سهارى، فالأم كانت متأكدة من أن روحاً شريرة سرقت روح ابنها، لذا راحت تتلو الصلوات وتذرف الدموع سراً، أما فاسيلي، فكان يجتذب اهتمام آكوب بالأحاديث، وكان آكوب يحادثه برغبة، لكن من دون أن يشيح ببصره عن النافذة، لكنه كان يقطع الكلام أحياناً ويصمت، يحرك شفتيه بكلام غير مسموع، ويثني أصابعه، يمط عنقه، ويضغط جبينه على زجاج النافذة، محركاً عينيه إلى أعلى تارة، وإلى الأسفل تارة أخرى. وبعد ساعة أو ساعتين يبدو عليه أنه تأكد من أنه لن يرى أشياء إضافية في الظلمة، فينهض متنهداً، ويعلن: اليوم كان عدد الأعمدة خمسة وأربعة (هو لم يكن يعرف العدّ إلى أكثر من خمسة)، ثم يذهب إلى النوم. ذات يوم، ومن دون سبب واضح، قام فاسيلي بالمقارنة بين عدد الأموات من أبناء القرية، وعدد «الأعمدة الزرقاء» التي ذكرها آكوب، فاكتشف مرعوباً التطابق بين العددين، لم يقل لأمه شيئاً كي لا يزيد في خوفها، لكنه قضى الليلة التالية وهو يراقب أخاه بانتباه. لم يبد آكوب أي خوف، لكنه كان يجفل أحياناً وكأنه فوجئ بأمر ما، ثم يجمد، تتسارع أنفاسه قصيرة، قصيرة، وهو جالس دون حراك، ينظر إلى مكان ما في الأعلى.

– قل لي، ماذا ترى؟ – سأله فاسيلي.

– أوهوو؛ – قال آكوب مرتبكاً، في البداية يشتعل في السماء ضوء كأنه نجمة. بعد ذلك يتدلى من هناك عمود، كأنه عمود ماء، لكنه أزرق، يشبه إلى حد ما لون زهرة البنفسج.

– هل تعني أنه كالماء؟ يسيل نحو الأسفل كنهر؟

– لا، إنه شفاف كالماء، لذا ترى ما في داخله.

– وماذا في داخله؟

في داخله شخصان. لا، في البداية شخص واحد، يهبط من أعلى. له جناحان، لكنه لا يطير بهما. إنهما معلقان على ظهره. هذا الشخص ذو الجناحين، يهبط إلى أسفل، ثم يصعد وهو يجرّ خلفه بنتاً أو صبياً، أو امرأة عجوزاً، أو شيخاً مسناً.

– إلى أين يأخذ هؤلاء؟

– إلى الأعلى.

– وماذا في الأعلى؟

– ضوء أزرق.

التفت فاسيلي إلى أمه. كانت تجلس ملقية يديها على ركبتيها، والدموع الحرّى تسيل على وجهها الشاحب المتعب. تألم فاسيلي ألماً شديداً لمنظرها الذي ينم على الضياع والعجز.

– إنه يرى ملائكة الموت، – قال لها مبتسماً وسارع يخفي فمه بيده – شفتاه فضحتاه وظلتا ترتعشان موحيتين بالارتباك والخوف.

في تلك الليلة أحصى آكوب «خمسة، وخمسة، وثلاثة أعمدة زرقاء». وفي النهار شيعت القرية ثلاثة عشر ميتاً. لفّ فاسيلي في الليلة التالية أخاه بحرام من الصوف وحمله على ذراعيه إلى الحارة، من حسن حظه أن المكان الذي نوى الذهاب إليه لم يكن بعيداً – بعد خمسة بيوت برزت رؤوس مدببة للحطام الذي سببه الزلزال في منطقة مانيج – كار، وقف على حافة الجرف، واستدار متيحاً لآكوب رؤية الظلمة الدامسة التي ابتلعت الوادي.

– ماذا ترى هناك؟

– هناك ضوء كضوء النهار، – أجاب الطفل دون أن يلتفت.

– هل ذلك لأن الشمس تشرق هناك؟

– لا، أيها الحبيب فاسو. هناك أعمدة زرقاء كثيرة، وهي سبب الضوء.

كان من المستحيل عليهما أن يصدقا أن الفتى يرى نذر الموت يجيئون طائرين إلى الذين يموتون؛ ولكن الأم حاولت، على الأقل، أن تألف هذه الفكرة. – غير أن تحقيق ذلك كان يتطلب منها جهداً شاقاً – ظلت تبكي، وتتلو الصلوات بصوت خافت، أما فاسيلي فلم يبق له غير أن يغالب النعاس جالساً على الأريكة في انتظار الوقت الذي ينهي فيه آكوب تعداد الأرواح الصاعدة راعشة إلى السماء، ويطلب منه أن يأخذه إلى السرير. لم يعد مسموحاً الآن لآكوب أن ينام إلا إلى جانب أخيه، فأمه تخاف أن تكتشف ملائكة الموت أنه يراها، فتأتي لتأخذه. غير أن ملائكة الموت كانت مشغولة عنه – إنها تبذل قصارى جهدها في تسلّم الأرواح الجديدة التي تموت ومرافقتها في الصعود إلى السماء.

– الغسق – وقت مخيف، – قالت الأم لابنها همساً، – جدتك المرحومة آروسياك روت لي أن أغلب الناس يموتون في الوقت الذي تكون فيه الديكة غارقة في النوم، ومن المعلوم أن الديكة تنام نوماً عميقاً في الوقت ما بين منتصف الليل والفجر.

– وما علاقة الديكة النائمة بالأمر؟ – سأل فاسيلي وهو يسترق النظر إلى أخيه الأصغر الملتصق بالنافذة.

– علاقتها هي أنها تخيف الموت بصياحها. أما إذا مات الإنسان في النهار، فذلك يعني أن الديك لم يرسل صياحه في الوقت المناسب.

هزّ فاسيلي رأسه وهو يزفر زفرة حرّى.

– سيحل الربيع قريباً، وتتراجع المجاعة. سيكف الناس عن الموت. وسترين أن آكوب سيهدأ.

جرى كل شيء كما توقع بالضبط. بعد أسبوع أو أكثر قليلاً، حين ظهرت أوائل الأعشاب الربيعية، بدأت القرية التي فقدت نصف سكانها، تنتعش تدريجياً، انتشر الناس في الحقول والحواكير، وأخرجوا من المخابئ بذور الخضار التي حافظوا عليها محافظتهم على عيونهم. ونام آكوب لأول مرة في الوقت المعتاد لنوم الأطفال. وصار بعد ذلك اليوم ينام نوماً هادئاً، عميقاً حتى موعد الغداء، وكأنه كان يعوّض ما فاته من نوم في ليالي السهاد التي قضاها قرب النافذة. أخيراً، في أواخر آذار، تذكّروا في الوادي ماران، فأرسلوا إليها من هناك، ذات يوم، شاحنة محملة بالقمح والبطاطا، يحرسها الجنود، الذين وزعوا لكل عائلة ثلاثة غرفكانات من القمح، وأربعة غرفكانات من البطاطا – بهدف الزراعة. كان القمح عادياً، محلياً، يدل على أن المستودعات الحكومية لم ينهبها كلها أولئك الذين أفقدهم الجوع عقولهم، أما البطاطا فكانت نوعاً جديداً – حبات مستطيلة، ملساء، ليس فيها أي تجاعيد أو عقابيل، لامعة كحبات الكاراميل. الجنود أوضحوا أن البطاطا جاءت مساعدة من مكان ما وراء المحيط، أملاً في أن يتكيف هذا النوع مع بيئة بلدنا.

ورغم أن الأمل في نجاح ذلك كان ضعيفاً، كانت زراعة البطاطا ضرورية، لأن المواد الغذائية نفدت تماماً، ولا بد من أن يصبر الناس بشكل ما حتى موسم جني المحصول. بعد بضعة أسابيع وصلت مساعدة جديدة، هي مجموعة من العربات المحملة بالدواجن – وقد جاءت هذه المرة من الجهة الأخرى، الشمالية، حيث يفصل قوس متصل من الجبال الوادي عن العالم الخارجي. وقد حصلت ماران بعد تدقيق في التوزيع على بقرة، ونعجة، وعنزتين، وخنزير، أدهش المارانيين كثيراً – كان الخنزير حسن المنظر، نظيفاً، كأنه ثمرة لفت مدورة غسلت بعناية تحت شلال ماء.

تأوهت القرية إعجاباً، وتمطّقت بألسنتها، ودارت حوله مندهشة من أذنيه الصغيرتين، وجلده الناعم، كانت الخنازير المحلية مشهورة في المنطقة كلها بآذانها الكبيرة كآذان الفيلة، وكثرة الوبر على جلدها، أما هذا فكائن رقيق، بلون حليبي مشوب بالحمرة، وصدر له شكل قلب، وقوائم صغيرة. بعد أن شبع المارانيون من تأمل الخنزير المدهش، استيقظوا من دهشتهم وراحوا يتساءلون حول كيفية التصرف بهذه المساعدة. قرروا أن يضعوا الحيوانات في الحظيرة الأوسع والأنظف في القرية، وهي الحظيرة التي يملكها ميليكانتس فانو، وأن يلتزموا التزاماً صارماً بتوزيع حليبها على البيوت التي ما زالت تضم أطفالاً. وسيكون من الممكن حين تشرع الحيوانات في الإنجاب، توزيع ما تنجبه على الدور، فتصير لكل دار، بالتدريج ماشيتها، وللقرية قطيع جديد... لكن، على أي قطيع يمكن أن يدور الحديث، والماشية التي حصلوا عليها كلها من الإناث؟ ومن أين سيأتون بذكور لتخصيبها؟ هم لم يتلقوا رداً من الوادي على البرقية التي أرسلتها ساتينيك، لكن شاحنة ثانية وصلت إلى القرية بعد أسبوع تحمل الذكور التي طال انتظارها، وإلى جانبها سرب كامل من الطيور الداجنة – طيور حبش، وبط، وإوز، ودجاج، وقد نقلت الطيور، كي لا تدوسها المواشي، في ثمانية عشر صندوقاً خشبياً، حين فتحوا الأخير منها ذُهلوا ذهولاً عميقاً فقد خرج منها طاووس أبيض اللون، نظر حوله باستياء حين صار حرّاً، ثم مضى مبتعداً وهو يجرّ ريشاته المكسّرة في وحل الطريق الذي انتفش بفعل الأمطار الربيعية.

أفرغت الشاحنة حمولتها وغادرت، ولم يكن هناك من يمكن أن يسأله الناس من أين جاء هذا الطاووس، وماذا يفعلون به، لذا، وبناء على طلب فانو، الذي صار الآن مسؤولاً عن القطيع المرسل من شمال نوبوفو، أرسلت ساتينيك إلى الوادي برقية جديدة، لكن الجواب لم يتأخر هذه المرة، بل جاء سريعاً وقصيراً وغاضباً: «ليس لدينا وقت نضيعه بقراءة دعاباتكم».

وضعوا الطاووس مع الطيور الأخرى، لكنه صار يبكي، ورفض الأكل مع بقية الطيور. أخذته زوجة فانو ييبوغانتس فالينكا، إلى بيتها، غسلته في الطست، صبت عليه الماء بالكأس في حذر، وظل ساعة وأكثر، يجف على ركبتيها ملفوفاً بشرشف قديم. يا للغرابة! أدهشها أنه جميل كل هذا الجمال، ورائحته كرائحة دجاجة مبلولة. جفّ الطاووس قفز إلى الأرض منتفضاً، ثم توجه نحو المدخل وصاح مكتئباً يطلب إطلاق سراحه. حرّرته فالينكا فهام في الفناء دون هدف، مرّ دون أن يلتفت بجانب حشد صاخب من الدجاج والبط والإوز، ثم عاد إلى الشرفة، فحشر نفسه تحت رف خشبي وهدأ. وبدا من المستحيل إخراجه من ملجئه – كان الطاووس يبكي ويصرخ كلما اقترب أحدهم منه وصار على بعد أقل من خطوتين، لذا تركت له فالينكا إناء ماء وقطفت له بعض أوراق القرّيص والحمّيضة، ومنعت أهل البيت من البقاء في الشرفة، كي لا يخيفوا الطائر. هدأ الطاووس، وخرج من تحت الرف، نقر قليلاً من أوراق القرّيص، وقضى نهاره كله في الشرفة يتنقل من زاوية إلى زاوية، وفي المساء، رفّ على السور، وأغفى مدلياً حتى الأرض ذيله الفاخر. ألف الطاووس بمرور الزمن مكانه الجديد، بل صار يطلب الخروج من بوابة الحديقة، فيمشي في الطريق، ملتفتاً يمنة ويسرة، ثم، حين يصل إلى حافة الجرف، يقف فترة طويلة، جميلاً، مهيباً، على رأسه تاج أبيض كالثلج، وعلى جسده ريش لطخه غبار الطريق بالصدأ، ينظر إلى مكان ما في الأعلى، ويصرخ أحياناً صراخاً يمزق الروح. عاش الطاووس في الشرفة سنة كاملة، صنع له فانو صندوقاً كبيراً فرشه بالقش، لكن الطاووس تجاهله بعناد، إلا في اليالي الباردة جداً، حيث كان يحتمي به، فيدسّ جسده تحت غطاء صوفي عتيق تلفه به فالينكا بعناية، ويقبع متجهماً صامتاً يلقي نظرات لا مبالية على ندف الثلج النادرة المتسللة عبر الستارة. وكان أحياناً يخرج إلى الفناء البارد، فيغدو في لحظة غير مرئي تقريباً فوق الغطاء الثلجي الفاخر، غير المنسجم مع الواقع القروي المحيط به، – يرقب هطول الثلج فترة قصيرة، ثم يصفق بجناحيه المبللين بصعوبة طائراً إلى الشرفة، حيث يجمد لحظة على سورها ثم يندس من جديد في الصندوق المفروش بالقش.

الحيوانات والدواجن الأخرى المجلوبة من الوادي تأقلمت بسرعة في المكان الجديد، فأعطت البقرة والعنزتان والنعجة من الحليب ما مكّنهم أحياناً من تحويل كمية منه إلى زبدة وجبن، كمية الإنتاج كانت قليلة لا تكفي إلا الأسر التي لديها أطفال. بحلول الصيف انتعشت القرية، اخضرت حقولها وحواكيرها، ونضجت ثمار التوت والكرز البري، لكن بهجة ولادة الحياة من جديد عكّرها الخوف من الجفاف الذي كانوا يخشون عودته. وقد عاد بالفعل، لم يكن مديداً كما في العام الماضي، لكنه كان عنيفاً، لاهباً، شديد القيظ، ولم ينقذ الناس إلا كونه تأخر فحلّ في أواخر تموز، الأمر الذي مكّنهم من إنقاذ جزء من المحصول. البطاطا الغريبة لم تثمر، لكن نمت في حاكورة فاسيلي فجأة عدة شتلات من البطاطا القديمة التي شاءت الظروف لحسن الحظ أن تظل منسية في الأرض من الموسم الماضي، – جمعتها الأم لاحقاً وخبأتها حتى الربيع – لزراعتها في الموسم الجديد. وعاش الناس العام الثاني من المجاعة على مخلل البندورة والخيار، والثمار البرية، والفطر، والجوز، والعسل أيضاً، فقد تحمّلت خلايا النحل، والحمد لله، الجوع واستطاعت، قبل حلول الجفاف أن تجمع مؤونة كافية، ثم عوّضت ما نقص منها في تشرين الأول حين بدأ القيظ، أخيراً، بالتراجع.

ماتت الأم في شتاء المجاعة الثاني، بعد أن عاشته حتى آخر أيامه، رحلت في منتصف النهار، تمددت لتنام قليلاً، ولم تستيقظ. ولداها كانا في ورشة الحدادة، فقد اصطحب فاسيلي أخاه آكوب كي يصرف ذهنه عن سهرات الليل، التي عاد إليها مع حلول الشتاء؛ كان الفتى يراقب أخاه وهو يصب الحديد المصهور في القالب، وفجأة انتصبت قامته وأمسك بكوع فاسيلي الذي تفادى بمعجزة اندلاق الصهارة عليه، وهم أن يصرخ في وجهه، لكنه صمت – كان آكوب شاحباً شحوب الموتى، يعبّ الهواء بفمه، محاولاً أن يقول شيئاً، ولكن دون جدوى. خاف فاسيلي أن يكون تنفس أخيه

قد ضاق بسبب حرارة المكان، فحمله على ذراعيه، وأخرجه من الورشة، فاستنشق الأخ الهواء بصعوبة، ثم ابتلع ريقه وأجهش بالبكاء: فاسو – حبيبي، لقد زار ملك الموت ماما.

ركض فاسيلي وهو يكاد لا يرى طريقه، متعثراً بمريول الحدادة الطويل، ضاغطاً آكوب إلى صدره، محاولاً تغطيته بيديه – الجو في الشارع كان بارداً، وهما لا يرتديان معطفيهما. البيت يغمره سكون حزين، الأم راقدة كالأطفال واضعة راحة يدها تحت خدها. وضع فاسيلي أخاه على حافة الديوانة وزحف نحوها على ركبتيه، وضع شفتيه على صدغها فأحس ببرودة الموت على بشرتها – وبكى.

تلك كانت الليلة الشتوية الأولى التي لم يقضها آكوب قرب النافذة. ظل يبكي طوال النهار إلى جانب جثمان أمه، فخارت قواه تماماً بحلول المساء، وارتفعت حرارة جسمه ارتفاعاً حاداً. أرادت ياسامان، التي استدعيت للمساعدة، أن تأخذه إلى بيتها لرعايته، فرفض – سأكون هنا، أنا أريد أن أكون هنا. نزعت ياسامان عنه ملابسه كلها ودهنت جسده بمرهم التوت، ثم لفّته بحرام صوفي، وسقته مغليّ بعض الأعشاب والبذور، ثم تركته يتعرق، وعادت فدهنت جسمه بكريم التوت، ثم غادرت بعد أن تأكدت من أن حرارته بدأت تنخفض، واعدة أن تعود في الصباح الباكر. في الليل اعترف آكوب، مسنداً جبينه الحار إلى كتف فاسيلي، أنه كان يعلم بموت أمه في الشتاء.

– لذلك كنت أجلس قرب النافذة، أراقب الأماكن التي كانوا يطيرون إليها. ليتني كنت في البيت... ليتني لم أذهب معك إلى الورشة...

– وماذا كنت ستفعل؟

– كنت سأطلب ألاّ يأخذوها.

– لكن الملاك ما كان سيلبي طلبك.

– بل كان سيلبيه.

منذ ذلك اليوم كفّ آكوب عن الجلوس قرب النافذة، وحين سأله فاسيلي بحذر عن ذلك، قال: لم يعد هناك ما أقلق عليه، فليس في بيتنا الآن مهدد بالموت.

لم يكن الشتاء الثاني بائساً كالشتاء الأول، ومع ذلك رحل إلى العالم الآخر أناس كثيرون. لم يكونوا يموتون بسبب الجوع، بقدر ما كانوا يموتون بسبب سوء التغذية الذي أضعف مناعتهم. لقد فقد فاسيلي وآكوب في ذلك الشتاء، أمهما، وفقدت ياسامان وأفانيس ابنهما وحفيديهما، أما والدا ماغتاخيني ففقدا بناتهما الثلاث، ولم يبق حياً في أسرة ياكوليتشانتس بيتروس سوى بنتين هما ماغتاخيني بنت الثمانية عشر عاماً، وشوشانيك بنت العشر سنوات، التي شفيت بأعجوبة، عند حلول الربيع، من التهاب رئوي حاد. بيتروس الذي هدّه الحزن، اقترح على فاسيلي، بدافع من نبل نفسه، أن يأخذ آكوب إلى بيته، موضحاً أن الطفل، ابن الست سنوات، يحتاج إلى رعاية أنثوية وحنان، لكن فاسيلي شكره بتهذيب ورفض ذلك قائلاً: سنتدبر أمرنا بشكل ما، ولم يقل كلمة بشأن الزواج – فعلى أي زواج يمكن أن يدور الكلام والضيعة كلها في حالة حداد. غير أن من سيكون حماه في المستقبل تحدث عن ذلك من تلقاء نفسه:

– سننتظر عاماً آخر. ستتزوجان في الربيع المقبل إذا بقينا أحياء بعد الشتاء.

كبرت ماغتاخيني في هذه الأثناء، وصارت صبية جميلة حقاً – شفافة، رقيقة، سوداء العينين، سوداء الشعر، طويلة القامة – لا يفوقها فاسيلي في الطول إلا قليلاً جداً، لكنها متناسقة:

جبين عريض، وأنف جميل، وعنق طويل نحيل، وكفّان صغيران، وقدمان صغيرتان أيضاً. لم تكن تخجل من عريسها، أو تشيح عنه ببصرها. تزوره مرة في الأسبوع بصحبة أمها – تساعد في تنظيف البيت والطبخ، وذات مرة سمحت له، حين كانا على انفراد لفترة قصيرة، أن يمسك يدها، ويقبّل خدها، ذلك كان التصرف الوحيد الذي أباحته لنفسها قبل الزواج، – التقاليد في ماران كانت صارمة، تتزوج الفتيات عذراوات لم يقبّل شفاههن أحد؛ ومن النادر للغاية أن تتزوج الأرملة منهن مرة ثانية، بل تظل مرتدية ثوب الحداد على زوجها طوال حياتها.

في أيام الآحاد كان فاسيلي يردّ الزيارة لماغتاخيني بصحبة آكوب، حاملاً دائماً هدية ما، – مرة، توتاً برياً، ومرة، قليلاً من الفطر، أو بعض التفاح الأخضر. وكانت أم ماغتاخيني تقبل الهدايا المتواضعة بتعفف كبير، تعتذر عن قبولها، تغرق عيناها بالدموع – فلكل ذرة طعام قيمتها في القرية. لقد مسح الجوع الفوارق بين الأغنياء والفقراء، ووضع الجميع، كما في يوم القيامة، في رتل واحد متدنٍّ على حافة الموت، يعذبهم ساخراً دون أن يخفي سروره: تارة يحرق غرسات زرعهم الآخذة في النمو، وتارة يغمرهم بمطر مدرار لا نهاية له، فتتحول الحقول إلى مستنقعات يستحيل اجتيازها، وفي تارة ثالثة يسوق الغيوم ويضرب براعم أزهار الأشجار المثمرة ببرد كل حبة فيه بحجم بيضة الدجاجة. جميعهم كانوا يقتّرون في الطعام، وجميعهم لم يروا اللحم منذ زمن، الحيوانات باتت قليلة جداً في الغابة – تلك التي ظلت حية في زمن الجوع اصطادوها في العام الماضي، وتلك التي نجت من الصيادين كانت قليلة، اختبأت في عمق الغابة، محاولة عدم الظهور. غير أن الحياة انتزعت، بلا شك، حقها، وخلّصت القرية من الجوع ميليمتراً بعد ميليمتر. في الشتاء أنجب قطيع نويوفو صغاره فتضاعف تقريباً عدد الماشية، وفي الربيع تراكض في فناء ييبوغانتس فالينكا سرب من صغار الدجاج والبط، التي ستكتسي بالريش وتصبح طيوراً كاملة النمو في الخريف، أما الخنزيرة فأدهشت الجميع بإنجابها اثني عشر خنّوصاً آذانها كبيرة وجلدها يكسوه الوبر، وراح الناس يترددون على الحظيرة يتأملون الخنانيص، يتأوهون ويتمطقون بألسنتهم تعجباً، ويتساءلون كيف يمكن لخنازير مجلوبة من الشمال، ملساء، بيضاء البشرة، أن تلد هذه الخنانيص التي لا تشبهها أبداً.

تراجع الجوع بعد ثلاثة أعوام، تاركاً خلفه مقبرة لا يقل حجمها عن حجم القرية التي صخّرها الحزن.

كان فاسيلي حين يرغب في الإحساس بالسعادة التي نسي الإحساس بها منذ زمن، يحرص على أن يتجنب حابساً أنفاسه، كل ما جرح قلبه جرحاً لا ينتهي وجعه: موت أبيه، وموت أمه، وموت أخيه، وموت ماغتاخيني، وموت أبنائه الثلاثة، – المولودين تباعاً، سنة بعد سنة، – وينظر بعيداً إلى الوراء، إلى حيث كان الصيف بلا نهاية، وكانت الأشجار تنمو عالية تلامس ذراها السماء.

كان يتذكر نفسه طفلاً في الخامسة من عمره، يجلس على ركبتي جدته آروسياك – تمسّد شعره بكفيها النحيلتين وتروي له الحكايات، ويتذكر أمه الفتية، الجميلة، العائدة من العين، حاملة جرة نحاسية على كتفها، وتمشي بحذر ناظرة إلى موطئ قدميها خشية أن تتعثر، وحين ترى ابنها تشع بابتسامة مؤثرة؛ ويتذكر أباه الذي شاب شعره مبكراً، لكنه ظل فتياً، متين البنية، رموشه وحواجبه محروقة بلهب فرن الصهر، ويتذكر كيف كان أحياناً، حين يقترب الليل، وتنسكب برودة الماء في جو الفناء، يخرج فترة قصيرة من الورشة طلباً للراحة، يسند ظهره إلى الجدار الحجري، ويروي تاريخ أسرتهم، وكيف أن أمه نجت بأعجوبة من المذبحة الكبرى، هربت إلى هنا مصطحبة أربعة أطفال، ويتحدث عن نبل أرشاك – بيك المقيم في الأبدية، الذي آوى الأسرة البائسة، وعن الجار أونان، الإنسان الرديء الذي رفض أن يسترد الزبدة بالتقسيط، والذي أطلق عليهم اللقب السيئ «كودام»، بدلاً من كنيتهم أروسياك.

– وهكذا، يا ولدي، صارت كنيتنا كودامانتس، – ويتابع منهياً حديثه حتماً بقوله: – وأصلها كلمة «كودام» أي «سأرد الدين».

الفصل الخامس

لم تمت أناتوليا في اليوم التالي، ولا في اليوم الذي تلاه. النزيف توقف تماماً بعد اليوم الرابع، غير أن الضجة في أذنيها لم تتوقف، وظلت ترهقها موجات مؤلمة من الصداع، تكون، في بعض الأحيان، قوية إلى حد يجعلها تتشبث بالجدار، تنزلق في حذر إلى الأرض، وتجلس مغمضة العينين – لكي يسهل عليها تحمّل الدوار الذي يعصف برأسها. لقد باتت الآن، بالإضافة إلى الوجع في مفاصلها، والألم الممض في أسفل بطنها، تعاني من خدر في يديها: أخذت كأس الشاي عن الطاولة، فأدهشها أن الكأس بردت بسرعة، غير أنها حين رشفت بعض الشاي، وجدته حاراً، فأدركت، ببساطة، أن أصابعها هي التي فقدت الإحساس بالحرارة. هي لم تخف، ولم تكن تنوي أن تجعل من حالتها مأساة، لذا تابعت ممارسة أعمالها اليومية بهدوء، وظلت تكذب في جوابها على الأسئلة الملحة لياسامان، التي وجدتها جالسة على الأرض العارية في وسط الدار، فتزعم أنها تسممت نتيجة أكلها لمخلل ملفوف متعفن، لم تطاوعها يدها في رميه في النفايات. سقتها ياسامان شتى أنواع مغليّ الأعشاب التي تعالج اضطرابات المعدة، وهي تفحص، في الوقت نفسه، نبضها، وتعدّ دقات قلبها، ثم سقتها منقوع فواكه وزبيب. في اليوم التالي أحست أناتوليا ببعض التحسن، لكن الوهن والإعياء لم يفارقاها وكذلك لم يهدأ الدوار الذي ظلت تعاني منه.

الشيء الوحيد الذي كان يقلقها، ليس وضعها الصحي السيئ، بل قدوم فاسيلي للإقامة معها. لم تكن لديها القدرة على الذهاب إليه والاعتذار منه، وإبلاغه رفضها، لذا طلبت من أفانيس أن يفعل ذلك.

وافق أفانيس بقلب واجف، ولم يخف فرحته حين وجد نفسه غير قادر على فعل ذلك، ففي مساء اليوم نفسه ظهر العريس ترافقه ابنة عمه – كان يحمل حقيبة ملابس، والمنجل القديم بعد إصلاحه، ورزمة من الأرغفة المصنوعة من دقيق الذرة، وكانت ابنة عمه ساتينيك تحمل إناء مملوءاً بالكرز بين ذراعيها الممدودتين أمامها وهي تمشي بوقار، ووراء الاثنين راح كلب رعاة ضخم ثلجي البياض يسوق عنزة وجديين بالغين، ونعجتين مكتئبتين، ويختتم الموكب كبش عجوز، هزيل، ذو قرن ضخم محطّم، ورقعة جلدية على إحدى عينيه.

كانت أناتوليا عائدة لتوها من القبو الذي ذهبت إليه لإحضار السمن. تراجعت خطوة إلى الوراء حين رأت الضيوف غير الراغبة في استقبالهم، بحثت بيدها عن إفريز السلم من دون أن تلتفت، ثم انحنت بحذر ووضعت على أول درجات السلم قطرميز السمنة.

– مساء الخير يا عروسنا، – حيّتها ساتينيك.

– أظن أننا اتفقنا على مجيئكم غداً، – تمتمت أناتوليا.

– أمسكي البوابة مفتوحة، كي نتمكن من إدخال الماشية، – طلب منها فاسيلي الذي لم يسمع كلماتها.

اتجهت أناتوليا نحو السور، وهي تفكّر بشكل محموم بطريقة للخروج من هذا الموقف المحرج، لكن تفكيرها لم يوصلها إلى شيء. فتحت البوابة على مصراعيها وهي شاردة الذهن، ووقفت تنتظر دخول الماشية المتدافعة إلى الفناء. ترك فاسيلي صرّة الأمتعة عند السور، وأعطاها صينية الأرغفة التي ما زالت ساخنة، ثم قاد الماشية بثقة إلى الحظيرة الفارغة منذ ما يقرب نصف عام – عنزات أناتوليا مرضت وماتت في الشتاء، وكانت تنوي اقتناء بعض الماشية في أوائل الخريف، واتفقت

مع ياسامان على أن تأخذ من عندها العنزة الصغيرة حين يشتد عودها وتصبح قادرة على العيش بعيداً عن أمها. قاد الكلب الماشية إلى الحظيرة، ثم عاد راكضاً ودس أنفه الرطب تحت ثوب أناتوليا، شمه، ثم رفع رأسه الضخم، ذا الأذنين الكبيرتين، ونبح نبحة قصيرة.

– لقد اعترف بك، – قالت ساتينيك ضاحكة. – هذه سيدتك الجديدة يا عزيزي باترو.

مسّدت أناتوليا رأس الكلب بحركة آلية وحكّت ما وراء أذنه.

– أظن أننا اتفقنا على مجيئكم غداً، – كررت ما قالته قبلاً، وهي تراقب كيف أغلق فاسيلي باب الحظيرة على الماشية، واتجه إلى القبو كي يضع المنجل الذي أصلحه في مكانه.

– أحقاً؟ – قالت ساتينيك مندهشة، – لقد قال ابن عمي أنك طلبت منه أن يأتي بعد غد.

– بل قلت بعد يومين.

– يبدو أنه أخطأ الفهم. طيّب يا عروسنا، هل سأظل واقفة عند البوابة، أم ستدعينني للدخول؟

– ادخلي، طبعاً، قالت أناتوليا مستدركة.

– دعي الأمتعة في مكانها، سيحملها فاسيلي إلى الداخل، – قالت ساتينيك وهي تتوجه نحو درج المدخل. – لا تنسي السمنة، لأن باترو سيلتهمها في لحظة، إذا تركتها. أليس كلك يا باترو – جان؟

نبح باترو معبّراً عن استعداده، وراح يهز ذيله.

– أين سينام يا ترى؟ في الحظيرة؟ – سألت أناتوليا.

– سينام في بيته الصغير. ابن عمي سيحضره فيما بعد.

خرج فاسيلي من القبو، وأغلق بابه بإحكام، ثم وكز بإصبعه رأس الكلب مهدداً.

– الدخول إلى هنا ممنوع! هل هذا مفهوم؟

أطلق باترو صرخة أسف قصيرة، وزحف على بطنه نحو سيده وهو يجرجر أقدامه الكبيرة. في حركة مضحكة.

– البارحة تركت قرص جبنة قليل الملح لحظة من دون رقابة، وحين عدت وجدته قد سرق الجبنة والتهمها، – قال فاسيلي موضحاً، وقد لاحظ الدهشة في نظرة أناتوليا، وتابع، – غداً سأضع على باب القبو من الخارج مزلاجاً، كي لا يتمكن من التسلل إليه. كذلك يجب وضع مزلاج لباب الدار.

صعدت أناتوليا الدرج في صمت وهي تضغط صينية الأرغفة إلى صدرها.

الدوار يعصف في رأسها، وساقاها تخونانها وترتجفان. لم تكن في رأسها أية أفكار، السؤال الوحيد الذي كان يدور على لسانها هو: «لماذا؟» وهو سؤال كانت توجهه إلى نفسها قبل أن توجهه إلى ساتينيك وفاسيلي. فما ذنبهما ما دامت هي نفسها من طبخ هذه الطبخة؟ «سأسقيهما الشاي، وأعتذر منهما، وأطلب منهما المغادرة»، – قالت في سرها.

حملت ساتينيك قطرميز السمنة الذي نسيته أناتوليا، ومسحت أسفل القطرميز بطرف مريولها وهي تدخل المطبخ، ثم وضعته على الطاولة وجلست، مسندة خدها المجعد إلى يدها، أما فاسيلي، فصفق باب الدار في وجه الكلب باترو قائلاً له: اذهب واركض في الفناء يا صاحب السحنة الوقحة، – ثم أدخل صرة الأمتعة إلى الممر، وتردد لحظة، ثم علقها على ذراع الديوانة – سنتدبر أمرها فيما بعد، – قال في سره. فتحت أناتوليا باب الموقد ومدّت يدها إلى رف المطبخ لتحضر علبة الثقاب داخت فكادت أن تسقط، لولا أن حماها ظهر الموقد العريض. انهارت أناتوليا، تكومت فوق الموقد وقد تلقت خاصرتها صدمة قوية وفقدت وعيها. استيقظت أناتوليا من إغمائها في سريرها، أيقظتها رائحة الكريم الذي دلّكت به ياسامان صدغيها. كانت ساتينيك تجلس على حافة السرير تدلّك لها قدميها وتحرص على أن تزيد ضغطها على الأماكن المقببة من سلاميات أصابع قدميها، وكان أفانيس وفاسيلي يتبادلان الحديث في الغرفة المجاورة، فلا يتناهى إلى سمعها إلا نتف من حديثهما: «إنها مريضة منذ أربعة أيام، وزوجتي لا تعرف ما الذي أصابها»،»يبدو لي أني أقوم في الانتقال في الوقت غير المناسب»، «أنا أرى عكس ذلك. بانتقالك سيكون هناك من يعتني بها في الليل».

– سأرسل برقية إلى الوادي كي يرسلوا عربة الإسعاف إذا لم تتحسن صحتها حتى صباح الغد، – قالت ساتينيك بصوت منخفض.

– دعوني وشأني، – أرادت أن تقول لهم أناتوليا، لكن ما انطلق من حنجرتها كان أنيناً متصلاً.

– انحنت ياسامان فوقها تسألها: – ماذا تريدين؟

حاولت أناتوليا أن تلتقط نظرتها. لكن أجفانها لم تنفتح وكأنها مصبوبة من رصاص، غطّت عينيها وطوّحت يدها في الهواء على غير هدى فالتقطت أصابع يد صديقتها، فضغطت ضغطاً خفيفاً.

– لا، – تمتمت، – لا.

نبح باترو بصوت آمر مرتفع – مددت ساتينيك ساقي أناتوليا على غطاء السرير بعناية، واقتربت من النافذة، هزّت سبابتها مهدّدة وهي تشير إلى الفناء – اهدأ، أيها الكلب النبّاح، وإلا وضعتك في القيد. اندفع باترو نحوها غير مكترث بما يعترض طريقه، فاصطدم بكل قوة اندفاعه، ببرميل، فقلبه، وجمد مذهولاً وقد تبلل من الرأس حتى القدم بماء المطر المتعفن قليلاً. تدحرج البرميل الأرض مرسلاً ضجيجاً يصم الآذان كضجيج الطبول، واصطدم بالسور الخشبي، فأثار صياح الطيور الخائفة، واهتاجت النعجتان والعنزتان في الحظيرة، وسُمع وقع خطوات سريعة في الغرفة المجاورة – تلك كانت خطوات فاسيلي الذي هبّ واقفاً حين سمع الضجيج، وأسرع إلى الفناء، ليرى ماذا يجري هناك.

«لا يستطيع المرء أن يموت بهدوء مع هؤلاء»، – قالت أناتوليا في سرها، وفجأة شعرت بارتياح وغرقت في النوم – نامت نوماً عميقاً ومنقذاً. هي لم تفتح عينيها إلا في منتصف نهار اليوم التالي، حين أيقظها نباح باترو ووقع أقدامه، – كان يدوس الأعشاب بقوائمه الثقيلة، وهو يعدو بمحاذاة السور مطارداً زغب الأشجار النادر في شهر أيار، الذي سيتحول في حزيران إلى ما يشبه هطولاً حقيقياً للثلج.

كان ثوب أناتوليا معلقاً بعناية على ظهر الكرسي. ارتدته، وبكّلت أزراره كلها، ثم راحت تبحث عن حذائها المنزلي – لم تجده، فنهضت بحذر – شعرت بجسدها خفيفاً بشكل مفاجئ، يكاد يكون بلا وزن، وقد اختفى ألم مفاصلها، وصار تنفسها أسهل بكثير مما كان قبلاً – استنشقت هواء ملء صدرها، ثم زفرته بعناية – شعرت بدوخة خفيفة جداً. سمعت قرقعة آنية في المطبخ، يبدو أن

ياسامان كانت تطبخ، خرجت أناتوليا إلى غرفة المعيشة، الديوانة غير مرتّبة، يبدو أن أحدهم قضى الليلة في الغرفة المجاورة، يحرس نومها، الممر طويل، أرضه ترسل صريراً حين يسير عليها المرء، والشمس تغمر بنورها نوافذه – يمتد مستقيماً، ثم ينعطف يساراً نحو باب المطبخ. سارت ببطء، تمتص قدماها دفء الأرض الخشبية. تقلصت قسمات وجهها بسبب ما وقع تحت قدميها من قش – البيت لم ينظف منذ خمسة أيام، يجب أن تستجمع اليوم قواها وتكنسه على الأقل، وغداً، إذا توفرت لها العزيمة، تقوم بشطفه، – باب المطبخ كان مفتوحاً على مصراعيه، وستائر النوافذ، المخيطة من الشيت، يلوحها تيار الهواء، وإلى الطاولة، كان فاسيلي يجلس زامّاً عينيه، يلوك طرف غليونه المطفأ، متسلحاً بسكين ينزع بها القشرة الرقيقة عن حبات البطاطا الربيعية الصغيرة الحجم.

نهض على الفور، محاولاً مساعدتها في الوصول إلى الكرسي، لكن أناتوليا منعته بحركة من يدها – لا داعي للمساعدة، سأفعل ذلك بنفسي.

– سأحضر لك حذاءك. البارحة سقطت فوقه زجاجة الشراب من يد ياسامان، فاضطررنا لغسله ووضعه في الشرفة ليجف، وهو، على الأغلب، قد جفّ الآن.

خرج إلى الشرفة، وعاد يحمل الحذاء، ثم انحنى، وهو يتوخوخ، ووضعه أمامها على الأرض.

– دعيني أساعدك في انتعاله.

– هذا ما كان ينقصني! – قالت أناتوليا محتجة.

– كما تريدين، – قال فاسيلي دون أن يناقشها، ثم أمسك السكين من جديد. – اليوم صباحاً جاءت ياسامان، استمعت إلى دقات قلبك، وقالت إن حالتك تحسنت، ثم طلبت تقشير البطاطا وإشعال الموقد. وها أنذا أقشر البطاطا بحسب معرفتي.

– ومن نام في الغرفة المجاورة؟

– أنا. تفقّدتك مرات عدة – راقبت تنفسك. وقد اضطررت إلى وضع أذني لصق شفتيك تقريباً، فقد كنت تتنفسين بصوت يكاد لا يسمع.

مرّرت أناتوليا راحة يدها على قدميها تنزع ما علق بهما، ثم انتعلت حذاءها. لقد كانت ستخجل، في ظروف غير هذه، من نوم رجل غريب وراء جدار غرفتها، وتردده إلى الغرفة لتفقّدها، أما الآن، وقد هدّها الضعف، فلم تشعر بغير الإحباط. لكن، إذا كان باستطاعتها أن تؤجل إلى ما بعد، معالجة ما تشعر به من إحباط، فإن فكرة انتقال فاسيلي الغبية لا يمكن تأجيل معالجتها، بل يجب إنهاؤها الآن. استجمعت إرادتها وتوجهت إلى فاسيلي قائلة:

– يجب عليك أن تعود إلى بيتك.

رمى فاسيلي حبة البطاطا المقشّرة في الإناء.

– لماذا؟

– لأن ما فكرنا فيه غباء.

– إذا كان غباء، فلماذا نستمر فيه؟

التقطت أناتوليا نظرته الساخرة، فغضبت.

– ماذا تعني بقولك؟

– ليس من المستحسن ألاّ نستقرّ على رأي ونحن في هذه السن. لماذا نفترق ما دمنا قد قررنا العيش معاً؟ ماذا سيقول الناس عنا؟

– يجب أن يكون ما يقوله الناس آخر اهتماماتنا، ونحن في هذه السن؛– قالت أناتوليا تشاكسه.

– ضحك فاسيلي ضحكة قصيرة ساخرة، ونقل غليونه من زاوية فمه إلى زاوية فمه المقابلة، ثم نهض وخبط السكين على الطاولة أمام أناتوليا.

– هيّا، اعملي إذن، ما دمت تملكين هذه العزيمة. أما أنا فسأشعل الموقد.

هزّت أناتوليا كتفيها، لكنها حملت السكين.

حين أطلت ياسامان وأفانيس عليهما شاهدا منظراً عائلياً يسر العين – أناتوليا تقشر البطاطا زامة شفتيها بعناد وكأنهما مشدودتان بخيط، وفاسيلي جاثياً على ركبتيه ينفخ الموقد. حين رأى الجارين، صفق باب الموقد وقف ومدّ يده مرحباً:

– طاب يومك.

– ويومك يا جار.

أما ياسامان فوضعت على الطاولة قدر لبنية، واقتربت من أناتوليا:

– تعالي نر كيف حالك. اجلسي منتصبة الظهر، انظري إلى إصبعي، أطاعتها أناتوليا من دون نقاش. حرّكت ياسامان إصبعها من ناحية صدغ أناتوليا الأيمن نحو صدغها الأيسر، ثم حرّكته بالعكس، وهي تراقب نظر أناتوليا بدقة، ثم تنهدت بارتياح:

– حدقتاك لا تنتفضان، يبدو أن صداعك قد زال.

– صحيح، أنا الآن في حال أفضل، – قالت أناتوليا مؤمنة على كلامها.

– لقد أعددت لك مغليّ ورق القريص بالنعناع، وتركته كي يبرد، سأحضره لك فيما بعد، وستشربينه في خلال يوم. ميليكانتس فانو سيذبح خروفاً اليوم، وقد وعدني بالمعلاق. سأقليه مع البصل، وستأكلينه. لا تكشّري، يجب أن تتعالجي مادمت مرضت.

تنهدت أناتوليا، وقالت:

– أنا لا أشكو من شيء. يبدو أني عانيت من هبوط في الضغط، وهذا يحدث عند كل الناس. ما يشغل بالي أمر آخر – أنا أطلب من فاسيلي أن يعود إلى بيته، وهو لا يقبل، يقول: لماذا أعرّض نفسي في آخر العمر إلى هذا الموقف المعيب، فأنقّل أمتعتي من هناك إلى هنا، ثمّ من هنا إلى هناك.

كان فاسيلي في هذه الأثناء يجلس هادئاً وكأن الحديث لا يدور حوله، فاتحاً باب الموقد، يقلّب الحطبات المشتعلة، يساعد النار كي تطالها من جميع الجوانب.

– كيف تطلبين منه العودة إلى بيته؟! نحن نعدّ العدّة للاحتفال، إحم، بكما، – صاح أفانيس – سنمدّ مائدة في الفناء ونحتفل قليلاً. لقد أبلغت ساتينيك القرية كلها بذلك، وحضّرت البقلاوة للعرس.

– عن أي بقلاوة تتحدث؟! – صرخت أناتوليا محتجة. – لماذا تريد أن تجعلنا مضحكة للناس؟

– إنها بقلاوة عرس عادية، بالجوز والعسل، وقد خبأت فيها ساتينيك قطعة نقدية لجلب السعادة، من تقع في طبقه سيكون التالي في الزواج. – قال أفانيس ضاحكاً.

أناتوليا اشتعلت غضباً.

– ما هذا الذي يجري؟ هل فقدتم عقولكم؟

– هيه، أنت! هذّبي ألفاظك.

– وهل يمكن التحدث معكم بغير هذه الطريقة؟

– لا يمكن، بل يجب!

قامت ياسامان، في أثناء هذه المشاحنة بين أناتوليا وأفانيس، بغسل البطاطا المقشرة، وضعت مقلاة كبيرة فوق الموقد، ووضعت فيها ملعقة من السمن، انتظرت حتى ذاب السمن ثم ألقت بالبطاطا المفرومة في المقلاة وغطّتها بإحكام.

– أفانيس، اذهب إلى الحاكورة، واقطف بعض البقدونس والنعناع، واجلب الجبن أيضاً. ستنضج البطاطا بعد قليل، ونجلس للغداء، – قالت مخاطبة زوجها.

– أنا لم أرو الحاكورة منذ يومين، – قالت أناتوليا.

– أنا سقيتها في الصباح، – قال فاسيلي لائماً، ومشى نحو الباب، يتبعه أفانيس وهو يدمدم مستاء.

انتظرت ياسامان حتى خرج الرجلان من المنزل، ثم قرّبت كرسيها وجلست قبالة صديقتها.

– ما بالك تظهرين طبعك السيئ؟

– لا أريد العيش معه، هذا هو السبب.

– أتريدين أن تهرمي وحيدة؟

– وما الفرق بين أن أكون وحيدة أو لا أكون؟ سأهرم على كل حال.

– لماذا تعاندين ما دمت لا تجدين فرقاً؟

طرقت أناتوليا بيدها سطح الطاولة.

– أنا لا أعاند، كل ما أريد قوله هو أن هذا الأمر لا يروق لي، – شرعت تطقطق أصابعها بعصبية، – لا يروق لي هذا الانتقال السريع، ولا هذا الكلب النبّاح في الفناء، ولا الحيوانات التي في الحظيرة، لقد جاء بها دون أن يسألني إن كنت أحتاجها أو لا. إنه يتصرف في بيتي وكأنه سيّد البيت.

– وبرأيك كيف يجب أن يتصرف؟

– لست أدري. ليته سأل هل هذا ممكن أو لا.

– منذ متى يستأذن الرجال في قريتنا النساء؟

ارتدّت أناتوليا إلى الخلف مستندة إلى ظهر الكرسي، ومسحت عينيها بحركة تنم على الإرهاق.

– كان يجب أن أبلغه رفضي مباشرة.

– ما معنى استيائك الآن ما دمت لم ترفضي؟

– ألا أملك حق استرداد كلمتي؟

– وما هي هذه الكلمة التي تعطينها في البداية ثم تستردينها؟

– لم تجد أناتوليا ما تردّ به على سؤالها. نهضت ياسامان وصبّت اللبنية في الصحون، وقطعت الخبز. وقلّبت البطاطا بملعقة خشبية كبيرة وملّحتها. كانت أناتوليا تراقبها، وقد زمّت شفتيها استياء، فهي لم تفهم لماذا راحت صديقتها تقنعها بقبول ما آلت إليه الأمور، بدلاً من أن تؤيدها.

– التقطت ياسامان نظرة صديقتها المستاءة.

– ليتك تعرفين يا بنيتي كم هو مسيء أن يشيخ المرء وحيداً، – قالت متحسرة.

– أنا أعرف ذلك، قالت أناتوليا بلهجة خانعة.

– ما دمت تعرفين... وترين كيف نعيش، نحن نعيش، ننتظر الموت، من جنازة إلى جنازة: ما الذي ينتظرنا في المستقبل؟ لا بصيص ضوء في الأفق، ولا أمل، فلماذا، إذن، ترفضين أن تدخلي القليل من السعادة إلى قلب غيرك؟ فلتفكري به على الأقل، إذا كنت لا تفكرين بنفسك.

أرسلت أرضية الشرفة صريراً ينبئ بعودة أفانيس وفاسيلي من الحاكورة، يتبعهما باترو متوسلاً. أطلت ياسامان من النافذة:

– ما باله يبكي؟

– يريد جبناً. أعطيته قطعة، لكنه يطلب المزيد. لقد تورّطت واقتنيت كلباً في آخر العمر، والسبب ساتينيك: خذه، خذه، – قال مازحاً بصوت رفيع مقلّداً صوت ابنة عمه، – مع الكلب ستكون أقل عزلة.

– ابنة عمّك ملحاحة، لا تيأس، تارة تخطب لك كلبة، وتارة، زوجة.

ضحك فاسيلي على استحياء، ورمى قطعة من الجبن لباترو.

– هذه آخر قطعة، ولن تنال بعدها شيئاً.

ابتلع الكلب القطعة بلمح البصر، وأراد أن يبدأ نوبة نواح جديدة طالباً المزيد، لكنه اصطدم بنظرة سيده الصارمة، فأدرك أنه لن ينال شيئاً هنا، فاجتاز الدرج بوثبتين وانطلق في الفناء – يطارد الدجاج.

تناولوا الغداء في هدوء وسلام. تكلموا قليلاً في مواضيع عامة، وكان هناك الكثير من رنين الملاعق الاعتيادي غير المزعج، والكثير من طلبات تقريب الملح، أو قطع الجبن فوق قطع من الخبز المنزلي الجاف، أو القليل من الماء، فأشعر ذلك أناتوليا، لأول مرة في حياتها، بأن الحياة ليست فرضاً بل هبة. وراحت تسترق النظر إلى ياسامان تارة، وتارة إلى أفانيس، ثم إلى فاسيلي وتلتقط كل حركة رزينة، بطيئة، وتستجيب لها ذهنياً، مندهشة من غفلتها في الماضي عن هذه العلاقة الحتمية بينها

وبين كل ما يحيط بها – سواء أكان من الناس، أو الطيور أو الحجارة في المقبرة القديمة. «لا جنة هناك ولا جحيم، – قالت في سرها. السعادة هي الجنة، والشقاء هو الجحيم. وربّنا موجود في كل مكان وزمان، ليس فقط لأنه قادر على كل شيء، ولكن أيضاً لأنه يربط الكائنات كلها بعضاً إلى بعض بخيوط لا نراها».

استسلمت بعد الغداء لياسامان التي سقتها مغليّ القريص، وأرقدتها في السرير. نامت حتى المساء، واستيقظت في الوقت الذي عاد فيه القطيع إلى القرية مضمخاً بعطر الشمس الغاربة ورائحة الحقول في شهر أيار، وقد راح عدده يتناقص وهو يتنقل من باب إلى باب في درب القرية المتعرج. حين خرجت أناتوليا من البيت كان فاسيلي يأخذ عنزتيه ونعجتيه ويقودهما إلى الحظيرة. وهو يتبادل عبارات المجاملة المعتادة مع الراعي، رآها واقفة في الشرفة فارتسمت على زاويتي فمه ابتسامة – هنا فقط لاحظت أناتوليا للمرة الأولى، الظلال الرمادية – الفولاذية، المتميزة، في عينيه. استندت بكوعيها إلى سور الشرفة وحيته بإحناءة خفيفة من رأسها.

– سأقوم بحلب الماشية. المهم أن تجلب ماء إلى الحظيرة كي أغسل ضروعها قبل الحلب.

– أنا أستطيع القيام بالعمل كله. لقد علمتني ساتينيك.

– هي علمتك كيف تحلب الماشية؟

– طبعاً.

– وكيف وجدت ذلك؟ هل نجحت؟

– النعجتان لم تشتكيا حتى الآن.

غطّت أناتوليا وجهها بيديها، وضحكت.

– أحضر الماء. وليكن لك اليوم ما تريد. قم، أنت، بالحلب، وسأكتفي بالوقوف إلى جانبك.

الجزء الثاني

إلى ذلك الذي روى

الفصل الأول

ينتصب منزل ميليكانتس فانو في أقصى طرف الهوّة التي يطل عليها كتف جبل مانيج – كار. لقد انقسمت الصخرة إلى نصفين وهوت في الهاوية التي لا يرى لها قاع، تاركة خلفها نتوءاً يقوم عليه منزل من طابقين يحيط به من جميع الجهات سور متين يضم حديقة فاكهة كبيرة وحقلاً وعدداً من المستودعات والحظائر المتينة... وكان حدوث هذا مثار تعجّب كبير من أهل ماران – الدور المجاورة لذلك المنزل سقطت في الهاوية، أما أسرة فانو فلم تنج فقط، وإنما احتفظت أيضاً بكل ما تملكه، حتى جذوع الأشجار المكومة وراء السور في انتظار تقطيعها حطباً.

لقد كانت فالينكا واثقة من أن الأشباح لم تحمهم رحمة بهم، بل نتيجة غفلتها غير المتعمدة، إذ من الواضح أنها حين رسمت بيدها القاتلة الخط الذي كان عليه أن يفصل الجزء الحي من القرية عن الجزء الميت، شردت بفكرها لسبب ما، فابتعدت عن بيتهم. أما فانو، فخلافاً لزوجته، لم ير فيما حصل أي شيء غير طبيعي، بل كان، على العكس من ذلك، يغضب بشدة، حين كانت زوجته تتنهد وتشرع في تصوير ما تفترض أنه كان سيحدث لو جرف التراب المنهال إلى قاع الهاوية بيتهم.

– كنا سنفطس، وهذا كل شيء! – كان يجيبها غاضباً.

فتتأوه فالينكا مستاءة، وتضغط بيدها صدرها في موضع القلب، أما فانو فيصفق باب المنزل خلفه ويذهب إلى الطرف البعيد من الحديقة. هناك، تحت شجرة الكرز ذات الجذع المائل مقعد مستدير – لا يتسع لجلوس شخصين بالغين، لضيق المكان، ولكن جلوس شخص واحد عليه لا يبدو مريحاً أيضاً – فإحدى قوائم المقعد تعفنت وانكسرت، ولذا يضطر المرء إلى الجلوس على طرفه تماماً حتى يتجنب السقوط أرضاً.

لقد كان باستطاعة فانو أن يجلس تحت شجرة الكرز العجوز حتى ظهور نجوم المساء الأولى، وهو يتذكّر أهله الذين طواهم العدم. أمه كانت أخت أرشاك – بيك، وقد اضطرت إلى الهرب في بداية القرن الماضي من السلطات الجديدة التي أزاحت القيصر. جدها ليفون – بيك، سليل الفرع الشرقي من عائلة لوزينيانوف النبيلة (كان يؤكد دائماً بافتخار أن الجد القديم لأسرتهم هو ليفون السادس لوزينيان – آخر ملوك كيليكيا، حامل وسام السيف وشعار أورشليم)، وكان دائماً ضد أن تتزوج حفيدته رجلاً من عامة الناس. لكن أم فانو التي امتازت بشخصية مستقلة، وتشرّبت في أعوام دراستها في معهد البنات النبلاء بأفكار المساواة والأخوة وما شابه ذلك من الميول، وقفت ضد إرادة العجوز وربطت حياتها بحياة فتى، كان في الواقع ابن رجل ثري لكنه فلاح حقيقي حتى العظم. هي كانت تعرف تماماً أن أهلها لن يوافقوا طوعاً على هذا الزواج غير المتكافئ، لذا هربت مع محبوبها إلى الوادي، ولم تعد من هناك إلا بعد أن تأكدت أنها حامل.

ليفون – بيك الذي تملكه الغضب من تمرد حفيدته، أقسم أن يحذفها من حياته مرة واحدة وإلى الأبد. والتزم بقسمه ولكن بطريقة متميزة جداً. وقد روت الأم له كيف كانت تجيء إلى بيت أهلها، فتمضي مباشرة إلى مكتب جدها حيث كان يقضي أغلب وقته وهو يقرأ ويدوّن ملاحظاته، فتجلس على الأرض مسندة رأسها إلى ركبتيه. وكان الجد يمسّد لها شعرها في صمت، فتشعر أن كل لمسة من يده العجوز، الخفيفة الوزن، تبريكة لها منه. كانت الأم في تلك الفترة وهي على وشك أن تلد، تعاني من نوبات الغثيان التي تجددت في آخر شهر من أشهر الحمل، لكنها كانت تهدأ هدوءاً مدهشاً حين تكون مع جدها، بل إنها كانت تستطيع آنذاك أن تسمح لنفسها بأكل شيء ما – في الأوقات الأخرى كانت تتقيأ لمجرد استنشاق رائحة الطعام. وهكذا مات الجد دون أن يكلّم حفيدته، لكنه ترك لها بالذات لوحة

مرسومة بيد غير محترفة، يظهر فيها ليفون السادس في لباس مقاتل صليبي يرفرف خلف ظهره علم أبيض عليه شعار عائلة لوزينيانوف. وقد يكون فعل ذلك من باب الوصية، وقد يكون فعله من باب اللوم. لكن الأم، حفيدة جدها اللائقة، لم ترفع حاجبها دهشة، بل علّقت اللوحة في غرفة المعيشة، في أكثر الأماكن بروزاً، وحرصت على أن تكون الزهور في المزهرية تحتها طازجة دائماً.

كانت معاناتها لفراق أخيها الذي اضطر للهرب خوفاً من السلطات الجديدة، صعبة جداً، يبدو أنها أحست بقلبها أنها لن تلتقي به في هذه الحياة مرة ثانية. السلطات الجديدة لم تتعرض لها ولكنها التزمت الحذر، ومنذ ذلك الحين لم تزر مزرعة أهلها التي نهبت وتم تأميمها، أما صورة سلفها حامل الوسام فنزعتها عن الجدار وخبأتها في المستودع، رافضة بغضب اقتراح زوجها إحراق الصورة تجنباً للخطر.

– لن أدمّر الأثر الوحيد الباقي من جدي، – قاطعته محتدة، وأخفت اللوحة وراء خزانة خشبية حوت أشياء تالفة شتى، وهي ما زالت هناك منذ ذلك اليوم – تلطخها هجمات الذباب وخيوط العنكبوت التي ضمت كتلاً من الغبار، وقد تآكلت بسبب الرطوبة وبهتت ألوانها في تلك «المئة عام من العزلة» التي حكمت بها عليها لا مبالاة الأحفاد البعيدين.

ولكي يتم إخفاء الآثار وتجنب إثارة السلطات الجديدة بنسبها النبيل، تكنّت بكنية زوجها، وكان هذا حدثاً لم تشهد مارانٍ مثله من قبل، فالفتيات المحليات لا يغيّرن كناهنّ، وبذلك يحافظن على انتمائهن لأسرهن ويبقين جزءاً منها لا ينفصلن عنها أبداً. وقد تكتم أهل القرية بشدة على كنية أم فانو الحقيقية، لكنهم كانوا فيما بينهم يسمون زوجها ميليكانتس – الصهر [9] . وهكذا صارت كنية عائلة فانو الآن ميليكانتس، أي الملكية.

ميليكانتس تيغران كان الحفيد الأكبر والوحيد وقد ظهر في هذه الدنيا في عام الكارثة في قرية نويفا، وكان الطفل الوحيد الذي ولد في زمن المجاعة وبقي حياً. فانو يذكر ذلك الصباح بأدق تفاصيله. في ليل ذلك اليوم، عانت كنته من الطلق عشر ساعات طويلة جداً، انتهت قبيل الفجر بمولود – ضئيل الحجم، ونحيل إلى حدّ تستطيع فيه كف الجد احتواء جسده الصغير كله.

الكنة ماتت في الليلة التالية – ما أفقر دمها وأعياها لم يكن المخاض بقدر ما كان الجوع، – وألقيت أعباء رعاية الوليد كلها على كتفي فالينكا التي كانت آنذاك قد فقدت طفلتيها الصغريين.

في ذلك الصباح الذي ولد فيه تيغران، خرج الطاووس الأبيض لأول مرة إلى حافة الجرف، فوقف هناك ساكناً، لا يتحرك وكأنه في نوبة حراسة؛ ولم يعد إلا في المساء – عاد مرهقاً وقد ظهرت بقع صلعاء على ظهره وجناحيه؛ وظل ريشه يتساقط شهراً كاملاً بعد ذلك. كانت فالينكا تكنس كل يوم من زوايا الشرفة كومة من الريش، تجمعه في كيس، تنقّيه، لتصنع منه فيما بعد فراشاً للصغير، الذي ظل طوال ذلك الشهر كله يترجح على الحافة بين الحياة والموت، لكنه نجا في نهاية المطاف وشرع يتعافى تدريجياً، أما الطاووس الذي تخلّص من ريشه القديم فشرع يكتسي ببطء زغباً فضياً خفيفاً، لا وزن له، كأنفاس الوليد. لم ينتبه أحد على هذا التزامن بين حالتي الطفل والطاووس، إلى أن تهيأت لفالكينا أخيراً فسحة من الوقت، ففتحت عنق الكيس، فوجدت فيه بدلاً من الريش رماداً يشبه إلى حد بعيد رماد الحطب المحترق. غرفت حفنة منه وقرّبته من عينيها كي تتأمله بدقة. كان الرماد أخف من ذرات الغبار، وهو يلتمع التماع الثلج في ضوء الشمس، وتفوح منه رائحة القرفة واللوز. أمر فانو زوجته ألاّ تخبر أحداً بذلك – ولم يكن طلبه بسبب الخوف، بقدر ما كان بسبب عجزه عن تفسير ما حدث. دفن الكيس بالقرب من السور، وغرس بقربه في الأرض، لسبب لا يدريه، صليباً صنعه على عجل من الأغصان الميتة، فانبعثت الحياة في تلك الأغصان، ونمت شجرة كرز معطّر، محنية

الجذع. وقد ردّت الشجرة على كل محاولات تقويم جذعها بمدّ غصون مائلة نحو كتف مانيج – كار الأيسر الذي ضربه الزلزال، غصون راحت في الصيف تنثر في الهاوية الحزينة حبات الكرز الدموية، وفي الخريف – أوراقها المخضبة بالحمرة.

كبر تيغران طفلاً عليلاً، ضعيف الأعصاب، لا ينام في الليل، ويبكي بكاء متواصلاً. لم يشتد عوده إلا في الخامسة من عمره، حين بدأ يتكلم، وظل وقتاً طويلاً لا ينطق إلا بجمل بسيطة – أعطني ماءً، «أريد خبزاً»، وهكذا. تعلّقت روحا الجد والجدة، اللذين فقدا في أعوام المجاعة كل أبنائهم، بالطفل. كانت فالكينا لا تتركه وحيداً أبداً، حتى حين تزور جاراتها اللواتي كن يواصلن أشغالهن اليدوية – بعضهن ينسج على السنارة جوارب صوفية سميكة، وبعضهن يخيط الثياب يدوياً، أو يرقّع الثياب المهترئة، – وهن يتبادلن الأحاديث همساً.

وكان تيغران يلهو، في هذه الأثناء، بتماثيل الجنود الخشبية، أو بالحصى. في المساء كانت فالكينا تترك الطفل في رعاية زوجها، فيقوم الجد وحفيده، في أثناء انشغالها في أعمال البيت، بريّ الحاكورة، ويسوقان الطيور إلى القن، ثم يجلسان على المقعد تحت أغصان شجرة الكرز الفتية بقامتيهما المتماثلتين في النحول، فيروي فانو للطفل قصصاً بعضها مختلق، وبعضها حقيقي، أما تيغران فيسمعه مسنداً خده إلى قبضته الصغيرة، شفافاً وهزيلاً لو مررت بيدك على ظهره لأمكنك أن تعدّ بأصابعك فقراته البارزة بروزاً حاداً. وحين كان الصبي يركض في الفناء بخطا غير واثقة، جارفاً بأنف حذائه أدق الحصى، موشكاً على السقوط وتهشيم أنفه، كان الجد والجدة يتحولان إلى صنمين يراقبانه بعيون قلقة، لكن فانو كان في كل مرة تهم فيها فالينكا بالاندفاع نحو حفيدها المتعثر، يقف ساكناً ويمنعها بغضب ممسكاً بذراعها ويقول: إياك أن تفعلي، دعيه يقع، فالصبي خلق صبياً كي يقع، وينهض من وقعته. في دقائق كهذه كان الطاووس – المعتزل وغير المبالي بكل ما حوله – يطير إلى سور الشرفة، ويصرخ بحدة، محركاً رأسه الجميل ذا التاج الملكي الأبيض كالثلج، مثبتاً نظره على الطفل. لقد كان تيغران الكائن الوحيد الذي يهتم به، أما بقية العالم فهو، ببساطة، غير موجود بالنسبة إليه.

لقد شعر فانو أن الطاووس لم يظهر عبثاً، بل من أجل هدف كبير، إن لم يكن عموماً، من أجل أداء رسالة، فقد قام ذات يوم بمراجعة ما مضى من الزمن، وقارن بين تواريخ الأحداث، فتذكر أن الشاحنة التي نقلت الطاووس وصلت إلى القرية بالضبط في ذلك اليوم الذي أخبرتهم فيه الكنّة أنها حامل. وحاول فانو، وهو الرجل السليم التفكير الذي ينظر بعين الشك إلى كل ما لا يمكن تفسيره، أن يجد هنا أيضاً تفسيراً عقلانياً لما حدث. لكنه حين أخفق في ذلك طوّح بيده وسلّم بأن هناك أموراً لا يستطيع المرء تفسيرها بكلمات عادية، ولا يستطيع العقل الإحاطة بها، وأدرك أن ظهور الطاووس مرتبط على نحو ما بتيغران، غير أنه لم يخبر زوجته بذلك – خشية أن تشرع في التأوه، ووضع يدها على صدرها في موضع القلب، وتبني الافتراضات، وتثير قلق الجيران، فالمارانيون، وإن كانوا ذوي تفكير سليم، يؤمنون بالمنامات، والعلامات، ولذا فهم سيعودون من جديد إلى المجيء لرؤية الطائر ومضايقته باهتمامهم، كما حدث في الأيام الأولى حين دهشت القرية بجمال الطاووس الخارق، فاحتشدت في الفناء وراحت تتمطّق إعجاباً وتهمّ بتمسيد ريشه الفاخر في كل مرة يغفل فيها فيسمح لأحدهم بالاقتراب منه إلى مسافة خطوتين.

قرّر فانو، الممتلئ احتراماً للطاووس أن يعبر له عن شكره بكل الوسائل الممكنة – فرش على الشرفة سجادة، ووضع قرب السور سلّماً بثلاث درجات كي يسهل على الطاووس الصعود إلى أعلاه، وطلب من زوجته أن تضع في طبق طعام الطائر قمحاً منقّى وزبيباً، وصار يبدّل له آنية الماء شخصياً ثلاث مرات في اليوم. غير أن الطاووس تجاهل إشارات الاهتمام هذه – كان يأكل دون

رغبة، ويبعثر الحبّ في الآنية بقرف، متجاهلاً السلّم الذي أعدّه له فانو، ويطير إلى أعلى السور مصفقاً بجناحيه الثقيلين، ثم يجمد فوقه ناظراً بعينين شاردتين إلى الطيور الداجنة المحتشدة في الأسفل، لذا سافر فانو إلى الوادي وعاد جالباً معه أنثى طاووس دفع ثمنها نقوداً كثيرة – هي، في الحقيقة، لم تكن بيضاء بل مرقّشة، إذ لم يكن في الوادي من يربي طواويس بيضاء. وحتى الطواويس المرقّشة كانت ثلاثة فقط. أطلق فانو أنثى الطاووس في الشرفة بحذر، لكن الطاووس لم يهتم بها، بل إنه لم يلتفت نحوها. مشت الأنثى فوق السجادة الملونة، ونقرت الحبّ الذي في الطبق، وشربت من آنية الماء، ثم نزلت إلى الفناء واختلطت مع الدجاج وطيور الحبش. راقب فانو الطاووسين طيلة نصف عام باهتمام، فاقتنع بأن الطاووس لا يهتم أبداً بهذه الأنثى، فسافر مجدداً إلى الوادي كي يعيدها إلى صاحبها السابق، الذي قبل، بعد تردد كبير، أن يستردها لكنه لم يعد له سوى نصف النقود التي دفعها. فانو لم يكن يفكّر بالنقود – الأمر الوحيد الذي كان يقلقه هو خوفه من أن يكون قصّر في شكر منقذ حفيده، فقد كان على يقين من أن الفضل في بقاء تيغران حياً يعود إلى الطاووس. أما الطاووس فكان يردّ على رعاية فانو بلا مبالاة مطلقة، ولا يهتم بأحد غير تيغران، كان في العادة هادئاً، وغير مبال، لكنه كان يذهب أحياناً إلى حافة الهاوية، ويصرخ في اتجاه الأعلى بنداء مشتاق يمزّق الروح، وكأنه يطلب العودة إلى هناك، إلى المكان الذي طرد منه بلا ذنب، ثم يعود، حين ييأس من إيصال صوته للسماء، إلى البيت، وهو يكنس بريشه الأبيض كالثلج غبار الطريق، فينحشر في الزاوية، ويمكث هناك وقتاً طويلاً.

وعلى عكس فانو، كان تيغران، الذي ألف منذ طفولته الطاووس الأبيض، يعدّ وجوده في شرفة بيته أمراً طبيعياً، ويتعامل معه تعامله مع كل الطيور الداجنة في الفناء، لكنه تساءل ذات يوم عن سبب مبيت الطاووس على الشرفة، مع أن طيور الدجاج والحبش تنام كلها في القنّ.

– كيلا يضايق ريش الطاووس الطويل الطيور – أجاب فانو.

– حسناً، ليكن ذلك، – وافقه تيغران بسهولة، فقد كان تيغران يصدق ما يقوله جده وجدته من دون نقاش، وقد كبر صبياً متعاطفاً، محباً للعمل، ومحباً جداً للمعرفة، يذهب إلى المدرسة برغبة شديدة، حيث كان التلميذ الوحيد – الأولاد الآخرون الذين ولدوا بعد المجاعة كانوا في بداية تعلّمهم الكلام حين دخل الصف الأول. كان يذهب إلى المدرسة مرتين في الأسبوع، يدرس بحماسة، صحيح أنه لم يطل نجوم السماء، لكنه كان يقرأ كثيراً، لذا تعلقت به أناتوليا، التي تسلمت إدارة المكتبة في تلك الأثناء، وسمحت له بإبقاء الكتب في البيت فترة أطول من الوقت المقرر. أما في المزرعة فكان حاضراً دائماً للمساعدة – يساعد الجد تارة في حراثة الحقل، وتارة ينقل الماء، أو يذهب إلى الجارة في مهمة يكلّف بها، وأحياناً يطحن بلمح البصر بالمطحنة اليدوية، القمح الذي كان على الجدة أن تضيّع نصف يوم من العمل في طحنه.

صار تيغران في الرابعة عشرة من عمره فتى فهيماً محباً للعمل، راضياً تماماً عن حياته. الشيء الوحيد الذي كان يعاني منه هو العزلة. لم يكن هناك من يصادقه، فالرجل الفتي الوحيد في ماران هو أخو الحداد فاسيلي الذي بلغ الثانية والعشرين من العمر آنذاك، لكنه، بسبب معاناته لمشاكل صحية، لم يكن يلتقي بأحد تقريباً. أما معاشرة الأولاد الذين لم يتجاوزوا السابعة، فكانت مضجرة وغير مرغوبة لتيغران الفتى الذي نما شعر شاربيه، واخشوشن صوته، لذا، حين أنهى الصف الثامن، استجاب جده وجدته لاقتراح مديرة المدرسة وأناتوليا، وأرسلاه إلى الوادي – لمواصلة تعليمه. كانت عملية فصله عنهما أشبه بطعنة خنجر، فقد عانى فانو بعد ذلك فترة طويلة من الأرق، أما فالينكا فأصيبت بصدمة عصبية، انتهت، لحسن الحظ، دون أن تخلّف آثاراً واضحة، بكت أسبوعاً، ثم نهضت هرمة شديدة النحول، لكنها حية. أقام تيغران في بيت إحدى القريبات البعيدات للمديرة، وكان

جدّاه يسددان كلفة الإقامة مواداً غذائية – في كل أسبوع تملأ فالينكا سلتين وترسلهما في عربة البريد إلى الوادي. إحداهما مملوءة بالأطعمة – جبن، وسمن، ولحم مملح، وعسل، وفواكه مجففة، وموالح، وربطة كبيرة من الخبز المرقوق. وفي الأخرى – ملابس تيغران مغسولة ومكوية بعناية (كانت العربة العائدة من الوادي تحمل لها ملابسه المحتاجة إلى تنظيف). وكان تيغران يزور العجوزين مرتين في العام – مرة في أعياد الميلاد، ومرة في العطلة الصيفية. في نهاية الدراسة في المدرسة طالت قامته بسرعة، وظهرت عليه علائم الرجولة، يهدر صوته (الباص) الحنون من مكان قرب السقف طالباً من الجد والجدة عدم القيام بأعمال المزرعة فهو من يقوم بريّ الأرض، وجني المحصول، وإصلاح السقف، وتقطيع الحطب عند اقتراب الخريف، ولا يتقاعس عن ترتيب الحطب بحيث تكون القطع الجافة المتبقية من العام الماضي في الأعلى، أما القطع الطرية الرطبة فينضدها في الأسفل.

انتسب بعد المدرسة إلى الأكاديمية العسكرية، وفي الخامسة والعشرين من عمره، بلغ في ترقياته المسلكية منصباً كبيراً وشرع يستعد للزواج، غير أن الوقت لم يسعفه، فقد بدأت الحرب. وقع الفوج الذي كان يقوده في الحصار، واختفت أخباره تماماً ثمانية أعوام طويلة. أتلفت فالينكا عينيها من كثرة البكاء، وكانت تصلي كل يوم، بل كل ساعة على عتبة الكنيسة الصغيرة. أما فانو فمرضت عروقه مرضاً شديداً، وعانت ساقاه ألماً صار يشعر معه بأنهما تلتهبان ناراً، لكن الرجل العجوز صبر وكتم ما يعانيه. وأما الطاووس الذي كبر في السن بمرور الوقت، فكان، على غير المتوقع، نشيطاً، صحيح الجسم، وقد منح هذا فانو القوة – جعله يعتقد أن حفيده حيّ بالتأكيد، ولا مجال لافتراض غير ذلك. وحين اقتضى الأمر نزع الأرضية الخشبية للشرفة لإشعال نار الموقد، أدخلت فالينكا الطاووس إلى المنزل. دخل الطاووس إلى المنزل دون اعتراض وأقام في المطبخ حيث كان ريشه يتطاير وهو يتأمل في المساءات ما يرسمه حطب الموقد المشتعل من أشكال على الجدار. راح فانو يجمع الريش المتطاير ويضعه بحرص في وجه وسادة. وحاكت فالينكا كنزات وطاقيات ترسلها إلى الجبهة في طرود دون عنوان، يضع فانو في كل طرد منها تمثالاً صغيراً للسيدة العذراء وريشة من ريشات الطاووس. كانت الطرود من دون عنوان، لذا كانت تذهب دون عودة، أما الطرود التي كانت ترسل من الدور الأخرى في ماران فكانت تعود إلى مرسليها بدلاً من وثائق النعوة.

يتذكر فانو ربيع ذلك العام الذي انتهت فيه الحرب تماماً كما يذكر يوم ميلاد تيغران – بكل تفاصيله، حتى الصغيرة منها. عشية ذلك اليوم، ومن دون سبب واضح، راح فانو يحسب ما مضى من الزمن، فاكتشف أن ثلاثة وثلاثين عاماً بالتمام قد انقضت منذ اليوم الذي ظهر فيه الطاووس في بيته. وفي صباح اليوم التالي استيقظ، هو وفالينكا على صياح الطائر الذي وصل بمعجزة ما إلى باب البيت – في الشتاء الأخير لم يكن يتجوّل أبداً، بل إنه لم يكن يحرّك رأسه إلا بصعوبة، – كان الطاووس يحاول أن يفتح الباب بمنقاره، ويصيح طالباً المساعدة.

حمله فانو على ذراعيه ومضى به إلى الشرفة في اللحظة التي انفتحت فيها بوابة المنزل ودخل منها إلى الفناء حفيده نحيلاً تغطي وجهه آثار الجراح، لكنه كان حياً. مات الطاووس في ذلك المساء على ذراعي تيغران الذي كان يروي لجده وجدته كيف وقع في الحصار، وكيف استطاع أن يهرب من الأسر بأعجوبة، وظل طول هذا الزمن يقاتل مع المقاومين في الغابات، وحين أصبت في ساقي اضطروا إلى إحراق جزء من ردفي دون تخدير، كيلا تنتقل العدوى إلى بقية جسدي. وتشكلت نتيجة ذلك هذه الندبة العميقة، القبيحة التي تقيد حركة الساق ولا تسمح لي بمدها بشكل كامل. أحس فانو، في أثناء حديث حفيده، إحساساً واضحاً بأنفاس السماء التي انحدرت من أعالي الجبال، ففتحت النوافذ، ودخلت البيت، دست كفيها في السرير، وحملت فيهما روح قيصر الطيور المتلألئة، ثم اندفعت صاعدة، تاركة خلفها نفحة خفيفة من رائحة القرفة واللوز، وشيئاً ما لا يمكن الإمساك به أو الوصول

إليه، لكنه جميل جمالاً لا حدود له.

دفنوا الطاووس على حافة الهاوية، وأوصى تيغران فاسيلي بصنع حوض زهور واطئ خفيف وضعه فوق القبر وزرع فيه زهوراً جبلية بيضاء. سافر تيغران، الذي قرر البقاء حتى آخر أيام حياته في القرية، إلى الوادي، وتخلى عن وظيفته العسكرية وأوسمته، لكنه، نزولاً عند رغبة جده وجدته، غادر بعد عام إلى الجهة الشمالية من المنحدر، طلباً لحياة جديدة، حيث لا تطاله حرب جديدة. لقد كان الرجل الوحيد في موران الذي عاد حيّاً من الحرب، وآخر الشباب الذين غادروا قرية العجائز. كانت حياته صعبة في الشمال، لكنه لم يشك منها ولم ييأس. وجد عملاً، وبعد بعض الوقت تزوج من امرأة محلية، أم لطفلة عمرها سنة، ولها اسم منغّم جميل – ناستاسيا، كان فانو وفالينكا يلفظانه مقطعاً، مقطعاً – ناز – ستاس – يا. عرفاها، فقط عن طريق الصورة، – جميلة، بارزة الوجنتين، ممتلئة الشفتين، شعرها أشقر متموج، عيناها واسعتان، زرقاوان على الأرجح، وقد تكونان خضراوين. مضت ست سنوات على رحيل الحفيد الذي لم يزر ماران طوال هذا الوقت، لكنه أبهج الجد والجدة في نهايتها بخبر سار – في كانون الأول أنجبت له زوجته صبياً سمياه كيراكوس تيمناً باسم جده فانو.

من هناك، من وراء المنحدر الجبلي الملتف حول الوادي كحدوة فرس كبيرة، كانت ترد الجدّين الرسائل الواعدة بقرب مجيء الحفيد وأسرته لزيارتهما، وكانت فالينكا تلفّ المغلفات بأوراق المنثور العطرة الجافة وتحتفظ بها في درج الخزانة الصغيرة، ورغم أنها كانت تحفظ محتوياتها عن ظهر قلب، كانت تذهب في أحيان كثيرة إلى أناتوليا طالبة منها أن تقرأها لها مجدداً. أما فانو فكان يجلس تحت شجرة الكرز المعطر العجوز، ويقلّب في ذاكرته صور أهله الذين غيبتهم الأبدية، دون أن يحيد بصره عن قاع الجرف. في أيام الصحو كان الجرف يعوم في أشعة الشمس، ويتدثر في الشتاء بالثلج، أما في الأيام الغائمة فكان يبدو كئيباً يائساً وتفوح منه رائحة الحجر الرطب. كان بعض الضوء يلتمع أحياناً فوق قبر الطاووس، وكان فانو ينهض بصعوبة عن المقعد حين يرى ذلك النور، مقترباً من سور القبر متهيباً، يغطي عينيه براحتيه، ثم يزمهما ويتأمل قوام النور الفضي، ومروحة الريش المحدبة، والرأس المرفوعة باعتزاز يزينها تاج شفاف، وعيناها زائغتان تنظران إلى أعلى، نحو السماء الصامتة التي لا تجيب.

الفصل الثاني

مات فانو عشية عيد الصليب. تناول الغداء، وتمدد ليرتاح، أغفى ولم يستيقظ. بدا وكأن فالينكا كانت تعرف أن شيئاً ما سيحدث لزوجها، فهي لم تفارقه منذ الصباح الباكر – عملا معاً في الحقل، طافا معاً في الجوار – جمعا أوراق الحمّيضة لصنع فطيرة، ثم عرّجا على الساحة – لإلقاء التحية على أهل قريتهما ورؤية ما جاؤوا به للتبادل في السوق، وفي طريق العودة مرّا بدكان نيميتسانتس موكوتش – لأخذ الحذاء الذي أوصياه بصنعه لفانو.

الحذاء كان متقن الصنع، جلدياً، ذا نعل متين، قادر على تحمل قسوة ووعورة دروب القرية، وبلا ربّاطات، الأمر الذي يسهّل انتعاله كثيراً، فلا يكون من الضروري الانحناء الذي يحبس الأنفاس، وزمّ العينين الضعيفتين، ومعالجة الربّاطات بأصابع يصعب التحكم بحركتها. كان الحذاء واسعاً إلى حد ما، لكن هذا أبهج فانو الذي يشكو من عروق قدميه، التي كان أي تضييق عليها يسبب له ألماً لا يطاق، وهذا ما دفع فالينكا إلى أن تنسج له جوارب بلا مطّاط كي لا يضغط المطاط جلد بطتي ساقيه الحساس.

قاس فانو الحذاء ومشى به من زاوية إلى زاوية في المخزن، وتأمل انعكاس صورته في مرآة مهشمة تغطيها بقع الصدأ. تنهد بارتياح. وهمّ بمتابعة السير به، لكن فالينكا لم تتح له الفرصة لفعل ذلك.

– ستنتعله يوم العيد، – قالت لزوجها وهي تناوله حذاءه القديم. – فالعيد عيد لأن الناس يلبسون فيه كل جديد.

لم يعترض فانو، دفع ثمن الحذاء بصمت، وخرج، لكنه ترك بشكل استعراضي صرّة نبات الحمّيضة والحذاء على الطاولة في الدكان. هزّت فالينكا رأسها، وحملت هذه الأشياء، ثم ودعت موكوتش ومضت في إثر زوجها الذي مشى غير ملتفت إلى الوراء، عاقداً خلف ظهره راحتيه الكبيرتين الخشنتين من كثرة العمل.

– احمل صرة الحميضة على الأقل! – صاحت زوجته في إثره.

– لن أحملها، دمدم فانو دون أن يلتفت.

– ما الذي قلته فأغضبك؟ العيد بعد يومين، ألا تستطيع الصبر يومين؟

ظل فانو صامتاً. أسرعت فالينكا الخطو، حاذت زوجها، دست بين يديه العلبة التي حوت الحذاء، أخذها، لكنه لم يلتفت نحوها.

– لقد فسد طبعك تماماً في كبرك. صرت تزعل لأتفه الأمور، – قالت وهي تتنهد متحسرة.

– لا تفعلي إذن، هذه الأمور التافهة، كيلا أزعل.

– وما الذي قلته لك حتى تزعل؟

– لا شيء.

– إنه بالضبط، لا شيء. أنا أردت لك الأفضل. هل حدث في حياتي كلها أن نصحتك

بأمر سيئ؟

فتحت البوابة وتنحت مفسحة لزوجها الطريق ليتقدمها، لكنه تجاوزها بحركة استعراضية واتجه نحو الطرف البعيد للسور، حيث داس فوق شجيرات كرز بري كفت عن الإثمار منذ زمن، وتمددت على جنب جزء من وتد خشبي. عقدت فالينكا يديها على صدرها وزمت شفتيها الرقيقتين، وراحت تراقب كيف وقف مجانباً السور، رافعاً علبة الحذاء وصرة الحمّيضة فوق رأسه. دسّ جسده في الفتحة الضيقة في السور. طوحت يدها في الهواء ودخلت البيت – لتسخّن طعام الغداء. «سيأكل، فيصبح أكثر طلاقة في الكلام بعد أن تمتلئ معدته»، – هذا ما قالته في سرها.

علق بنطال فانو بفرع بارز من الوتد، سحب ساقه بقوة كي يحررها، وأطلق شتيمة حين سمع صوت تشقق قماش البنطال. حرر ساقه ونظر إلى بنطاله – القماش يتدلى ممزقاً، بائساً، معرياً نصف عضلة الساق. داس على قطعة القماش المتدلية، قطعها، وتركها على الحشيش.

– انقبري في هذا المكان! – دمدم غاضباً دون أن يتضح من المقصود بكلامه، أهو نفسه، أم قطعة القماش، ثم مضى عبر حديقة الفاكهة التي لها لون زهري رقيق مشوب بلون أبيض كالثلج.

وصل إلى الشرفة، فجلس على أعلى درجات السلم، لف سيجارة، أشعلها، شرع في التدخين، وبصق متوتراً نثار التبغ. فالينكا محقة طبعاً. لقد فسد طبعي بمرور السنين، لكن طبعها، هي أيضاً، ليس أفضل حالاً! إنها ملحاحة وعنيدة. كل ما تفعله هو انتقادي من الصباح حتى المساء: «أنت لم تعلق المنشفة في مكانها»، «لم تفتح النافذة جيداً»، «لم تدقق النظر!»، «لم تفكّر في الأمر». اليوم، على الإفطار في الصباح أكلت رأسي بالانتقاد لأن بعض الشاي اندلق من كأسي، زاعمة أنه كان عليّ أن أضع السكر في الكأس قبل صب الماء المغلي فيها، لو فعلت ذلك لما اندلق الماء ولما تطاير الماء حين تحريكه لتذويب السكر.

– لماذا جلست على الدرج؟ سيلفح الهواء ظهرك، ولن تستطيع الانحناء بعد ذلك! – قالت فالينكا التي مدّت رأسها من الباب، وكأنها كانت تسمع أفكاره.

– لعلّي أنا نفسي، أريد ذلك! – قال فانو بلهجة ساخطة.

– ما هذا «الذي تريده»؟

– أريد أن يلفح الهواء ظهري.

– فانو!

– ماذا تريدين؟

أرادت فالينكا، بحكم العادة، أن تنفجر غضباً، لكنها تمالكت نفسها.

– لا شيء. هيا إلى الغداء، الطعام ساخن.

تفاجأ فانو، الذي تهيأ لتلقي الموعظة المعتادة، وأصابته الحيرة، لكنه لم يظهر ذلك.

– حسناً، سأنهي سيجارتي وآتي.

تركت فالينكا الباب مفتوحاً بشكل موارب وعادت إلى الداخل، وتناهت إلى سمعه عبر نافذة المطبخ المفتوحة على مصراعيها أصوات تقحيطها قاع القدر وصبها لبقايا حساء البارحة في صحنين.

أما الطبق الرئيسي فسيكون بطاطا مسلوقة وقطعة من لحم الحبش، يلي ذلك كأس من منقوع المشمش – لقد بقي لديها في القبو – قطرميزان من هذا الشراب، أرادت الاحتفاظ بهما ليوم العيد، لكنها عدلت عن ذلك فيما بعد، وفتحت أحدهما، كي تدخل السرور إلى قلب زوجها. كانت فصوص المشمش أحب الحلويات عنده، وكان يأكلها وكأنه طفل وقعت في يده حلويات ممنوعة، – كان يغص بسبب سرعته في أكلها، ويلعق أصابعه، وتدور حدقتاه في محجريهما من فرط السرور.

بعد الغداء، تمدد فانو، كعادته، ليرتاح، أما فالينكا فشرعت في تعبئة اللحف الصوفية في الملاحف، وهذا أمر يتطلب منها العمل على أرض الغرفة، لئلا يتحول الصوف المحشو في اللحف بشكل مستوٍ، إلى كتل غير منظمة. جلست مائلة على جنبها، وراحت تزحف بمحاذاة حرف اللحاف تخيطه بقطَب كبيرة في خطوط مستقيمة حتى منتصفه حيث ترسم بالقَطَب قرص الشمس – هكذا كانت تفعل أمها كاتينكا التي اشتهرت في المنطقة كلها بيديها الذهبيتين وحبها للتطريز، لقد علّمت كاتينكا بنتيها فن الحياكة والتطريز وحب النظافة، لذا كانتا عروسين مرموقتين أكثر من سائر بنات ماران. (البنت الكبرى ساروي، كانت تقيم على طرف الوادي تماماً في بيت لا بناء بعده سوى بناء كنيسة القديس غريغوري لوسافوريتش، وكانت فالينكا تزورها في كل سبت وهي عائدة من القداس، ساروي لم تكن تذهب إلى الكنيسة إلا نادراً – تنشغل برعاية حميها الذي أقعده مرض عضال، وكان يشكو من ضيق في التنفس؛ فتأخذ فالينكا أعمال المنزل على عاتقها طوال اليوم – تحضر الطعام، وتنظف البيت، وتهتم بالأطفال، وتجلس قرب سرير حمي أختها حين تنتابه نوبات السعال، متيحة لأختها الفرصة كي تنام قليلاً وتنال قسطاً من الراحة. وكانت، في كثير من الأحيان، تأخذ أولاد أختها إلى بيتها، وحينذاك تشاركها في رعايتهم أمها التي انتقلت بعد زواج فالينكا لتعيش معها. لقد جرف الزلزال معه أسرة ساروي كلها بما في ذلك زوجها وحموها وأطفالها الثلاثة – البنت والصبيّان، وكانت روح فالينكا تجمد في كل مرة تتذكر فيها كيف هامت أمها على حافة الهاوية حزينة حزناً لا يطاق فاقدة صوابها، تنادي ابنتها وأحفادها الذين طواهم الموت، وصارت، منذ ذلك اليوم المشؤوم، تستيقظ صباحاً بوجه تغطيه الدموع، وتظل تبكي طوال اليوم – تحضر الطعام من دون شهقات بكاء أو نواح، وتغسل، وتنظف البيت، وتذهب لشراء بعض الحاجات، كل ذلك والدموع من عينيها تنهمر، وتنهمر. وكانت فالينكا تلف لها ذراعيها بالمناديل كي تمسح بها وجهها، وتبدلها كل ساعة وقد تبللت تماماً، فتلف محلها مناديل جافة. وهكذا رحلت كاتينكا في حزن لا نهاية له على ابنتها الشقية، في جو ماطر، في ذروة هطل مطري غزير استمر سبعة أيام دون توقف إلا فترة قصيرة مكنت أهل القرية من الوصول إلى المقبرة ودفن التابوت الذي ضم جثمان المرحومة.

كانت فالينكا، مرة، في كل عامين أو ثلاثة أعوام، تغسل اللحف الصوفية، وتطرّز حتماً في كل لحاف قرص شمس تخليداً لذكرى أمها، وأختها، وإخوتها، والأطفال الذين انزلقوا، انزلاق الرمل من بين أصابع اليد، في الموت، في طرف الكون المغلق بسبعة أقفال ضخمة، على كل منها ختم أصغر من ثقب الإبرة، وأثقل من جبل كامل – بحيث لا يرى المرء الختم فيفتح الباب ولا يستطيع إزاحة الجبل من أمامه فيدخله.

الشق الذي يكاد لا يلحظ في جدار غرفة نوم الزوجين، الذي نشأ في يوم الزلزال، صار ينمو بمرور الزمن صعوداً نحو السقف، وحين وصل إلى أعلى نقطة في الجدار راح يتسع عرضاً، يحتل المكان الضيق في الحجر نقطة بعد أخرى، فيتسلل عبره في النهار شعاع وحيد من ضوء الشمس، أما في الليل فيتسلل من خلاله القمر الشاحب. دعّم فانو هذا الجانب من المنزل بأعمدة من جذوع الأشجار وأغلق الشق بملاط البناء، غير أن البيت بدا وكأنه يمشي ويتنفس، فتصرّ بواباته ونوافذه الخشبية، لذا لم يثبت الملاط جيداً، وصار يتفتت بمرور الزمن معرياً من جديد جرح الجدار المتهرئ.

توترت أعصاب فانو، وعاد ثانية فسدّ الشق بالإسمنت، لكن ذلك لم يجدِ – فبعد عام أو عامين، تفتت الإسمنت واكتست أجزاء الشق تدريجياً بغطاء من العشب نما، رغم كل المعوقات، من قلب الحجر. وإلى الحين الذي فقد فانو فيه صبره، وقرر أن يسدّ الشق مرة ثالثة، ألقت العناكب شباكها التي لا وزن لها فوق الأعشاب، وظهر على الأرض الخشبية المدهونة بالأزرق، درب ضيق مسنن بهت لونه محترقاً بحرّ الشمس العنيد.

– الحياة في كل مكان، – قالت فالينكا في سرها مندهشة وهي تتأمل الحشرات الجافة العالقة في شباك العنكبوت وسيقان الأعشاب الضعيفة التي تشق طريقها إلى الداخل، الموت في كل مكان – والحياة أيضاً.

آخر مرة أصلحوا فيها الجدار كانت في الصيف ما قبل الماضي، لكن مواد الإصلاح تفككت ونمت الأعشاب في الشق في خلال العامين الماضيين، فراح فانو يستعد للشروع من جديد في أعمال الإصلاح، إنما ليس الآن، بل في الخريف، حين تنخفض حرارة الجو. وكانت فالينكا تستعد لاستقبال أعمال الإصلاح الجديدة واجفة القلب – الأعمال تبدو محدودة، لكنها ستنشغل بها يوماً كاملاً، وستستغرق أعمال التنظيف بعدها أسبوعاً. لقد كانت مستعدة لإغلاق باب غرفة النوم، تاركة الغرفة كلها للشق، والانتقال إلى غرفة الضيوف، لكن زوجها كان ضد ذلك. «الزلزال نفسه لم يستطع زحزحتي من مكاني، فكيف سيستطيع هذا الشق ذلك؟» – قال غاضباً وهو يشير برأسه إلى الشرخ في الجدار. كانت فالينكا تناقشه أحياناً، لكنها استسلمت في النهاية – فليكن، ما دام لم يضجر من مقارعة الشق كل هذه الأعوام. إن لدى كل إنسان فهمه الخاص للحياة، وحربه الخاصة.

أنهت خياطة الملاحف وحملت اللحف إلى الفناء، علّقتها على حبل الغسيل – ستتشرب في النهار الدفء والهواء، وسيكون من الضروري أن تعطرها في المساء وتضعها في صندوق البياضات حتى حلول موسم البرد. ثم أخرجت من القبو لبناً وخبزاً وجبناً – لوجبة ما قبل الغداء، ومضت لتوقظ زوجها. اجتازت المسافة إلى غرفة النوم – الممر القصير، وغرفتين، وغرفة الضيوف المفروشة بأثاث عتيق، إنها غرفة، لا يدخلونها سوى مرتين في العام، مرة في عيد الميلاد، ومرة في عيد الفصح، فهذان هما العيدان الوحيدان اللذان يجيء فيهما ضيوف يجب أن تُمدّ لهم مائدة كبيرة، – اجتازت هذه المسافة كلها دون أن ترتعش روحها أو تستشعر أي مكروه.

حين فتحت فالينكا الباب أدركت على الفور ما حدث، تقدمت بضع خطوات دون وعي، ثم توقفت عاجزة لا تقوى على تحويل بصرها عن زوجها – كان فانو راقداً بلا حياة، رادّاً رأسه إلى الخلف وقد علقت يده اليسرى بنوابض مسند الديوانة، وتكوّم اللحاف عند قدميه، والغرفة، بغض النظر عن ميلان الشمس نحو الجهة المعاكسة، مغمورة بنور يعشى له البصر، ينهمر من الشق الذي في الجدار سيلاً جباراً لا ينتهي، باهراً، لا يمكن صده، ينعكس في عيني زوجها بريقاً زجاجياً.

– فانو – جان! – نادته فالينكا همساً.

حين كانت عربة الإسعاف تثير خوف الماشية في الجوار بعويل بوقها، وهي تندفع مسرعة في درب القرية المتعرج الوعر، كانت فالينكا تغطي المرايا في البيت بالشراشف، وتعطّر البيت بالبخور. وقد قامت، قبل وصول الطبيب، بتنظيف الفناء ورشّه بالماء، أما طيور الدجاج والحبش فحبستها في القنّ، كي لا تثير الأعصاب بمنظرها اللامبالي، غير المناسب. بعد ذلك كله جلست فالينكا عند رأس فانو، صامتة، صارمة، متشحة بالسواد من الرأس حتى القدم، واضعة يديها على ركبتيها، وهي تتأمل الشق الذي في الجدار.

– ترى، من الذي سيصلحه الآن؟ – قالت تسأل الفراغ.

ألقى الطبيب وهو رجل نحيل نحولاً غير معقول، محدب الأنف، متورّم العينين من قلة النوم، نظرة عابرة إلى الشق الذي بلغ عرضه نحو ثلاثة سنتيمترات، وامتد متلوّياً من الأرض حتى السقف. هزّ كتفيه هزة لا تعبر عن معنى واضح، وظل صامتاً. لكنه، مع ذلك، ما لبث أن سأل مستفسراً:

– قذيفة؟

– الزلزال.

لم يسأل الطبيب كيف أمكنهم العيش نصف قرن مع هذا الشرخ. كتب شهادة الوفاة وغادر عائداً إلى الوادي، يلاحقه ضجيج الطيور الداجنة الذي بدا رداً على عويل البوق النفاذ لسيارة الإسعاف.

دفنت فالينكا زوجها ببزته التويد القديمة وحذائه المستعمل، أما الحذاء الجديد، الذي لم يستعمله، فقررت إعادته إلى نيميتسانتس موكوتش.

فيما بعد، سارت الأمور في اتجاه غير متوقع. في الليل بعد الدفن رأت فالينكا فانو في المنام – عابساً، يرتدي بزة وجوارب ولا ينتعل حذاء، وهو ينظر إليها لائماً:

– ومع ذلك ضننت عليّ بالحذاء الجديد!

استيقظت فالينكا تتصبب عرقاً بارداً، وظلت وقتاً طويلاً تتقلب في الفراش من جنب إلى جنب. هرعت في الصباح إلى الكنيسة الصغيرة فأشعلت شمعة لراحة زوجها. بعد ذلك مرّت على دكان موكوتش لتسأله إن كان باستطاعتها أن ترجع الحذاء، فقيل لها إنها تستطيع فعل ذلك.

في الليل رأت فانو في المنام مرة ثانية. كان في هذه المرة عارياً تماماً، غارقاً حتى ركبتيه في مستنقع، – صامتاً، مستاء.

– لماذا تلومني؟ – قالت فالينكا بلهجة حزينة. – قالوا لي أني أستطيع إرجاع الحذاء. وأنا ليس عندي نقود فائضة أبددها!

استدار فانو ومشى يعرج في المستنقع، منقّلاً ساقيه النحيلتين المعروقتين بصعوبة.

أحست فالينكا بقلبها يتمزق.

– اصبر قليلاً، سيموت أحدهم فأرسل إليك الحذاء معه – قالت له فالينكا بصوت مرتفع.

أحنى فانو رأسه، دون أن يلتفت، لكنه أسرع في الخطو. تأملته فالينكا، فلاحظت أنه لم يعد يعرج.

انقضى شهر دون أن يموت أحد في ماران، ثم جاءت الفرصة أخيراً – توفيت حماة بيخلافانتس ماريام. لفّت فالينكا حذاء زوجها الجديد بمنشفة مطبخ نظيفة، وجاءتها طالبة منها أن تضعه في التابوت مع الميتة.

– وكيف أضعه هناك؟ – قالت ماريام باسطة يديها في قلق – أنت تعرفين كم هي ضخمة، – تلعثمت برهة وتلفتت حولها، ثم تابعت كلامها همساً:– لقد اضطررنا إلى التوصية على أعرض التوابيت كي نستطيع وضع المتوفاة فيه.

بكت فالينكا، وحدثتها كيف منعت فانو من انتعال الحذاء الجديد، وكيف وجدته راقداً على

الكنبة ويده عالقة بنوابض مسندها، وكيف مشى عارياً في المستنقع بساقيه المريضتين اللتين ازرقت عروقهما. عضت ماريام على شفتيها، وتنهدت بحسرة، ثم أدخلت الحذاء.

– سأضعه في قدميّ حماتي. أظن أنه سيان عندها بأي حذاء ستجتاز عتبة العالم الآخر. وهذا ما كان.

الفصل الثالث

كان المغلف كبيراً ومدعوكاً جداً، وقد ألصقت عليه طوابع ملوّنة كثيرة. ساعي البريد – وهو رجل نحيل متغضن البشرة، يعتمر قبعة مهترئة ويرتدي بنطالاً تهدل قماشه واهترأ عند الركبتين – أخرج المغلف من الحقيبة المعلقة على كتفه وقرأ العنوان مرة جديدة، رغم أنه كان يحفظه عن ظهر قلب: قرية ماران، البيت الأخير على المنحدر الغربي لجبل مانيج – كار.

– أتمنى أن يكون بشير خير، تمتم. – هو لم يكن يرغب في الذهاب إلى هذا المكان البعيد حاملاً أخباراً سيئة.

– كل شيء بإرادة الله، – أجابه الأب عازاريا ببطء.

دس ساعي البريد المغلف في الحقيبة من جديد، وأغلق قفلها السّحاب بإحكام؛ ولعق شفتيه.

– أبتِ عازاريا، هل أستطيع طرح سؤال آخر؟

– لا تفتح الحديث مجدداً يا ماميكون! – قاطعه القس متوتراً، وغطى براحة يده الصليب الثقيل المعلق في عنقه، كي لا يتأرجح في أثناء سيره، ثم أسرع الخطا.

تأمل ماميكون كيف يمشي الأب عازاريا في الطريق الجبلية المحفّرة وأكمام جبته الفضفاضة وأطراف ذيلها ترفرف في الهواء الأغبر الجاف. كان اليوم حارّاً، فاحت فيه رائحة الحجر المحمى، والعشب المقصوص حديثاً، وأوراق الشجيرات البرية الجافة. وفي الوادي حام سرب من طيور السنونو الريفية يائساً، ثم اندفع عالياً، دار فوق الرؤوس وانطلق نحو الشرق – لملاقاة الشمس.

طاف ماميكون في المكان، استنشق الهواء ملء صدره، ثم زفره ببطء. صحّح وضع حمّالة الحقيبة على كتفه، نزع قبعته عن رأسه، ونفضها بعناية، ثم حزم بنطاله على خصره جيداً، فعل كل ذلك وعيناه تلاحقان قفا القس المبتعد.

لقد بدا وكأن الأب عازاريا شعر بنظر ماميكون يلاحقه، فراح يمشي بخطى واسعة، لكن من دون أن يسرع، ومن دون أن يلتفت. غير أنه حين بلغ آخر الطريق – كانت الطريق بعد ذلك تنعطف نحو اليمين وتختفي خلف النتوء الصخري، – توقف ونظر إلى الخلف من دون رغبة.

– هل ستذهب أم لا؟

– سأذهب طبعاً، لا مفرّ من ذلك يا محترم! – قال ماميكون، راضياً عن نفسه لأنه أرغم مخاطبه على الكلام، ثم انطلق فوراً.

– إنه عنيد كالحمار، – قال الأب عازاريا وقد نفد صبره.

– لا يخلو الأمر من ذلك، أجاب ساعي البريد برزانة.

دار الحديث بين الأب عازاريا وبينه طبيعياً منذ انطلاقهما من سفح مانيج – كار، إلى أن حلّت لحظة أبدى فيها ماميكون شكه بصواب القول بضرورة أن تدير خدّك الأيمن إذا صفعت على خدك الأيسر. عند ذاك أحس القس في أعماق روحه بالإهانة من قلة احترام ماميكون له، فانطلق يلقي موعظة كاملة محاولاً إفهام محاوره عدم وجود أساس لشكه. استمع ماميكون باهتمام إلى محاضرة الأب عازاريا، ثم طقطق بلسانه، ردّ طاقيته إلى مؤخرة رأسه، وحكّ جبينه ثم صاح:

– لكن، يا أبت عازاريا، تصور الآن لو أن الذي قال «إذا ضربك أحدهم على خدك الأيمن، فأدر له الأيسر»، لم يكن يسوع، بل أحد الإقطاعيين لخادمه الصموت المسلوب الحقوق، أكان هذا القول سيستدعي عند الخادم شيئاً سوى المزيد من الحقد؟

– ماذا تعني بكل هذا الكلام؟

أعني أن معنى الكلمات يجب ألا يتغير بحسب الشخص الذي يقولها وإلاّ فما فائدتها؟

همّ الأب عازاريا بالاعتراض، لكنه كفّ عن ذلك. إنه يعرف ماميكون معرفة جيدة جداً. إنه عنيد لا يتزحزح من مكانه حين يقرر أمراً، لذا من الأفضل عدم محاولة ذلك. قطعاً بقية الرحلة لا يتبادلان غير عبارات لا أهمية لها. وكان الأب عازاريا يقطع كل محاولة للعودة إلى النقاش الثيولوجي في مهدها.

وقف ماميكون، قبل أن يصل إلى مكان وقوف القس ببضع خطوات، وأحنى رأسه الجاف ذا الأنف الكبير مازحاً.

– طيب، وماذا تقول عن الأحكام التي لا معنى لها؟ – سأله بإلحاح.

– لقد عشت زنديقاً وستموت زنديقاً، أجابه الأب عازاريا بحدة.

– يا أبت المحترم، ليتك تشرح لي الأمر، بدلاً من أن تشتمني.

– وما جدوى الشرح لك؟ أنا أعرف أنك ستبقى عند رأيك.

– هذا صحيح.

أخرج الأب عازاريا من جيبه سبحة، وتابع السير وهو يطقطق بحباتها الملساء من كثرة الاستعمال، وتبعه ماميكون وهو يدندن تحت أنفه بصوت خفيض.

المسافة المتبقية من رحلتهما قصيرة، ليست أكثر من ثلاثة كيلومترات، لكنها تتجه صعوداً فوق المنحدر، فهناك على ذروة مانيج – كار بالضبط تنتظرهما قرية حجرية البناء، عجوز، غارقة في بساتين الفاكهة، إنها تنتظر الأب عازاريا لإقامة القداس، وماميكون – لإيصال الرسالة.

في يوم الأربعاء أفاقت الشمس قبل الديوك، وتساقط الندى في الصباح كثيفاً يخيل إليك أنك تستطيع أن تغرفه بيدك. إنه الصيف يحلّ في نهاية المطاف.

التابوت ليس طويلاً، لكنه عريض عرضاً غير متوقع، وهو موضوع فوق الطاولة كما يجب، قدما الجثمان موجهان نحو الباب، وقد جلست حوله بضع نساء مسنات، بكنزات سود مقفلة أزرارها عن آخرها، وشعور شائبة ملمومة في عقد صارمة.

لا أحد كان يبكي أو حتى يتظاهر بالحزن. فقط امرأة واحدة، حادة الأنف كانت تجلس عند طرف التابوت، شهقت باكية، ومخطت أنفها بصوت مدوّ في منديلها.

البقية وقفن صامتات، ثم انحنين محييات وتوزعن في زوايا المكان.

دار الأب عازاريا حول الطاولة ثم وقف على رأسها. ألقى نظرة على جثمان الميتة. كان واضحاً جداً أن التابوت ضيق، جسدها راقد فيه، وجنباها محشوران جداً بجنبيه، وكتفاها العريضان مرفوعان حتى الأذنين، أما وجهها فكان عابساً مستاء. وعلى بطنها الكبير المستدير استقرت يداها – كانت راحة يدها اليسرى تغطي اليمنى، وفي الإصبع البنصر التمع التماعاً ضعيفاً خاتم زواج قديم.

ومن تحت الثوب الحريري البنفسجي اللون الذي يغطي الجسد من الصدر حتى الكعبين، أطلّ أنف حذاء رجالي ضخم، قياس/45/ تخميناً.

اصطدم نظر الأب عازاريا بالحذاء فارتبك، لكنه حرص على إخفاء ارتباكه. فتح كتاب الصلوات، وتنهّد عميقاً، ثم شرع يتلو الصلاة، متتبعاً السطور لا يحيد عنها بصره، لكنه كان يعاني حرجاً فظيعاً وهو يخطئ في كل عبارة، ويتلعثم بغباء، ويكرر الكلمات دون مبرر. ولكي يركّز تفكيره قليلاً، تنحنح، وعبس، ومال بثقله عن ساق على أخرى، شدّ لحيته شدة مؤلمة أخطأ في تقدير قوتها، فغصّ بلعابه، وداهمته نوبة سعال.

جاؤوا بالماء. شرب، وزمّ عينيه بحرص كي لا تقعا على الحذاء البارز بغباء من تحت الثوب. لكن محاولاته لم تنجح، فقد تعلّق بصره من جديد بالحذاء، فور أن أعاد الكأس. اجتذبه الحذاء الضخم كالمغناطيس، وسلبه القدرة على تركيز أفكاره وتوجيهها نحو الدعاء والصلاة. أما العجائز فوقفن بمحاذاة الجدار مصالبات أيديهن على صدورهن، في انتظار صامت. لم تكن تتحرك بينهن غير ذات الأنف الحاد التي كانت تقدم لهذه الماء لتشرب، وتأخذ من تلك الشال فتطويه بعناية وتضعه على ظهر أريكة مهترئة تقف وحيدة في الزاوية.

«لا بد من الاستمرار بأي شكل من الأشكال»، – قال الأب عازاريا لنفسه يحضّها، وتنهد في صمت ثم فتح كتاب الأدعية والصلوات من جديد.

في الفناء جلس نفر من المسنين متجاورين على جذع شجرة، يدخنون ويتحادثون بصوت منخفض. وتحت شجرة جوز وارفة الأغصان رفرفت أطراف غطاء مائدة مدّت للمأتم. في الواقع، لم يكن على المائدة سوى الصحون وأواني البهارات، فالطعام سيمدّ مباشرة بعد الدفن. ستقف إحدى العجائز عند البوابة واضعة منشفة على كتفها، ودلواً مملوءاً بالماء إلى جانبها، وتقف منتظرة بصبر. وسيقترب منها كل عائد من المقبرة، ويفتح راحتيه على شكل إناء، فتملأ العجوز كأساً من ماء الدلو وتصبه على اليدين المفتوحتين غاسلة حزن المقابر العالق بهما.

يغسل الناس أيديهم، ثم يجففونها بالمنشفة المعلقة على كتفها، وفقط بعد ذلك، يدخلون إلى الفناء حيث تنتظرهم مائدة المأتم التي مدّت حسب الأصول.

استمر الأب عازاريا، رغم المعاناة، في صلوات الجنازة وتراتيلها حتى منتصف النهار، ثم دخل الرجال إلى المنزل لحمل التابوت. حملوه بصعوبة كبيرة، خمسة رجال مسنين، ساندهم ماميكون الذي وصل في الوقت المناسب، لكن فتحة باب المنزل لم تتسع لمرور التابوت بسبب عرضه غير الطبيعي، فاضطر الرجال عند إخراجه إلى إمالته على جنبه قليلاً، وتثبيت الجثة كيلا تؤدي إمالته إلى سقوطها منه لا قدّر الله. عند البوابة وقفت تنتظرهم عربة يجرها حمار صغير فترسل صريراً، إنها عربة موكوتش الخشبية التي يسافر فيها إلى الوادي مرتين في الأسبوع ليجلب البضائع لدكانه. وضعوا التابوت في العربة فشعروا بالارتياح، وتحرك الموكب صعوداً في طريق حجرية ضيقة نحو المقبرة القديمة التي غطتها النباتات البرية.

– تشو! تشو! – راح موكوتش يحض الحمار همساً بلهجة حزينة تناسب الحدث.

المرأة ذات الأنف الحاد بقيت في المنزل، وبقيت معها امرأة أخرى طويلة القامة، نحيلة جداً، عيناها زرقاوان زرقة يعشى لها البصر، وشعرها أشيب، هي ييبوغانتس فالينكا، حفيدة أونيك الذي حارب في الجيش القيصري، وصار بعد تسريحه من الجيش يكرر في حديثه كلمة «ييي بوغو» [10] ، وهذا ما جعلهم يطلقون عليه لقب «ييبوغانتس» وهكذا صار جميع أحفاده «ييبوغانتس». انهمكت

المرأتان في العمل بالمطبخ – قطّعتا الخبز الريفي ذا المذاق الحامض قطعاً كبيرة، ونضّدتا في أطباق كبيرة مسطحة شرائح اللحم المنزلي المدخن، واللحم البقري المسلوق، وباقات من النعنع والبقدونس والفجل، لكنهما لن تنقلا الطعام إلى الفناء، إلا قبيل عودة الناس من المقبرة، وذلك خشية أن يجففه الهواء، أو يحط عليه الذباب.

– حين رآها الأب عازاريا كاد ينسى كلمات الصلاة، – قالت ذات الأنف الحاد التي كانت تغسل أقراص الجبنة البيضاء الدسمة، وكتمت ضكة ساخرة.

– أما كان من الضروري أن ننبهه إلى أن الحذاء الذي تنتعله هو حذاء زوجي؟ – قالت فالينكا بصوت ممطوط وهي شاردة الذهن.

– ربما كان ذلك ضرورياً، لكن الأمر لم يخطر في بالنا في البداية، وبعد ذلك صار الأمر محرجاً.

وهكذا لم يعرف الأب عازاريا شيئاً عن سر الحذاء، ولذا فهو تخلى الآن عن كل محاولة لإضفاء تعابير اللامبالاة على وجهه، وراح يراقب متوتراً كيف يحاول ثلاثة من المسنين أن يثبتوا غطاء التابوت المجلل بقماش أحمر سخيف، مستعينين بكل ثقل أجسادهم. كان الغطاء يقاومهم، ينزلق عن التابوت، ولا يستقر في مكانه – كان الحذاء يعوقه تارة، وتارة يعوقه بطن المتوفاة الضخم. أما العجائز فكنّ يتأوهن بصوت منخفض، وتدور عيونهن في محاجرها خوفاً، لكنهن لم يحاولن التدخل وإسداء النصح – وبماذا ينصحن، ما دمن، هنّ أنفسهن، لا يعرفن ما الذي يجب فعله.

لقد بدا وكأن دهراً كاملاً قد انقضى في هذا العمل المربك، غير أنهم استطاعوا أخيراً تثبيت الغطاء بشكل ما، وأنزلوا التابوت في الحفرة وأهالوا فوقه التراب بسرعة ثم تراجعوا إلى الوراء.

أفاق الأب عازاريا من شروده وتمتم بأدعية الدفن، وراح المسنون يستمعون إليه مطرقين بأبصارهم. أحدهم داهمته نوبة سعال فتنحى كي لا يعيق عمل الكاهن، لكنه اضطر فيما بعد إلى الخروج من المكان لأن السعال لم يتوقف بحال من الأحوال. أنهى الأب عازاريا الصلاة، ولسبب ما بارك المشيعين راسماً شارة الصليب، ثم توجه إلى بوابة المقبرة.

أعادوه إلى القرية بالعربة التي نقلوا فيها التابوت نفسها.

سارت العربة بالأب عازاريا وهو متشبث بحافتها الخشنة. وكانت العربة تهتز بشدة على الرغم بطء سرعتها. لقد كان بمقدور الأب عازاريا طبعاً أن يطلب من موكوتش أن يتوقف، ثم ينزل من العربة ويتابع السير راجلاً، لكن ذلك سيكون إساءة قاتلة لموكوتش، ولذا صبر الأب عازاريا كازّاً على أسنانه، ناظراً بصرامة إلى أمام، وهو يعدّ منعطفات الطريق إلى بيت المتوفاة، إلا أنه التفت مرّة واحدة باحثاً عن ماميكون، وحين لمح القبعة المألوفة، شعر ببعض الاطمئنان. الساعة الآن الثانية بعد الظهر، لم يبق الكثير من الوقت، وما زال أمامهم مأدبة المأتم، ثم العودة إلى الوادي، هبوط عشرة كيلومترات على منحدر جبل مانيج – كار، ليس، طبعاً، كصعود المسافة نفسها على المنحدر نفسه. لكن الطريق، مع ذلك، طويل، ولن نصل قبل غروب الشمس.

الفصل الرابع

نهضت الشمس ببطء وكسل، وبدت كأنها تلعب لعبة القطط والفئران: يظهر منها طرف، وآخر تغطيه غيمة، لكنه ما يلبث أن يظهر. وأخيراً، شبعت لعباً، فاندفعت بحدة بعيداً عن طرف الأفق البعيد، ونهضت بكامل قوامها فملأت السماء وأشعلتها بأشعتها الملتهبة.

بحلول الصباح كانت فالينكا قد أنجزت كل أعمالها تقريباً: أطلقت سراح الطيور من القن، فاندفعت الطيور تتراكض بسرعة في أرجاء الفناء، تنبش وتوَقوِق، وتبحث تحت كل عشبة عن دودة مطرية قد تكون مختبئة خلفها، أو عن زيز صغير خانه الحظ، وحلبت الماشية وأرسلتها إلى المرعى مع القطيع، وسقت الحقل على عجل، ثم حملت ماء المطر من البرميل وسقت بعناية خاصة بعض الأحواض – لا سيما أحواض الخس والبقدونس والنعنع وما شابهها من أعشاب تتأذى من حرارة الطقس.

بعد أن أنهت فالينكا أعمالها في الفناء، دخلت إلى البيت لتعدّ الطعام، لكنها جمدت في العتبة قبل أن تغلق الباب، وألقت نظرة راضية على الفناء النظيف المرتّب. الحطب منضّد قطعة إلى جانب أخرى في مكانه، والغسيل الأبيض الذي غسل جيّداً وأضيفت إليه "النيلة" بمقدار مناسب، معلّق على الحبال بانتظام، يداعبه نسيم الصباح، والقدور النحاسية، التي حفّتها بالرمل، فراحت الآن تلتقط أنفاسها بعد الحفّ العنيف، جفت قرب السور الخشبي ولمعت لمعاناً يكاد ينافس ضوء الشمس.

المطبخ يلمع نظافة – الأرضية مغسولة بحرص ولن يجد المرء عليها، مهما بذل من جهد، أية ذرّة وسخ، أما الأطباق فمنضدة على رفوف الخزائن في مجموعات صغيرة متساوية الارتفاع، وقبضات الكؤوس موجهة إلى اليمين، كي يكون ممكناً أخذ كأس دون المساس بالكؤوس الأخرى، أو الإخلال بترتيبها.

أشعلت فالينكا موقد الحطب، ووضعت في قدر فوقه دجاجة منتوفة الريش ومنظفة منذ البارحة لتسلقها، ثم همت بالذهاب إلى القبو لجلب الدقيق – لقد حان الوقت لتحضير عجينة السيّالات. الرسالة التي جاء بها ماميكون اليوم حملت نبأ سعيداً – أخيراً. سيأتي تيغران، وهو لن يأتي وحده، بل ستأتي معه أسرته – زوجته، وابنته بالتبني، وابنه كيراكوس البالغ من العمر نصف عام، قد أطلقوا عليه في الشمال اسماً غريباً هو كيريل.

– كي – ريل، – راحت فالينكا تردد اسمه بنغمات مختلفة، مصغية إلى الرنة غير المألوفة لاسم ابن حفيدها، – كير – إيل.

كان المغلف في الشرفة – حين لم يجد ماميكون المرأة في البيت، ترك المغلف على أرض الشرفة، وثقّله بحجر كيلا تجرفه الريح.

– أردت أن آتيك به في الجنازة، لكنني خشيت ألا أجدك – فقد لا يجد أحدنا الآخر، لذا تركته عند العتبة، – قال وهو يبسط يديه معتذراً، حين التقى مع فالينكا في بيت بيخلفانتس ماريام.

– ألا تعرف ما المكتوب في الرسالة؟ – قاطعته تسأل بصبر نافد.

– وكيف لي أن أعرف، – قال مستاء، – أنا لا أقرأ رسائل الآخرين.

استغلت فالينكا دقيقة فراغ فانطلقت مسرعة بقدر ما يسمح به سنها المتقدم، إلى البيت كي تأخذ الرسالة. وجدت في المغلف، عدا ورقة دفتر مكتوبة بخط ناعم، ثلاث صور. تأملت طويلاً

وبقلب مرتجف صور ابن حفيدها (الكربوج) ذي البشرة المتوردة. ها هو ذا ينام في السرير الصغير، مديراً رأسه إلى جنب، ومخرجاً قبضتيه الصغيرتين من تحت اللحاف، – تمطقت فالينكا بلسانها مستاءة لأنهم لم يبقوه في (اللفّة)، يجب أن يظل الأطفال ملفوفين حتى الشهر الثامن، فهذا يريحهم في نومهم. وها هو ذا يرسم هنا ابتسامة محروفة بفمه الخالي من الأسنان – لم يكن عبثاً أنهم سموه كيراكوس، فجدّ جدّ جدّه كيراكوس كان قبل مئة عام يبتسم الابتسامة المحروفة نفسها بفم خال من الأسنان أيضاً. الصورة الثالثة ضمت العائلة كلها، وفيها يطوق تيغران، الذي بدا ممتلئ الجسم وقد شاب شعره بشكل ملحوظ، كتفي ابنته بالتبني ذات السبعة أعوام، وإلى جانبه تقف زوجته ضاحكة، تضم إلى صدرها الطفل الذي بدا مستاء. «إيه، – قالت فالينكا في سرها باعتزاز، وهي تتأمل وجه ابن حفيدها المنزعج، – إنه ما زال كالبعوضة، لكنه صاحب شخصية واضحة!»

لم تظهر أناتوليا في المأتم – هي لما تسترد عافيتها تماماً بعد المرض، لذا بقيت في البيت، فلجأت فالينكا إلى عاملة البرق ساتينيك، لكن هذه لم تستطع أن تقرأ سطراً واحداً من دون النظارات الخاصة بالقراءة. وهكذا اضطرت فالينكا إلى التسلح بالصبر والانتظار حتى انتهاء مراسم التأبين. لو كان الأمر في يدها لتركت كل شيء وهرعت إلى أناتوليا، لكن الخجل كان يمنعها من أن تترك ماريام وحيدة، وهي التي أنجدتها في مسألة إرسال الحذاء إلى العالم الآخر. جلست صابرة تنتظر أن يتفرق الناس إلى منازلهم، ساعدت بعد ذلك في تنظيف المائدة وجلي الأواني، ولم تصل إلى بيت أناتوليا إلا قبيل الغروب، حيث ستداهم ليلة جنوبية سوداء الوجه مانيج – كار، بعد وقت قصير.

وجدتها في الفناء تجلس مصالبة يديها على صدرها، تراقب كيف راح باترو يعالج عظمة كبيرة يملؤها نخاع دسم، مهمهماً وعيناه تدوران في محجريهما من فرط السعادة.

– بعضهم يجد السعادة في عظمة من قدر الحساء – قالت موجهة كلامها إلى الضيفة بدلاً من التحية.

– وبعضهم تكفيه رسالة من حفيده، – لوّحت فالينكا بالرسالة مبتهجة.

أخرجت أناتوليا الصور من المغلف ووضعتها جانباً – ستراها فيما بعد، يجب أن تعرف أوّلاً ماذا في الرسالة. مررت بصرها سريعاً على السطور – إنها تفعل ذلك دائماً في حال ورود أنباء غير متوقعة، وذلك كي تتهيأ وتنتقي الكلمات المناسبة لإبلاغ المرسل إليه. فالينكا وقفت تنتظر بنفاد صبر وهي تنقّل ثقل جسدها من ساق إلى أخرى.

– تيغران سيأتي! – قالت أناتوليا باسطة يديها بمرح. – سيأتي هو وأسرته!

شعرت فالينكا بانحباس في أنفاسها.

– م – متى سيأتي؟ – سألت بصوت متقطع.

– في الثالث من حزيران.

– وما تاريخ اليوم؟

رفعت أناتوليا عيناها إلى السماء محاولة أن تتذكر تاريخ اليوم، أو على الأقل، أن تتذكر أي يوم هو من أيام الأسبوع، لكنها صرفت النظر عن ذلك، وأسرعت إلى داخل المنزل. تبعتها فالينكا وهي تلوّح بالمغلف الفارغ.

– فاسو، يا فاسو، – نادت أناتوليا وهي تفتح باب الدار على مصراعيه.

– ها، ناتو – جان! – ردّ فاسيلي من مكان ما في عمق البيت.

خجلت أناتوليا من رقة ردّ زوجها، فنظرت بطرف عينها مرتبكة إلى فالينكا. لكن هذه الأخيرة التي تملكها الفرح بخبر مجيء حفيدها، لم تلحظ شيئاً، أو قد تكون تظاهرت بأنها لم تلحظ شيئاً.

– فاسو، – سألت أناتوليا، – ما تاريخ اليوم؟

– الأول من حزيران!

– الأول! – جمدت فالينكا وكأن صاعقة ضربتها، ثم أفاقت من جمودها، ضربت ركبتيها براحتيها، وهبطت على الدرج مسرعة. – ما معنى هذا؟ هل معناه أنهم سيصلون بعد غدٍ؟

– خذي الرسالة! – صاحت في إثرها أناتوليا.

– الرسالة! – استدارت فالينكا دون أن تتوقف.

وحين وصل فاسيلي إلى عتبة المدخل كان أثرها قد اختفى.

– وماذا حدث؟ – سأل أناتوليا.

– بعد غد سيصل ميليكانتس تيغران وعائلته.

– ها! – ابتهج فاسيلي في البداية، ثم تذكر ابنيه، فاكتأب. عيناه الكبيرتان، فقدتا في لحظة بريقهما الفضي – الرمادي، وارتجفت زوايا شفتيه ثم تهدلت.

حضنته أناتوليا، والتصقت بصدره. «اش – ش – ش – ش – ش – ش – ش».

أطلق زفرة طويلة، وربت على رأسها. «كل شيء على ما يرام، يا ناتو – جان. كل شيء على ما يرام».

بالقرب من سور الحديقة راح باترو السعيد يطمر العظمة التي لم ينته من نجفها، وهو يتعثر بقوائمه في غباء بسبب العجلة، ويهرّ هريراً مرعباً على أعداء غير مرئيين.

اضطرت للذهاب إلى القبو لإحضار الدقيق. كانت جدران المكان الحجرية التي تحتفظ بالبرودة حتى في أشد الأيام قيظاً، مغطاة بباقات من الأعشاب المجففة وعرانيس الذرة الحمراء، المعلقة عليها. وقد اصطفت القطرميزات الفارغة منتصبة على فوهاتها فوق الرفوف الخشبية – المؤونة التي أعدتها في العام الماضي نفدت، ولما يحن وقت تحضير المؤونة في هذا العام. ثمة على الرف الأعلى علبة كارتونية مملوءة حتى حافتها بأكياس بيضاء خشنة الملمس. وقفت فالينكا على رؤوس أصابعها ومدت يدها نحوها، التقطت كيساً، واقتربت من النافذة. تأملت تاريخ الصلاحية المدون عليه، وهي تكاد لا ترى في العتمة. فرحت، وحملت العلبة كلها وخرجت بها مسرعة إلى الفناء.

قبل ثلاثة أعوام فتح تيغران في مدينته الشمالية مخبزاً. وبعد بعض الوقت، وصلها منه عشية عيد الميلاد طرد ثقيل الوزن – ظل ماميكون نصف يوم يجره على الدرب إلى قمة مانيج – كار، وهو يشتم متذمراً. وصل أخيراً وقد نخر البرد عظامه، فازرق وجهه وتجمّد شارباه. صبت له فالينكا حساء الفاصولياء الساخن، ولكي تخفف من تذمره، قدمت له زجاجة من نبيذ التوت. أكل مع حساء الفاصولياء المطبوخ مع ربّ البندورة، نصف رغيف من الخبز المنزلي وشرب كأسين من النبيذ، ثم طلب منها شالاً من شعر الماعز، لفّ به رأسه حتى العينين وهمّ بالرحيل. غير أنه قبل أن يرحل ساعد فانو في فتح الطرد. في العلبة التي انطبعت عليها أختام خدمة البريد الشمالية التي لا تنمحي،

بعض علب اللحم المطبوخ، والسمك المعلب، والمرتديلا، وثلاث علب من الشاي الأسود، ورزمة كبيرة (خمسون قطعة) من الخميرة الجافة.

– ما هذا؟ سألت فالينكا وهي تقلب الكيس بيدها.

– براز، هذا براز، – قال ماميكون مستاء.

– هل تعني ما تقول؟

– إنه خميرة، كنّتي تضعها في العجين بدلاً من خميرتنا. العجين ينفش سريعاً بتأثيرها، ولكن الخبز يفقد طعمه، فكأنك تأكلين قطناً.

تمطّق باستياء، ودسّ أنفه في الشال الصوفي، ولوّح بيده مودعاً وخطا في العتمة دون خوف.

جمعت فالينكا الأواني عن الطاولة وغسلتها، ثم جلست تفكر قليلاً. لم تهمل الأمر، خلطت بعض الخميرة مع قطعة من العجين – على سبيل التجربة، خبزت بعض الرقائق على موقد الحطب. أخذت قطعة منها وأكلتها مع الجبن، ثم أكلت قطعة مع العسل، ثم مع الزبدة. وأخذ فانو قطعة جرّبها، فتقلصت قسماته.

– لن آكل من هذا!

وضعت فالينكا جاكيتها الصوفي السميك على كتفيها، ولفّت نصف رقاقة بمنديل وذهبت إلى جارتها.

– هراء، – قالت بلهجة قاسية وهي تبصق رقاقة الخبز.

– هراء فعلاً، – وافقتها فالينكا بحسرة.

لم تقو على رمي أكياس الخميرة التي أرسلها تيغران، لذا جمعت الأكياس المتبقية وقررت أن تتخلص منها فور انتهاء صلاحيتها.

في هذا اليوم، الذي تصادف فيه انتهاء صلاحيتها مع موعد وصول تيغران، حملت فالينكا بوقار الخميرة إلى الفناء. التمعت الأكياس الفضية – البيضاء التماعاً بهيجاً في ضوء الشمس. حرّكتها بيديها، وفكرت قليلاً، ثم ذهبت فأحضرت مقصاً، قصت فوهة كل كيس بعناية، وسكبت محتوياته في إناء أعدته لذلك. ألقت الخمائر في حفرة المرحاض، أما الأكياس فرتبتها في رزمة وحزمتها بخيط متين، واحتفظت بها في خزانة المطبخ العلوية؛ فقد تحتاجها يوماً.

وأخيراً، وبشعور من أدى واجبه، عادت لتكمل تحضير السيّالات. بللت العجينة بالماء، ورشتها بالملح والدقيق، ثم جعلتها على شكل رقائق بأشكال مختلفة وغطّستها بالزبدة المحماة حتى فاحت منها رائحة الجوز، وحملتها إلى القبو البارد – حتى صباح الغد. السيّالات يجب أن تؤكل ساخنة، لذا هي ستحضرها بعد وصول الضيوف الأحباء على قلبها.

المهم الآن متابعة الطبخة. الدجاجة نضجت. قامت فالينكا بتصفية مرق الدجاج الدسم، أضافت إليه الملح، غسلت القمح الممتاز المنقّى حبة، حبة، وأضافته إلى المرق، خلطت المزيج وتركته ينضج على نار هادئة، ثم جلست تخلّص لحم الدجاج من العظام.

على الرف الأعلى في خزانة الأواني صورة فانو. فالينكا صنعت لها بيديها إطاراً من غطاء

علبة حذائه الجديد تلك. الصورة مأخوذة له وهو في الحادية والأربعين، أي حين كان بعمر حفيده تيغران اليوم.

– فانو – جان، – رفعت بصرها نحو زوجها المبتسم – أنا لن ألطخ وجهك بالوحل، ولن ألحق باسمك العار. سأستقبلهم كما يجب – سأطعمهم طعاماً طيّباً، وسأفرش لهم أسرّة نظيفة، وسأكون ودودة وصبورة، فلا تقلق. ناز – ستاس – يا ستكون مسرورة.

الفصل الخامس

قبل أن تذوب النجوم في السماء، راحت النحلات المبكرات تئز بهمة وتطير لملاقاة النباتات وهي تستيقظ من نومها، والعصافير العاشقة تدندن وتغنّي في استقبال اليوم الجديد. كان العالم رائعاً وبلا هموم، كان يفرح ويغني وكأنه طفل استحمّ وشبع طعاماً، بعد نوم طويل. الهواء يرن بصوت رفيع رنان، الهواء ينسكب، ينساب جدولاً، الهواء يدور، يملأ المكان، يهسهس، يتنفس، تنتشر رائحته. انتشار الرائحة جعل أهل القرية بكامل عديدهم، ماعدا نيميتسانتس موكوتش الذي سافر إلى الوادي، والعجوز آنيس الذي داهمته في هذا اليوم بالذات نوبة من ألم المفاصل، يتوافدون إلى بيت يبيوغانتس فالينكا. جاءت حتى أناتوليا متأبطة ذراع فاسيلي. كان هذا أول ظهور لها بين الناس برفقة زوجها، لذا حرصت على أن تبقى في الظل، كي لا تجتذب نحوها اهتماماً زائداً، غير أن حرصها كان عبثاً – فاهتمام الجميع، على كل حال، لم يكن مشدوداً إليها، بل إلى فالينكا المذعورة التي لفّت رأسها بمنديل وراحت تدوس بلا هدف أطراف ما فاض من الحفرة في الليل وأغرق جزءاً من الفناء.

الفناء النظيف دائماً، المرتب بعناية، بدا الآن بمنظر بائس جداً، جعل كل قادم جديد يرتد، حين ينظر من البوابة، ويلعن الشيطان، أو يرفع نظره إلى السماء وكأنه يدعوها إلى التعاطف، ثم ينتحي جانباً.

– كيف أمكن أن يحدث ذلك؟ – هذا كان السؤال الدائر بين الناس القادمين.

– هذا ما نتمنى أن نعرفه! – كان جواب من سبقهم إلى المكان.

– إنها الخميرة، – صرخت فالينكا. كانت تقف في البوابة مواربة، نزعت منديلها، ومررت أصابعها بين خصلات شعرها، مسّدتها، ثم دفنت وجهها في راحتيها وأجهشت بالبكاء.

– أية خميرة؟ – تساءل الناس بقلق.

– الخميرة التي أرسلها لي تيغران قبل ثلاث سنوات. لم تكن خميرة صالحة، لذا رميتها في حفرة المرحاض. يبدو أن صلاحيتها لم تكن منتهية تماماً، أضف إلى ذلك أن الطقس حار، كل ذلك جعلها تنشط وتنتفش و... – قالت فالينكا وهي تغص بدموعها

ساد في المكان صمت يصم الآذان. وتبادل المارانيون النظرات ثم عادوا ينظرون إليها متوقعين، على ما يبدو، أن تواصل الحديث، فتقدم تفسيراً كافياً لما حدث. لكن فالينكا لم تقل شيئاً، بل ظلت تبكي باسطة يديها، موحية لهم أن ما قالته هو كل شيء، وما من شيء آخر يستوجب التفسير.

– ماذا قالت؟! – سأل بصوت كالصرير بيتينانتس سورين، العجوز الضعيف السمع، المشعر، ذو التسعين عاماً. – من كدّس كل هذا البراز في ليلة؟

ضحك أفانيس ضحكة مكتومة، فقهقه في إثره الرجال الآخرون. نقّل سورين نظراته المستفسرة بين أبناء قريته، ثم كفّ عن ذلك وضحك أيضاً.

– ساعدوني في التنظيف. اليوم سيصل حفيدي، لو جاء وحده لما اهتممت كل هذا الاهتمام، هو سيأتي ومعه أسرته! – قالت فالينكا متوسلة.

– أهاه، هل معنى ذلك أنه لو جاء وحده لما كانت هناك ضرورة للتنظيف؟

قال أفانيس ساخراً.

– ما بالك تسخر منها؟ – هاجمته ياسامان – النساء لم يشاركن الرجال مرحهم، بل صالبن أيديهن على صدورهن، وزممن شفاههن مستاءات، ووقفن في انتظار أن ينتهي أولئك من ضحكهم – لو جاء تيغران وحده، لقام، هو نفسه، بتنظيف الفناء. إنه ابن الريف... ولن يدهشه هذا المنظر. غير أن الأمر يختلف بالنسبة لزوجته ابنة الشمال!

– هراء. أتراهم يتغوّطون زهوراً في الشمال؟! هل هم يختلفون عنا؟! تمطقت ياسامان وابتعدت غاضبة. واستمر الرجال يمرحون بعض الوقت ويسخرون من فالينكا التي رمت الخميرة في حفرة المرحاض دون أن تفكر في العواقب، ثم شرعوا، بعد أن هدأ مرحهم، يتشاورون حول معالجة هذه المصيبة التي حلّت بالفناء.

بعد مناقشات لم تطل، تقرر فتح الجورة وطمر كل هذه النفايات فيها، ثم ردمها بالتراب، وتغطية فتحة المرحاض بألواح خشبية ثم إغلاقها تماماً بالإسمنت.

– وإلا فإن الروائح ستظل تنتشر حتى حلول الشتاء – هكذا ختم أفانيس كلامه.

– وأين سنذهب بحالنا؟ – سألت فالينكا.

أراد أفانيس أن يمازحها، غير أن نظرة زوجته الصارمة جعلته يغيّر رأيه.

– ستترددين مؤقتاً على مرحاض الجارة، وحين يأتي تيغران نبني مرحاضاً جديداً. هذا هو الحل الآن. من عنده إسمنت؟

وجدوا الإسمنت عند عاملة البرق ساتينيك. إسمنت قديم لكنه ما زال صالحاً. استغرقت أعمال التنظيف نصف نهار طويل. ولم يتفرق هؤلاء العجائز إلى بيوتهم مرهقين مترنحين إلا عند حلول المساء. فالينكا اقترحت عليهم أن يتناولوا العشاء عندها، لكنهم اعتذروا عن ذلك بتهذيب: اعذرينا يا جارتنا، علينا أن نستحم أولاً ونبدّل ملابسنا، أضف إلى ذلك أن المرء عموماً لا يفكر بالطعام بعد التعامل مع ال....

– لقد أردت استقبال حفيدي استقبالاً لائقاً، فإذا بهذا الأمر يحدث، – قالت وهي تنظر إلى الفناء الغارق في الفوضى، وتمسح دموعها.

– هذا ليس سيئاً، إنه، على العكس، بشير خير، – قال لها أفانيس الذي كان آخر المغادرين. – إن كل محنة تبعد عنا كارثة.

يجب أن تعدّي أن كل ما حدث دفع عنك بلاء أعظم منه.

وافقته فالينكا، لكن هذا لم يهدئ روعها. ودعت الجميع، ثم أشعلت الموقد، وحاولت، ريثما يسخن الماء، أن ترتّب الفناء قدر المستطاع – كنست الأرض، نفضت كيس الإسمنت الورقي وطوته – ستعيده فيما بعد إلى ساتينيك فقد تحتاجه لأمر ما، – ثم أعادت إلى المستودع دلو الماء الذي نقعوا فيه الرفوش الملطخة بالإسمنت. الرائحة الكريهة التي استنفرت القرية كلها منذ الصباح الباكر، بدأت تتبدد بالتدريج، ولم يبق سوى الرائحة الضبابية – العفنة للإسمنت الذي بدأ يبرد، لكن هذا الأمر لم يعد يقلق فالينكا، فهي، بعد أن انتهت من ترتيب المكان، استحمت بسرعة، فركت جسدها بقوة بكيس الحمام ذي الوبر الخشن. بعد الحمام جمعت الملابس التي قضت فيها النّهار، في صرة خبأتها في غرفتها – ستغسلها فيما بعد.

سرّحت شعرها، ضفرت خصلاته المبتلة في جديلتين ثبتتهما على نقرتها بملاقط شعر. ارتدت ثوباً نظيفاً، وعقدت على خصرها مريولاً حريرياً. النار في الموقد ترسل هسيساً رتيباً، ابتعدت

قليلاً عن الموقد الحار. خرجت إلى القبو لإحضار الهريسة [11] ، وضعتها فوق الموقد لتسخن، أما هي فخرجت إلى الشرفة، جلست على المقعد الذي كان موضوعاً بشكل يمنع الوصول إلى حيث كان يعيش الطاووس، وضعت يديها على ركبتيها وراحت تنتظر بصبر. وحين توقفت عربة نيميتسانتس موكوتش أمام بوابة بيتها كانت تنام بسلام بعد أن أرهقها اليوم المزدحم بالشغل والانتظار الطويل.

الفصل السادس

بدت القرية كما تخيلتها ناستاسيا تماماً من خلال أحاديث زوجها – أبنية حجرية مسقوفة بالقرميد تحيط بها أسوار عتيقة ملتوية، ولها مداخن لمواقد حطب تتعلق بأذيال السماء. في اليوم التالي لوصولها طافت فيها كلها في ساعة تقريباً. كيريوشا نائم وقد التف كعكة في اللفافة التي أعدّتها له فالينكا على وجه السرعة، من شال مقلّم كبير. أما أليسا فتجول بالقرب من أمها، تأتيها تارة بزهرة مخملية صفراء – ماما، شمي رائحتها، شمي كم هي مضحكة، وتارة تركض إلى الأمام ثم تقف تنتظر بنفاد صبر وهي تقفز على ساق واحدة، – انظري إلى هذا البيت، إنه مهدم تماماً، انظري، سقفه مثقوب، وبابه الخارجي مفتوح على مصراعيه، هيا بنا نذهب إليه، هيا!

– هيا بنا، – وافقت ناستاسيا، لكنها لم تدخل إلى المبنى – خشيت أن ينهار سقف أو جدار بشكل مفاجئ. وقفت في الفناء تتأمل باهتمام أسوار الشرفات التي نخرتها الزيزان – كان من الممكن لو دققت النظر، أن ترى أيضاً رسومات تزيينية بسيطة – كؤوساً، وصلباناً، وأقراصاً تمثل الشمس. واجهات المنازل مغطاة بأوراق أشجار الكرمة التي نمت من دون رعاية، والمزاليج المتنوعة التي نخرها الصدأ تصرّ بتثاقل، وهي تعيد الزوار غير المدعوّين، إلى الدرب الحجرية، الوعرة التي يصعب السير فيها، فتتنهد في إثرهم أشجار الفاكهة المحنية، المريضة، التي لم تثمر منذ زمن بعيد. في شرفة أحد المنازل المهجورة عُلّقت عدة صفوف من أوراق التبغ لتجف، يبدو أن أحد أبناء القرية كان يستخدم المنزل في بعض حاجاته، ماما، ما هذا؟ – سألت أليسا مديرة وجهها المنمش نحو أمها. إنه تبغ، – أجابتها الأم.

– ببال من خطرت فكرة صنع السيجارات من العشب! – تعجبت أليسا وهزت رأسها.

ضحكت ناستاسيا بحذر – وذلك كيلا توقظ الطفل النائم. صحيح أن فضول ابنتها كان يسلّيها، لكنه كان، في الوقت نفسه، يمنعها من تركيز أفكارها.

– ألن تزعلي إذا خرجت للنزهة من دونك في المرة القادمة؟ – سألتها.

– هل أزعجك؟ – سألت أليسا زامة شفتيها.

– لا. لكني أريد أن أفكر بتركيز، أتفهمين؟

– تريدين التفكير مجدداً؟

– نعم.

– طيّب. يمكنك أن تخرجي من دوني غداً. سأبقى مع بابا.

– شكراً لك يا ابنتي، – قالت ناستاسيا بتأثّر.

– تك – رمْ – عي – نك! – قالت أليسا ومضت تقفز إلى الأمام، تنطّ بمهارة من بلاطة في الشارع غسلتها الأمطار، إلى أخرى.

استقبلتهم فالينكا عند البوابة – كانت واقفة ترد الشمس عن عينيها براحة يدها. لقد دهشت ناستاسيا أكثر من مرة بجمالها الطبيعي – عينان زرقاوان زرقة يعشى لها البصر في وجه أسمر، وأنف طويل مستقيم، وشفتان رقيقتان مشدودتان بعناد. وفرحت لأن تيغران علّمها هي وأليسا، بعض التعابير بلغة أهل ماران، فلولا ذلك لما كان التواصل مع أم حماتها ممكناً.

– هل تعبتم؟ – سألت فالينكا وهي تأخذ من الكنة الطفل النائم.

– لا! – صاحت أليسا بصوت رنان، ومرقت بجانبها راكضة نحو تيغران الذي كان يعمل في مستودع الحطب، الذي قررت فالينكا أن تحوله إلى مرحاض.

– ما معنى أن تقوم ببناء مرحاض جديد؟ قالت وهي تطوح يدها في الهواء، حين اقترح عليها تيغران بناء مرحاض حجري. – أنا أعيش هنا وحيدة، حتى المستودع لم أستخدمه منذ زمن – انظر، الحطب منضد كله تحت المظلة، كي لا أضطر إلى جلبه من بعيد. احفر هنا، ببساطة، جورة في الزاوية وغطّها بألواح من الخشب، ثم ضع ستارة. هذا يكفينا.

– حين أنتهي من بناء المرحاض، سأصلح الجدار في غرفة النوم، – قال تيغران.

– لا تلمس الجدار. عبر هذا الشرخ طارت روح جدك. وقريباً سيجيئ دور روحي في الطيران إلى هناك.

– لعل هذا هو سبب صراعه مع هذا الشرخ طول العمر. فقد كان، على الأغلب، يعرف أن الأمور ستنتهي على هذا النحو، – أجاب تيغران.

كان الكلام على موت جده ثقيل عليه ثقلاً لا يطاق – يسبب له عذاب الضمير. لقد أخر مجيئه لزيارة جده كثيراً، تارة يعيقه هذا الأمر، وتارة ذاك، وحين جاء أخيراً لم يجده حياً. هو حتى لم يحضر جنازته، لكن الذنب لم يكن ذنبه في ذلك، فهو لم يعرف أن جده فارق الحياة إلا بعد أسبوع، حين وصلت إليه أخيراً البرقية التي شاء القدر الشرير أن تضيع في البريد. ولم يتمكن من المجيء إلى ماران إلا بعد شهر. في البداية أراد أن يأتي وحده، لأنه لم يكن ينوي الحلول ضيفاً، بل كان في نيته أن يأخذ الجدة إليه، غير أن زوجته أصرت أن تجيء الأسرة كلها إلى ماران.

– ترى متى ستتاح لي فرصة أخرى لأرى المنطقة التي أنت منها؟

طلب تيغران من زوجته ألاّ تكشف السبب الحقيقي لزيارتهم وقال:

– سترفض إذا علمت، هي لا تريد أن تترك قبور الأهل دون رعاية. دعيها في البداية، تعتد وجودنا. حين تعتاد ستجد الفراق صعباً، وعند ذلك نقترح عليها السفر معنا.

– وماذا لو رفضت؟

– سنقنعها.

كان أول ما فعله تيغران وناستاسيا هو ترك الولدين في رعاية فالينكا والذهاب لزيارة قبر فانو. المقبرة لم تتغير كثيراً عما كانت عليه حين رحل تيغران، إذا استثنينا عدة عشرات من الصلبان الخشبية التي حلّت محلّ الشاهدات التقليدية منذ مات الحجّار قبل عدة أعوام. تركت ناستاسيا زوجها وحده كي تتيح له معاناة حزنه في عزلة، وذهبت تتجول في الخلاء الذي نمت فيه الأعشاب البرية بكثافة.

كان الوصول إلى القبور ذات الشاهدات القديمة عبر النباتات البرية الكثيفة، أمراً صعباً، لكنها لم تستسلم – لقد كان مهماً بالنسبة إليها أن تقترب لترى النقش الحجري الذي غطته الطحالب، مرّرت يدها على الصلبان المحفورة في قلب الحجر، مذهولة بجمالها المتواضع، وحاولت أن ترسخ في ذاكرتها السكينة المنبعثة من ملامسة يدها الخجولة لحواف، الصلبان ورائحة الزمن والقدر التي تفوح من تلك الشاهدات.

لم تنتبه ناستاسيا على الفور إلى أن الشاهدات ليست عند رؤوس الموتى، بل عند أقدامهم المتجهة نحو الغرب. ولكي تتأكد من صحة ملاحظتها عادت إلى حيث القبور الحديثة، فتأكدت أن ما خمنته صحيح – الصلبان الخشبية تنتصب عند رؤوس الموتى، على عكس ما هي عليه في حال الصلبان الحجرية.

لم تزعج زوجها بالأسئلة – فقد كان تيغران حين عاد من المقبرة عابساً، وصامتاً، ذهب إلى الزاوية البعيدة في الحديقة، وقضى هناك وقتاً طويلاً يدخن بشراهة ولا يحيد ببصره عن حافة الجرف.

– إنها بوابات، – همست لها فالينكا موضحة – على الديوانة المحاطة بالوسادات من كل الجوانب نام الطفلان اللذان تشبّعا بالهواء الجبلي النقي وقد جلست إلى جانبهما تحرس نومهما. – حين يحلّ يوم الحساب الرهيب، ينهض الميت، يفتح البوابة ويدخل إلى الجنة، لذلك وضعت الشاهدات الحجرية وصلبانها عند قدمي الميت.

– وماذا عن أولئك ذوي الصلبان الخشبية العادية؟

– سيأخذهم الموتى الآخرون معهم.

– هكذا إذن... – قالت ناستاسيا ولم تستطع أن تضيف أية كلمة أخرى.

تململ كيريوشا في نومه، مصمص شفتيه، وتنهد بصوت مسموع. هرعت نحوه، لكن فالينكا سبقتها – ساعدت الطفل في التمدد على جنبه، ومسّدت ظهره، صححت وضع اللفافة كيلا تضغط على بشرته الرقيقة.

نهضت مخلية المكان لكنتها:

– تمددي، ما دام الطفلان نائمين، ارتاحي، وأنا سأذهب لأحضر الغداء.

– أنا سأساعدك.

– غداً ستساعدينني. اليوم أنت ما زلت ضيفة. ستكفين عن أن تكوني ضيفة في اليوم الثالث من زيارتك، عند ذلك يمكنك أن تساعديني.

– ومن سأكون غداً، إذن؟ – قالت ناستاسيا باسمة.

شدت فالينكا طرفي المنديل على رأسها، ونفضت مريولها.

– ستكونين سيدة المنزل يا ناز – ستاس – يا – جان.

– ناديني ستاسيا.

– كيف؟

– ستاسيا.

– طيّب، ستكونين ستاسيا. اذهبي وارتاحي يا ابنتي، لأن الأعمال ستكون كثيرة فيما بعد. غداً، في الصباح الباكر، سنذهب لجمع الملوخية، وتتعرفين، في الوقت نفسه، على عجائز القرية. أما تيغران فسيلتقي في هذا الوقت مع شيوخ القرية وسيكون لديهم ما يتحدثون به.

وفي يوم الأحد سنعدّ مائدة، وندعو الجميع لزيارتنا، لكي يتعرّف عليك أهل القرية.

همّت ناستاسيا بسؤالها عن الحاجة إلى هذه الطقوس، لكنها لم تفعل.

– طيّب.

انتظرت إلى أن خرجت فالينكا من الغرفة، ثم خلعت ملابسها وتمددت بحذر عند أقدام الصغيرين، واضعة تحت رأسها وسادة محشوة جيداً. شعرت ناستاسيا بوخزة في صدرها وثقل الثدي وكأنها تستعد للإرضاع. فأقلقها هذا كثيراً – لقد غار حليبها منذ شهر تقريباً، إثر نزلة برد أصابتها في إحدى الليالي. وهي لا تفهم المناسبة التي جعلت ثديها الآن يؤلمها وكأنه امتلأ حليباً بعد ذلك الانقطاع الطويل، لذلك عاهدت نفسها بالذهاب إلى الطبيب المختص فور عودتهم من هذه الرحلة. هدأت فأغمضت عينيها. تذكرت الأسبوع الأخير قبل السفر – الاستعداد الطويل ومرض أليسا المفاجئ قبيل الرحيل، وفأفأة كيريوشا وتذمّره طوال الطريق بسبب ما يعانيه من ألم في لثته، وارتفاع ضغط زوجها واكتشافها عدم وجود حبات الدواء في متناول يدها، فلعنت مئة مرة ذلك اليوم وتلك الساعة التي طلبت فيها أن تسافر هي والطفلان أيضاً، وهي تدرك أنها لم تعد قادرة على تغيير أي شيء. لم تتوقع نستاسيا بعد الرحلة المرهقة الطويلة أية بهجة من لقاء ماران، ولذا لم تستطع حبس دموعها إلا بصعوبة حين التقوا في الوادي بنيميتسانتس موكوتش الذي كان عليه أن ينقلهم بعربته إلى قمة مانيج – كار. بنيميتسانتس موكوتش عجوز له قامة عملاقة وشعر أشيب وعينان شهلاوان، عانق تيغران، وبعد ذلك مدّ يده لها – مرحباً يا ابنتي، لماذا ينادونك نيميتسانتس، سألته ناستاسيا، وهي تشد على يده الجافة، لأن جدي عاد من الحرب العالمية وبصحبته زوجة ألمانية، وهكذا صاروا ينادوننا نيميتسانتس نسبة إلى جدتي، أجاب موكوتش وهو يرسم على وجهه تعبيراً يحاول به إضحاك الطفل. ابتسم كيريوشا ومد ذراعيه نحو هذا الرجل الغريب ذي اللحية الشيباء، إنه نسخة طبق الأصل من كيراكوس، قال العجوز ضاحكاً، والتفت إلى ناستاسيا بنظرة يطلب فيها أن تسمح له بحمل الطفل. أعطته ناستاسيا الطفل في الحال وابتسمت – أتدري؟ والد جدي خاض أيضاً تلك الحرب، وعاد ترافقه زوجة ألمانية: ها أنتذي ترين، قال العجوز وهو يهدهد كيريوشا بحنان، كم العالم صغير، وكم نحن كبار، رغم أننا لسذاجتنا وغبائنا ظللنا طوال حياتنا نظن أن الأمر عكس ذلك.

– ستاسيا جان، المهم هو ألا تقطعي الجذر كيلا تزعل النبتة فلا تنمو في العام القادم، – قالت ياسامان وهي تشرح لها كيف يجب أن تقص ساق النبتة فتترك جزءاً صغيراً منه فوق الأرض.

أحنت ناستاسيا رأسها بالموافقة، وهي تصغي متوترة إلى الكلام الصعب، الخشن المتداخل في بعض الأحيان.

– أرجو فقط... م م م... أن تتكلمي بهدوء، كي أفهم ما تقولين – قالت ناستاسيا.

– وهل ترينني أصرخ؟! – قالت ياسامان باسطة يديها.

ضحكت فالينكا.

– إنها تريد أن تقول لك: تكلمي ببطء. أنت ترشين الكلام كبندقية رشاشة، وهي لا تفهم ما تقولين بسبب سرعتك في الكلام.

– سأتكلم ببطء، – وعدت ياسامان.

التفتت ناستاسيا إلى شجرة السنديان الوارفة الضخمة التي يتمدد تحت قبتها كيريوشا على بساط من نسيج منزلي مطويّ طيّتين، فحرّكت أناتوليا الجالسة بقربه يدها تطمئنها – كل شيء على ما يرام، فلا تقلقي. هي لم تستطع، بسبب ضعف صحتها، أن تواصل جمع أوراق الملوخية – بعد نصف ساعة من العمل شعرت بالدوار، وداهم الغثيان حلقها، لذا كلفتها النسوة برعاية الطفل، وتابعن بظهور محنية بشدة، التقدم ببطء، صعوداً فوق المنحدر، يقصصن بالسكاكين أوراق الملوخية المتموجة أطرافها

ويعبئنها في الأكياس، محاولاتٍ المحافظة على سيقان النبات المقصوصة.

– هل السيقان تؤكل أيضاً؟ سألت ناستاسيا.

– لا، سنرميها فيما بعد، – أجابت فالينكا.

فهمت ناستاسيا أن أم حماتها تمزح، لكنها قالت ذلك حتى دون أن تبتسم.

– دعينا الآن نجمع أوراق النبات، وستفهمين ما حاجتنا إلى السيقان فيما بعد.

قطفت أليسا أول كرزة برية عثرت عليها وأكلتها. لم تكن الكرزة ناضجة فتقلصت عضلات وجهها بسبب حموضتها.

– لماذا تقطفينها؟ دعيها تنضج، – قالت لها أمها لائمة.

– أنا أجد طعمها لذيذاً.

– ستصبح ألذّ حين تنضج.

– حسناً، سآكل حبتين أخريين وأتوقف!

الشمس صعدت إلى السماء منذ زمن، لكن النهار كان لطيفاً، غائماً، وغمامة الضباب امتدت، تطاردها الريح، من أقصى السماء إلى أقصاها، وكان الهواء رقيقاً، رطباً، يعبق برائحة حادة لأعشاب لا تعرف أسماءها ناستاسيا التي راحت تتنفس بعمق وحرية، متكيفة مع إحساس جديد بالنسبة إليها، بإيقاع الحياة الذي تشبّع به كل ما حولها – بدءاً من الغابة العتيقة المحيطة بقمة مانيج – كار، حيث بدا لها أن كل شجرة كانت تتكلم لغتها، وانتهاء بالناس.

كانت العجائز تعمل على مهل، شَكَلْن مراييلهن بخصورهن جاعلات منها جيوباً يضعن فيها الأوراق التي يقطفنها. وكنّ حين تمتلئ تلك الجيوب، يذهبن إلى الأكياس فيفرغن فيها هذه الباقات الخضراء الرطبة. ناستاسيا أخذت مريولاً أيضاً لكنها لم تعرف كيف تثّبت طرفه على خصرها ولذا ظلت تمسكه بيدها.

– لم لا ترتاحين يا ابنتي؟ – اقترحت عليها فالينكا.

– ما هذا الذي تقولين! – قالت فالينكا مرتبكة. أيعقل أن أرتاح وأنتن تعملن؟

– نحن نقوم بهذا العمل طول عمرنا، وقد اعتدناه.

– وأنا يبهجني.

– طيّب ما دام يبهجك...

قصت ناستاسيا ساق النبتة بعناية وجمعت الأوراق في باقة، ثم انتقلت إلى نبتة أخرى، وجمدت فجأة في مكانها. صدرها الذي كان ثقله يؤلمها، تخدّر فجأة وصار رطباً. انتصبت بحدة، ومدت يدها من فتحة الثوب، تلمست إحدى حلمتيها المنتفختين، ثم تلمست الأخرى، فإذا بها مبتلة كلها تقريباً.

– سأعود حالاً، – همست لأم حماتها، ومضت مسرعة نحو شجرة السنديان المعمرة. كان كيريوشا (يكاغي) ويطلق فقاعات من فمه، ويزحف على حرف البساط منشغلاً بقطف بعض الأعشاب، التي سرعان ما تنتزعها أناتوليا من قبضتيه الصغيرتين الطريتين.

– سأعود حالاً، – قالت ناستاسيا ثانية، وأخرجت من حقيبتها منديلاً، اختبأت وراء جذع الشجرة الثخين، فكّت أزرار ثوبها، ثم حررت صدرها وتأوهت. اندفع الحليب من حلمتيها. همّت بإرضاع الطفل، لكنها عدلت عن ذلك فوراً – خافت أن يؤذي الحليب، الذي عاد فجأة، الطفل. لم تفكّر طويلاً، انثنت نصفين، وراحت تضغط براحتيها على ثدييها انطلاقاً من قفص الصدر باتجاه الحلمتين. نفر الحليب جدولين وراح يبلل زهور(لا تنسني) التي نمت بكثرة تحت السنديانة، ثم سال على تيجان الزهور والأعشاب وغار في الأرض.

– هل كل شيء على ما يرام؟ – نادتها أناتوليا.

– نعم، نعم، – أجابت ناستاسيا بسرعة.

انتهت من عملها، فشرعت ترتّب هندامها، قصّت المنديل نصفين، ووضعتهما في كأسيّ حمّالة الصدر لتقيا حلمتيها من قماش الحمّالة المبلل. حين رأى كيريوشا أمه، بكى مطالباً إياها أن تحمله بين ذراعيها. حملته ناستاسيا وضمته إلى جسدها، وقبلت خديه المنتفخين، ومرّغت أنفها في ثنايا رقبته تتشمّم رائحة جلده الطفلي الرقيق، الأليفة إلى حد لا يطاق.

– يا – إب. – ني!

نظرت إليها أناتوليا وابتسمت، ثم تنهدت بحسرة، وغضّت بصرها:

– أما أنا فلم يكتب لي أن أنجب طفلاً.

وضعت ناستاسيا الطفل على البساط فتذمّر وعبّر عن استيائه، انتظرْ قليلاً، انتظرْ قليلاً، اصبرْ، قالت له وهي تخرج من الحقيبة زجاجة الإرضاع، ناولتها لأناتوليا – أتطعمينه؟

– طبعاً، أطعمه، – مددت أناتوليا الطفل على جنبه كي يسهل عليه الشرب، وأصلحت وضع اللفافة تحت خده – لا تقلقي يا ناستاسيا – جان، أنا أجيد التعامل مع الأطفال. هاكِ اسألي ياسامان، فقد تعاملت مع أحفادها كثيراً!

– وأين أحفاد ياسامان الآن؟

– ماتوا في الحرب.

– وأبناؤها؟

– بعضهم ماتوا في المجاعة، وبعضهم ماتوا في الحرب.

– قد يكون... أنا، طبعاً، لا أصر على شيء، – بدأت ناستاسيا كلامها مترددة، – لكني أظن... أن الله قد يكون حرمكم الأطفال، ليجنبكم عذاب الحزن الذي لا يطاق.

رفعت أناتوليا نحوها عينيها السوداوين سواداً خارقاً.

– ربما يا ابنتي.

في المساء مشت ناستاسيا تتنزه في ماران. أمامها طارت أليسا تضج فرحاً، ويتلامح كعباها الملطخان بغبار الطريق، أما كيريوشا فنام ملتفاً كالكعكة في لفافته، – ناستاسيا، بعد التشاور مع فالينكا، قررت إطعامه، في البدء لم يرضع ثديها برغبة، يبدو أنه اعتاد طعم الخليط الصناعي المحلى، لكنه انسجم بسرعة وغفا وهو يرضع، وحين حاولت أمه وضعه على الديوانة اعترض باكياً، وتشبثت لثته التي تؤلمه بحلمة ثديها. وهكذا ضمته أمه إلى صدرها وراحت تطوف به القرية من منزل مهجور

إلى آخر، تتوقف عند كل بوابة، وتنظر عبر النوافذ المهشمة، والجدران المهدمة، وعبر الشقوق التي بنت الطيور فيها أعشاشها منذ زمن، وتتأمل مجاري المياه الصدئة التي سدّتها الأوساخ، والأسوار المهترئة التي ظلت أوتادها بارزة من الأرض وكأنها أسنان ديناصور من قبل التاريخ. وكانت أحياناً، بعد أن تشبع من النظر إلى أحد المباني، تحرّك أصابعها في الهواء، وكأنها تريد أن تمسك بالجوهر الزلق للعزلة الصماء التي تنبعث من كل بيت – سواء أكان مسكوناً أم غير مسكون، وتتساءل في سرها كيف أمكن لكل هذا أن يحدث، فلا تجد جواباً. كانت القرية صامتة، تحتضن بين ذراعيها الحجريين حزناً لا نهاية له.

يداها تفوح منهما رائحة عصير مرّ – تذكرت كيف كانت تضفر اليوم بصعوبة جدائل أوراق الملوخية، مضيفة بالتناوب إلى كل خصلة جديدة ورقة، تاركة ساقها يتدلى خارجاً – الضفيرة تشبه سنبلة القمح، لكنها طويلة قد تبلغ المتر والنصف أو المترين. بعد ضفر الأوراق تقوم النسوة بقص ذيول السيقان بعناية بالمقص – لقد عرفتِ الآن لماذا نحتاج السيقان، إنها تسهل علينا عملية ضفر الأوراق، – وضحت لها أم حماتها الأمر.

– وماذا ستفعلون بعد ذلك؟

– سنترك ذيول السيقان للماشية، أما الجدائل فنعلّقها على حبل الغسيل ونتركها تجف جيداً، ثم نضعها في أكياس من الخام ونخزنها حتى الشتاء.

– وكيف تحضرونها للأكل؟

– ببساطة. تغلينها في الماء ثم تسكبين الماء عنها، وتطبخينها مع البصل المقلي، وبعد ذلك تصبين فوقها اللبن وتأكلينها مع الخبز والجبن الأبيض، أما في العيد فيمكنك أن تزيني الطبق بحبات الرمان والجوز المطحون. هذا يكسب الطبق وجاهة.

– وهل مذاقها طيب؟

– أنت لن تحبيه، قالت فالينكا ضاحكة.

– لماذا؟

– إن أي طبق لم تعتادي طعمه، يبدو لك غير طيب المذاق.

– سأعتاد، قالت ناستاسيا تعدها دون أن تدري لذلك سبباً.

ربطت فالينكا نهاية ضفيرة الملوخية بخيط متين، وكوّرتها على شكل دائرة، ثم تناولت ضفيرة جديدة.

– لقد بقي عندي القليل من مؤونة الشتاء الماضي، سأحضر طبقاً، فقد تعجبك فعلاً.

حين خرجت ناستاسيا من البيت في جولتها كانت على حبل الغسيل ثماني عشرة ضفيرة ثخينة تجف وهي تترجح على وقع تنفس الريح. رافقها تيغران حتى نهاية الشارع، ثم تراجع أمام تأكيدها أنها لا تحتاج إلى مرافقة، وعاد إلى مستودع الحطب للعمل.

أما ناستاسيا فبقيت وجهاً لوجه مع ماران.

عادت بعد ساعتين غارقة في التفكير.

– أتدري ما الذي أندم عليه؟ – قالت بعد أن غسّلت الولدين ووضعتهما في الفراش،

جلست مع زوجها في الشرفة تشرب الشاي بالقرفة الذي حضّرته فالينكا، – أندم لعدم وجود قلم وورق في متناول يدي.

– نستطيع أن نطلب من نيميتسانتس إحضار ذلك من الوادي.

– اطلب منه من فضلك. أنا لست واثقة من النتائج، فقد مرّت أعوام كثيرة لم أتذكر الرسم فيها، لكني اليوم أريد أن أرسم، ولا أعرف لماذا.

طوّق تيغران كتفيها وقبّل جبينها.

– حاضر.

الفصل السابع

في أواخر الأسبوع الثاني تكدست مجموعة لا بأس بها من مشاريع اللوحات المرسومة بالفحم. كانت فالينكا تقلب الأوراق الخشنة التي رسمت عليها خطوط بالقلم الأسود، تتأملها طويلاً وتتنهد مستغرقة في التفكير، وتتمطق بلسانها. لم يدر بينها وبين كنتها حديث شافٍ حتى الآن – العناية بالطفلين تستغرق الكثير من الوقت والجهد، أضف إلى ذلك أن ناستاسيا كانت قليلة المعرفة بلغة ماران، وهذا ما يجعلها عاجزة عن صياغة أفكارها وإيصالها بشكل صحيح لجدة زوجها. أما تيغران فكان يغيب نهارات بكاملها، متنقلاً بين دور العجائز، يصلح كل شيء يمكنه إصلاحه: يثبت الأسوار، يقطع الأشجار الميتة، يقطّع الحطب، يرقّع السقوف على عجل، ينظف مداخن المواقد، يجمع النفايات من المنطقة ويحرقها، وينشر في ضوء الشمس السجادات القديمة التي بهتت ألوانها. كان يساعد الناس قدر استطاعته. وكانت أليسا تفرض نفسها عليه وترافقه في أحيان كثيرة، تحوم بقربه، تتحادث مع الرجال العجائز برغبة، وتروي لهم بعض حكاياتها، كانت وجوههم تشرق لسماع حديثها، فيبتسمون، ويصبحون أكثر طلاقة في الحديث، ويصنعون لها ألعاباً ذوات قامات معوجة، ويقدّمون لها هدايا صغيرة، ويعلّمونها كيف تصنع دمى من الزهور – أقلبُ برعم زهرة الشقيق ظهراً لبطن، ثم أقتلع ما بقلبها بعناية، وأضعها فوق قطعة من الساق، ثم أرتب وضع أوراق التويج فأحصل على غجرية سوداء الشعر ترتدي تنانير حمراء قانية. كانت أليسا تتابع ذلك وقد حبست أنفاسها، وجهها منمّش، مشرق، عيناها خضراوان كعيون القطط، شعرها مسبل بلون القش، خفيف كزغب الشجر المتطاير. تركض بعد كل دمية تصنعها، إلى تيغران – بابا، انظر كيف صارت، أليست جميلة؟ أجاب تيغران إجابات غامضة على أسئلة جدته، وتحدث من دون رغبة عن الطلاق الصعب، وعدم رغبة أبي البنت الحقيقي في الإسهام بتربيتها. هزت فالينكا رأسها، وأطلقت عدة تنهيدات، وفي اليوم التالي طافت على الجارات فجمعت ما ينقصها من مواد، وصنعت فطيرة كبيرة بالقرفة تطلب إعدادها الكثير من العمل – خمس طبقات محلاّة مشبعة بالكريم الممزوج بالجوز واللوز والبندق المعجون بالعسل. لقد كانوا يقدمون هذا النوع من الفطائر في حفلات العماد، غير أن فالينكا صنعت هذه الفطيرة لبنت صغيرة لا يربطها بها أي رابط بحسب قوانين الحياة، ولكنها بحسب قوانين القلب أقرب وأحب إليها حتى من حفيدها الحبيب. أكلت أليسا الفطيرة وهي تشرق سعادة، وتمتدح الفطيرة وتطلبي المزيد.

– أنت ستصنعين لي فطيرة كهذه تماماً فيما بعد، أليس كذلك؟ – سألت أمها، وألحّت في طلب ذلك.

اضطرت ناستاسيا إلى تسجيل الوصفة بالتفصيل، ووعدت ابنتها وعداً مشفوعاً بالقسم بأن تصنع لها فطيرة القرفة في عيد الميلاد.

– وهل ستستطيعين ذلك؟ – سألت البنت لتتأكد، فتبادلت النسوة النظرات، وضحكن ضحكات قصيرة – معاشرة المسنين لم تذهب عبثاً، فقد تعلّمت منهم أليسا اللهجة المتذمرة، وبعض الحركات – كانت تقف بخصر مائل، مادة عنقها، ناظرة من تحت جبينها نحو الأعلى.

– هيه! – شدت ناستاسيا البنت من ضفيرتها، لكن البنت أفلتت منها وأخذت حفنة حلوى عن الطاولة وهرعت تحتمي بأبيها.

كانت فالينكا تراقب كنتها وابنتها باسمة. إنهما متشابهتان إلى درجة مدهشة – الاثنتان رشيقتان، أنيقتان، وسيقانهما طويلة.

– شعبنا مختلف، – قالت وهي شاردة الفكر، – نحن ضخام الأجسام، راسخو البنية، محدودبو الأنف، ثقيلو الحركة، أما أنتم فتتنقلون كالفراشات.

– أنتم جميلون جداً، – قالت لها ناستاسيا في ردّها. – و... كأنكم الصخر. أظن أن كل شيء في ماران من الصخر. البيوت، والأشجار، والناس. و... – طقطقت بأصابعها محاولة تذكر الكلمة المناسبة – كأنكم قددتم من الصخر.

شرعت فالينكا، بعد أن أطعمت ناستاسيا كيراكوس ومددته في السرير، وذهبت إلى القرية لترسم، تتأمل رسوم كنتها – المقبرة، وشعاع شمس مائل في النافذة الضيقة للكنيسة الصغيرة، وبراميل جمع مياه المطر، ودولاب العربة، والحمار الصغير المربوط إلى شجرة منعزلة، وشجيرة ورود صغيرة. وكانت إلى جانب هذه الرسوم مجموعة مستقلة من رسوم غير مكتملة لوجه أناتوليا التي كانت تزورهم كثيراً بصحبة ياسامان، فتجلسها ناستاسيا قرب النافذة وترسمها، بينما تعتني ياسامان بالصغير متيحة الفرصة لفالينكا كي ترتاح، وتفرد أناتوليا ضفيرتها – شعرها، على الرغم من كبر سنها، احتفظ بكثافته ولونه العسلي المدهش، فتتأوه ناستاسيا إعجاباً – يا إلهي كم هو نادر هذا الجمع المدهش بين البشرة السمراء والشعر القمحي المشوب بالحمرة، يا للجمال، يا للجمال! أما أناتوليا فتهز كتفها قائلة: لا شيء خارق يا ستاسيا – جان. أخذت بعض الصفات من والدي، وبعضها الآخر من أمي، وهكذا تكوّن مظهري.

كانت ياسامان تشتكي لفالينكا همساً من صحة صديقتها التي لم تتحسن على الرغم من علاجها بشتى الأعشاب.

– أنا لا أستطيع إرغامها على السفر إلى الوادي وعرض نفسها على الأطباء. إنها لا تصغي لأحد – لا لي ولا لفاسيلي، ولا لأفانيس. لقد ضعفت تماماً، فهي تصاب بالدوار تارة، وتارة يتخدر ساقاها. وقد أصيبت في الأسبوع الماضي بالإغماء، ولم تستعد وعيها إلا بصعوبة.

– أتريدينني أن أكلمها؟

– هل هذا يجدي؟ إنها لن تتصرف إلا كما تريد، بل إنها قد تزعل لأنني شكوتها لك!

– ليس هناك ما يمكننا فعله، فهي ليست صغيرة، وليس بمقدورنا إرغامها على شيء.

– نعم، ليس هناك ما يمكننا فعله.

بدت أناتوليا في لوحات أناستاسيا غادة جميلة حقاً، رغم علامات المرض الظاهرة عليها – غادة شابة ومشرقة ورقيقة. وكانت فالينكا تظن أحياناً أن كنتها تتعمد تزيينها، وأحياناً ترى أن الأمر ليس فيه أي تزيين، وأن الكنة ترسم أناتوليا كما تراها بالضبط، بل إن القرية كلها تبدو في لوحاتها جميلة كما لم تعد تبدو منذ زمن بعيد. وكأن ناستاسيا تعمدت تجاوز آثار الشيخوخة والدمار الكئيب، تاركة لماران السكينة والرضا والسعادة، وبدا أنها تنظر إلى هذا البلد الغريب بالنسية إليها، بتعاطف وتفهّم وكأنها تحس بمسؤوليتها الشخصية عن المصير المرّ الذي حلّ به. لقد استطاعت بشكل مدهش أن تلاحظ أو تخمن غريزياً، ما كفّ المسنون عن تخمينه أو ملاحظته. قلّبت فالينكا بين يديها الرسم التفصيلي لمعلف الطيور الذي في فناء دار نيميتسانتس موكوتش – معلف طيور عادي، واطئ، مائل على جنبه، ملطخ بمصع الدجاج. لكن الغريب في الأمر، أن ما لفت انتباهها هو بالضبط العصافير التي كانت عند حلول المساء تطير سرباً كاملاً إلى المعلف وتقيم فيه حفلاً صاخباً. كانت الطيور الداجنة المنزلية ترقب هذه الاحتفالية عن بعد، إلا ديك رومي عجوز، سافل وغبي ونزق، ما يزال موكوتش يشفق عليه فلا يرفع يده ويدق عنقه، كان يطوف حولها في دوائر، مطلقاً صيحات غاضبة،

وهو يهز العرف الأحمر المتدلي تحت منقاره... لم يكن غضب هذا الديك الرومي يقلق العصافير على كل حال، فهي تضج بعض الوقت، وتنظف المعلف من الحب تماماً، ثم تهبّ إلى أعلى كتلة واحدة وتطير باتجاه الغابة. وكردّ على أسئلة ناستاسيا المتكررة عن السبب الذي يجعل الطيور تجيء إلى فناء داره بالذات في أسراب، بسط موكوتش العجوز يديه وقال – من أين لي أن أعرف يا ابنتي، لا بدّ أن هذا ما يجب أن يكون، لأنه كان هكذا دائماً. لقد اعتاد المارانيون منذ زمن بعيد على تصرف العصافير الغريب، أما ناستاسيا التي لم تزر القرية إلا منذ أسبوعين، فلم تلحظ ذلك فقط، ولم تتقاعس، بل راحت ترسم المعلف المائل الذي لطخته الطيور. وحين سألتها فالينكا عن سبب قيامها بذلك، أجابتها بإخلاص وصدق أخّاذ – أنا نفسي لا أعرف.

ومثل ذلك حكاية السور على حافة الجرف، حيث يرقد رفات الطاووس، لقد كان فانو يتأمل كل مساء هذا السور عبر أشعة الغروب، أما فالينكا فكانت تعتني بزهور الليلي الجبلية التي زرعها تيغران على سطح القبر، ولم يلاحظ أي منهما أن الزوايا التي يمر بها خط اللحام في السور ترسم نقشاً له شكل الحرفين» K » و« B ».

ناستاسيا لاحظت ذلك، ورسمته وأرته لزوجها. لم يصدق تيغران عينيه، فذهب إلى السور، وتأكد من أن زوجته على حق.

– لكن كيف استطعت أن تميزي هذين الحرفين وأنت لا تعرفين أبجديتنا؟

– لقد رأيتهما مكتوبين على الصلبان الحجرية وحفظت شكليهما!

تأملت فالينكا بدهشة نقوش السور التي رسمتها كنتها. هي وفانو يكادان لا يعرفان كيف يكتبان كلمة، لكنهما، على كل حال، يعرفان شكل الحرفين « K » و« B » ومع ذلك لم يلحظا ما لاحظته ناستاسيا.

قامت ناستاسيا دفعة واحدة وعلى عدة أوراق برسم تفاصيل شرفة مخربة في بيت أبي ياكوليتشانتس ماغتاخيني التي كانت فالينكا صديقة لأمها قبل أن تجن تماماً. وقد التقطت ناستاسيا ذلك التشكيل، حيث توضّعت الأوتاد التي تحطمت منذ زمن ونمت عليها الطحالب، على شكل وجه رجل عجوز، كأنه وجه والد ماغتاخيني – أنف ذو حدبة نموذجية، وحاجبان كثّان، وشفتان رقيقتان. وقد ذهبت فالينكا خصيصاً لتتأكد من ذلك، فوجدته حقيقة: رأت ياكوليتشانتس بيتروس راقداً كما كان يوم وفاته. لقد رحل ولكنه بقي في أنقاض بيته.

أنهت تأمل رسوم كنتها، فجمعتها في رزمة ووضعتها على حافة النافذة. رفعت طرف ناموسية السرير وأصغت إلى صوت أنفاس كيراكوس النائم. ها هو ذا آخر أطفال ماران. لا يوجد أطفال غيره، ولن يوجدوا. الشباب رحلوا، والشيوخ سيرحلون دون أن يتركوا وراءهم شيئاً حتى لو كان مجرد ذكريات.

– حسناً، فليكن، – هكذا استقبلت فالينكا الحقيقة المرة، – لا بدّ أن هذا مقّدر، ولذا فإنه سيكون.

لقد تذكرت اللوحة المنسية في المستودع بمحض المصادفة. كانت تشرح للكنة كيف يجب أن تنشر الغسيل على الحبل – تجب مراعاة النوع واللون.

– لم أتصور أن لذلك هذه القواعد كلها، – قالت ناستاسيا ضاحكة، وهي تسوّي طرف الشرشف الرطب.

– أنت ظننت الأمر بسيطاً! الناس يحكمون على حسن إدارة المرأة من خلال طريقة نشرها للغسيل. قد لا تصدقين أن الرجال يعرفون هذه الأمور. لقد كانت تعرف ذلك حتى حماتي، رحمها الله، هي سلالة أسرة أرستقراطية، ولا تعرف كيف تغلي كأس شاي، لكنها كانت تعرف كيف تنشر الغسيل.

– هل كانت حماتك أميرة؟ – دهشت ناستاسيا – أم جدة تيغران؟

– ألم يحدثك عن ذلك؟ يبدو أنه لم يكن يقيم للأمر وزناً. لقد كانت عائلتها تلقب ميليكانتس لأنها... – هنا سكتت فالينكا فجأة ورفّت جفونها، ثم لطمت جبينها بكفها – كيف نسيت ذلك؟! هيا بنا يا ستاسيا – جان، سأريك شيئاً. أنت ترسمين، وهذا سيثير اهتمامك.

تركت نشر الغسيل، وأسرعت إلى البيت، وهي تجفف يديها بذيل مريولها، وتوبخ نفسها لنسيانها.

السلم إلى المستودع كان في غرفة واسعة في زاوية الطابق الثاني، وقد خصصتها فالينكا لحفظ اللحف والفرشات الصوف والوسائد المحشوة بكثافة بريش الإوز. باب هذه الغرفة المطل على مكان إقامة الضيوف كان موصداً – خشية أن تحاول أليسا الصعود على السلّم غير المأمون المؤدي إلى المستودع، فدرجاته العتيقة ترسل صريراً مستاء، وتطقطق، وتنحني بشدة ردّاً على كل خطوة – وقد تعفن خشبها في بعض الأماكن وبات على وشك التحطّم.

– يجب أن أطلب من تيغران تدعيمه، – قالت ناستاسيا وهي تنظر بحذر إلى كل درجة. سارت خلف جدة زوجها خطوة، خطوة وهي تستند بيدها إلى الجدار – هي تخشى الاستناد إلى إفريز السلم المتهالك.

كانت فالينكا تتوخوخ وهي تنقّل قدميها:

– لقد صرت عجوزاً، ركبتاي مريضتان تماماً، يجب أن أعالجهما (بلبخة) بطاطا.

– وهل ذلك يساعد؟

– يساعد قليلاً. تطحنين البطاطا النيئة، تضيفين إليها الملح الخشن، تدهنين بالمزيج ركبتيك، ثم تلفينهما بشال، وتضعين تحت ساقيك وسادة، – دفعت فالينكا باب المستودع، فانفتح مرسلاً صريراً، وصدمت وجهيهما رائحة الأشياء المخزونة، – أنا لم أنظف المكان منذ مدة، يا ابنتي، لم أعد أملك القوة الكافية. احذري أن تلوثي ملابسك.

ألقت ناستاسيا نظرة على المكان وتأوهت – المكان فسيح ولكنه مملوء إلى حد المستحيل بالأشياء التي انتهى عمرها، لم يبدُ لها المستودع مجرد مكان توقف فيه الزمن، بل مكاناً اختلط فيه الزمن ولفّه النسيان. لقد كان الفضاء كله مشغولاً من حولها بصناديق، وقازانات، ودسوت، وجرار فخارية فارغة، وقطع أثاث محطم – خزانة بلوريات، وطاولات صغيرة، وكرسي محطّم، وكل ذلك يغطيه الغبار وخيوط العنكبوت. وأمامها، في مقدمة هذه الأشياء إبريق نحاسي معوجّ اليد، طويل عليه بقع من صدأ النحاس الأزرق. لم تتمالك ناستاسيا نفسها، فمدت يدها ومسدت خلسة جنبه المكسو بالغبار، وحاولت فتح غطائه عبثاً، – فالغطاء كان مغلقاً بإحكام.

– يجب أن تضغطي هنا، – انحنت فالينكا وضغطت بإصبعها على زرّ لم يكن بارزاً، – فانزاح غطاء الإبريق جانباً، كاشفاً فتحة في عنقه الضيق.

– هل تعرفين من صنعه؟ إنه العم فاسيلي. أولاد كودامانتس أروسياك جيّدون، مهرة.

والد فاسيلي كان حداداً مشهوراً وعمه مصنع أدوات نحاسية. في زمن ما، كانت نساء ماران كلهن يذهبن إلى النبع حاملات أباريق كهذا. إنها أباريق تمتاز بصفة هامة – هي تحفظ الماء بارداً أياً كانت حالة الطقس.

أدارت فالينكا الإبريق مستعرضة الثقوب التي في قاعه.

– لقد اهترأ قعره منذ زمن وليس هناك من يصلحه. ومع ذلك فيدي لا تطاوعني في رميه.

– حسناً تفعلين، فمن غير الجائز رمي هذا الجمال!

– في الحقيقة، أنا لا أحتفظ به لجماله، – عارضتها فالينكا في القول، – وإنما تخليداً لذكرى الناس الذين عرفتهم. أترين هذه الجرار؟ لقد صنعها جد بيخلافانتس ماريام، تلك العجوز التي أرسلت مع حماتها حذاء فانو إلى العالم الآخر. أما هذا الصندوق، – ربتت فالينكا بيدها على سقف الصندوق الثقيل، – فقد صنعه النجار ميناس. لقد كان عجوزاً طيباً، شريفاً مات في الحرب، قبل أن تصل شهادة مقتل ابنه بيومين. رحمه الله فأخذه قبل وصولها.

نظرت فالينكا إلى ما وراء الصندوق الخشبي، وقلبت بيدها الأشياء هناك، محاولة الإمساك بإطار كامد اللون.

– ستاسيا – جان، ساعديني، فأنا لا أستطيع رفعه وحدي.

أمسكت ناستاسيا بالزاوية المقابلة من الإطار ورفعت بحذر اللوحة الثقيلة المتسخة بدرجة فظيعة. أخرجت فالينكا من الصندوق ثوباً قديماً وأعطته لكنتها – هاكِ امسحيها يا ابنتي، أنا أخشى أن أخربها. شرعت ناستاسيا تمسح بعناية طبقة الغبار الكثيفة، لكن نتيجة ذلك كانت ضئيلة جداً – اللوحة كانت ملطخة إلى درجة يبدو معها أن تمييز ما هو مرسوم عليها أمر مستحيل.

– لقد خبأتها حماتي هنا. – فتحت فالينكا النافذة الوحيدة في المستودع، على مصراعيها، وراحت تسعل سعالاً شديداً. تنفست بصعوبة، ومسحت بباطن يدها الدموع التي نفرت من عينيها. – طول عمري أسعل بسبب الغبار.

شعرت ناستاسيا بالقلق.

– اذهبي إلى أسفل، أنا سآتي سريعاً. سآخذ اللوحة إلى غرفة المشغل، لعلي أستطيع أن... – حاولت أن تجد بلغة المارانيين مرادفاً لكلمة «ترميم» لكنها سلّمت بعجزها سريعاً وقالت، – أن أصلحها.

أحنت فالينكا رأسها بالموافقة.

– الرأي رأيك يا ابنتي. أنا، في هذه الحالة، سأكمل نشر الغسيل.

– كم عاماً بقيت هذه اللوحة هنا؟ – سألتها ناستاسيا قبل أن تغادر. جمدت فالينكا في باب المستودع.

– أظنها قضت هنا قرناً كاملاً. في الحقيقة، أنا وفانو لم نرها أبداً.

حماتي لم تسمح في حياتها لأحد بالاقتراب من هذه اللوحة، وحين ماتت، كنا قد نسينا تماماً أمرها، وأنا مندهشة من تذكري لها في هذا اليوم!

تفتت خشب الإطار المتعفن وكان لا بد من التخلص منه نهائياً، وكان ذلك سهلاً لحسن الحظ، فالمسامير التي كانت تثبت اللوحة، صدئت منذ زمن بعيد وباتت تتفتت حتى بضغطة إصبع. أعادت ناستاسيا الحطام المتعفن إلى ما وراء الصندوق وحملت اللوحة إلى أسفل حيث وضعتها بشكل يسمح لنور الشمس الداخل من النافذة بإضاءتها. وفي ضوء النهار الساطع ظهر على اللوحة قوام إنسان. ولاحت على الجزء السفلي من اللوحة بقعة عكرة بلون أبيض كامد.

ارتفع صوت مناغاة كيريوشا – فأسرعت ناستاسيا في الهبوط وذهبت فغسلت يديها، وبدّلت ملابسها على عجل، ثم أطّلت على سرير الفتى – كانت جدة زوجها قد غيّرت لتوها سراويل الطفل المبللة. أما هو، فشرع حين رأى أمه يدمدم مبتهجاً مادّاً ذراعيه نحوها. أطعمته – كان الحليب كثيراً إلى حد أربك كيريوشا فاضطرت أمه إلى نزع حلمة ثديها من فمه كي يتنفس. وضبطت ناستاسيا نفسها تفكّر بأن الحليب لو عاد إلى ثدييها في ظروف غير هذه، لعدّت الأمر معجزة، غير أنها رأت ذلك هنا، في ماران، أمراً عادياً. «لا بد من أن هذا كان مقدراً، وقد حدث لأنه كذلك». ردّدت في سرها العبارة المفضلة لدى العجائز وابتسمت. إن الكلمات كلما ازدادت بساطة، ازدادت قيمة معناها.

عاد تيغران وأليسا، سنتناول الغداء الآن ثم نذهب مجدداً، قالت الابنة المبتهجة وهي تندفع إلى داخل الغرفة، اختطفت قبلة صائتة من خد أخيها المستدير، ثم قبّلت ناستاسيا – ماما، هناك جدة (نسيت اسمها) تعلمني الحياكة بالسنارات، وقد حكت خطين من العرى، هل تصدقين ذلك؟

في أثناء انشغال أليسا بأمها، أرسلت فالينكا تيغران إلى الأعلى، ليرى اللوحة، أما هي فشرعت تحضّر مائدة الغداء – صبت اللبنية في الصحون، ووضعت على المائدة لحم الدجاج المسلوق والبطاطا الفتية، والجبن الأبيض القليل الملح، والبندورة التي تفوح منها رائحة منعشة، والبقدونس والنعناع والخيار الطازج والفجل. عاد تيغران حائراً، فهو، مثل ناستاسيا، سمع بوجود اللوحة للمرة الأولى.

– ترى ما الذي حدث فجعلك تنسين، أنت وجدي، وجود هذه اللوحة؟

– أنا نفسي لا أفهم! – قالت فالينكا في ردّها.

– لديّ تصور مبدئي عن كيفية تنظيف اللوحة، – قالت ناستاسيا. – سأحاول فعل ذلك. سيأخذ الأمر وقتاً كثيراً، لكنني سأنهي العمل قبيل وقت رحيلنا. الشيء الوحيد الذي أحتاجه هو الزيت النباتي. هل نستطيع الحصول عليه؟

– نستطيع.

عاد تيغران وأليسا بعد الغداء إلى العجوز أنيس، هو – يقطع الحطب، وهي تتعلم عند زوجة أنيس الضعيفة البصر كيف تنسج جوراباً صوفياً. فالينكا أعدّت العجينة لتصنع منها فطيرة بالبيض والبصل، أما ناستاسيا فأخذت الزيت النباتي من عند جدة زوجها وقطعة قماش لينة وذهبت كي تنظف اللوحة. بدأت العمل بحذر شديد، خشية أن تكون ظروف التخزين غير الملائمة، وطبقة الغبار الكثيفة قد خرّبت اللوحة نهائياً، لكنها وجدت بعد إزالة الغبار وخيوط العنكبوت والبقاع الداكنة التي تركتها أسراب الذباب، ألواناً زيتية باقية رغم أنها فقدت الكثير من بريقها. وبعد ثلاث ساعات من العمل الدقيق المتواصل استطاعت ناستاسيا أن تنظف قطعة صغيرة من قماش اللوحة – طرفاً أزرق – أبيض لشعار أولترس، وقطعة من جدار حجري. وبعد أسبوع ظهرت على قماش اللوحة صورة فارس صليبي شاب – جبين عال، وعينان زرقاوان، وأنف مستقيم، ولحية قصيرة كثيفة. كان يرتدي درعاً من صفائح رقيقة وفوقها معطف ثقيل ذهبي – أحمر، مخملي، على عنقه سلسال، كل حلقة منه يزينها

رسم نافر طمست معالمه للأسف.

تركت ناستاسيا أمر البقعة البيضاء الكامدة إلى المرحلة الأخيرة من العمل. وحين بدأت بتنظيفها، ظنت أن العفن خرّب ذلك الجزء من قماش اللوحة تخريباً لا يمكن إصلاحه. لكن مع تقدمها في العمل، راح الوسخ المزمن الكثيف يتراجع أمام اللمسات الحذرة لقطعة القماش المبللة بالزيت كاشفاً عن صورة ما إن رأتها فالينكا، التي أطلّت على غرفة المشغل حاملة بين ذراعيها كيراكوس الصغير، حتى شحب وجهها، وشعرت بوخزة في قلبها، وجمدت عاجزة عن الحركة، فخافت ناستاسيا أن تسقط الصغير من بين يديها، لكن الجدة هدّأتها قائلة:– لا تخافي يا ابنتي، – وأعطتها الطفل. أما هي فمشت بخطوات صغيرة مترددة مقتربة من اللوحة وهي تتأوه وتهز رأسها بأسى، ثم بكت – كان واضحاً أن البكاء أراحها، وكأنها حصلت على جواب لسؤال عذّبها طول حياتها. كان يقف عند قدميّ الفارس الصليبي، الطاووس القيصر الناصع البياض، رافعاً إلى الأعلى رأسه الرائع ذا التاج الفاخر، ناظراً إليها بعينين شفافتين رائعتين لهما لون حبّ الرمان.

ملاحظة: من المفهوم طبعاً أن فالينكا لم تسافر إلى أي مكان؟

الجزء الثالث

إلى ذلك الذي سمع

الفصل الأول

جاءت ماغتاخيني عند حلول الليل مباشرة، حين تلامحت أضواء قليلة في نوافذ المنازل، وبسطت الليلة الأيلولية الرؤوف غطاءها النجمي فوق القرية. وقفت في الشرفة مصالبة يديها على صدرها، متأملة باحة الدار. لقد اعتاد فاسيلي بمرور الوقت زيارات زوجته المتوفاة. حين لاحظ في المرة الأولى طيفها الشفاف على خلفية السماء المعتمة، لم يشعر رغم لا واقعية الموقف، بالخوف، بل شعر بالحيرة والعجز. آنذاك كانت أناتوليا قد رقدت في سريرها – لقد كانت، بسبب اعتلال صحتها، تقضي معظم وقت فراغها من الأعمال المنزلية، جالسة على الديوانة تمارس أشغالاً يدوية غير مرهقة، أو راقدة في السرير. وكان فاسيلي يرعاها بإخلاص – يغلي لها الشاي، ويغطي ساقيها الباردتين دائماً بغطاء صوفي، ولا ينسى أن يقدم لها في الوقت المناسب مغليّ الأعشاب الذي يجب أن تشربه ثلاث مرات في اليوم قبل الطعام تحديداً. كان، إذا ما اضطر للذهاب إلى ورشة الحدادة، يخبر حتماً ياسامان وأفانيس بذلك، كي لا يتركاها من دون رعاية. وكانت أناتوليا تتأثر حتى أعماق روحها برعاية فاسيلي، ولذا راحت هي التي لم تعتد أن تُعامَل بحنان واهتمام، تعامله بالمثل، تحضّر له الطعام الذي يحبه، ترتّب له ملابسه القليلة – قلبت قماش معطفه القديم وأعادت خياطته، رفت ثيابه الداخلية، حاكت له عدة أزواج من الجوارب، خاطت له قميصين من قطعة كتّان كانت تحتفظ بها لنفسها.

وكانت في الأماسي تعلّمه الكتابة – كان فاسيلي يمد رأس لسانه من فرط حماسته، وهو يرسم تعاريج الأحرف ممسكاً بالقلم، بصعوبة بأصابعه غير المطواعة التي تصلّبت وخشنت في أعمال الحدادة، ثم يقرأ متلعثماً عابساً الكلمات مقطعاً، مقطعاً. وتعطيه أناتوليا فترات للاستراحة من الدرس، فتقرأ له بصوت مسموع الكتب التي أخذتها من المكتبة في أول شتاء بارد، وبذلك حمتها من التعفن والضياع. كانت أناتوليا تعرف عن ظهر قلب محتويات تلك الكتب، لكنها حين لاحظت اهتمام فاسيلي الصادق بالنص الفني، صارت تقرأها بمتعة وكأنها تمسكها بيدها لأول مرة – كانا ينامان متعانقين في وضع مؤثر، وهي تبتسم وتفكّر بالكثرة التي يمكن أن تكون عليها وجوه السعادة الإنسانية، وبكثرة الأوجه اللطيفة في كل مظهر من مظاهرها. كانت تخجل ويصطبغ وجهها بالحمرة، وهي تتذكر ليلة الحب الأولى المتعثرة، حدث ذلك بعد أسبوع من انتقال فاسيلي إلى منزلها. هل أستطيع معانقتك، سألها بصوت متردد وهو يقترب منها، فدهشت أناتوليا كثيراً من سؤاله – زوجها السابق لم يكن يستأذن أبداً حين يضاجعها، بل إنه في كل الحالات تقريباً يفعل ذلك رغماً عنها، ويشتعل غضبه بسبب صمتها الناطق، ودموعها التي تنهمر دون إرادة منها، ولذا فإن سؤال فاسيلي الذي قيل همساً بلهجة خجولة، كان بالنسبة إليها كشفاً، جعلها تقترب منه، هي نفسها، وتعانقه خجلة من اندفاعها العاطفي. كان فاسيلي، على الرغم من عدم نعومة مظهره، وخشونة مزاجه الفلاحي لطيفاً في الفراش إلى درجة مدهشة، استقبل رقتها بامتنان، وعاملها بعناية وحنان، فجعل أناتوليا تحس للمرة الأولى بأن هذا الجانب الحميمي من الحياة ليس شقاء مذلاً، بل سعادة. لم تكن مشاعرها تتصف بالتوهج وذلك بسبب تقدمها في السن، ولم يكن هواهما يغيّب الوعي، ولم يكن جسداهما قادرين على ممارسة الحب بكثرة كالشباب، لكنهما كانا ينظران إلى ذلك كله بتفهم، وكانا ممتنين بلا حدود للسماء التي منحت كلاً منهما إمكانية تقاسم خريف الحياة مع إنسان يحبه حقاً. "لو قالوا لي إنني يجب أن أعاني مرة أخرى كل ما عانيته، وما مرّ بي مع زوجي السابق، كي أكون بعد ذلك معك لوافقت وقبلت ذلك"، – هذا ما قالته أناتوليا لفاسيلي ذات مرة، فتركت كلماتها فيه أثراً قوياً نفذ إلى أعماق روحه، لكنه ارتبك كثيراً لأنه لم يجد ما يردّ به على كلامها. غاب بعد ذلك نهاراً كاملاً في ورشة الحدادة، وعاد يحمل لها في المساء وردة مصنوعة من الحديد – هي الوردة الأولى التي صنعها في خلال عمله حداداً لسنوات

طويلة. "أنا لا أجيد الكلام مثلك"، – قال لها معترفاً، ثم صمت لا يدري كيف ينهي فكرته، "ولذا قررت أن أجسّد مشاعري بالحديد؟" – قالت تسانده، فأجابها "نعم، هذا ما أردت قوله".

يوم ظهرت لفاسيلي زوجته المتوفاة للمرة الأولى، ذهبت أناتوليا إلى الفراش مبكرة، وقد أرهقها الرعد. الطقس كان منذ الصباح خانقاً ولزجاً لا يتيح لك فرصة للتنفس – الصيف في أواخره، وأيام شهر آب الأخيرة، تتذمّر وتهتاج، يسخُن الجو حتى الابيضاض، وعند اقتراب الليل تنطلق عاصفة فظيعة القوة، تمزّق الهواء برماح البرق السماوية، وتصبّ سيول المطر الساخنة، لكنها لا تحمل للناس الراحة التي طال انتظارها. أطلّ فاسيلي على غرفة النوم وتأكد من أن أناتوليا قد نامت، – فهي صارت، بالإضافة إلى نوبات الضعف المفاجئة، تشكو في الفترة الأخيرة من ساقيها – من ألم في المفاصل واحتباس للدم، لذا كانت حين تنام تضع قدميها فوق غطاء مطويّ أربع طيّات، وتتذمر من كونها ازدادت بدانة، لقد ظلت طول عمرها نحيلة كالدبوس، أما الآن فقد نمت لها أرداف وصار لها بطن، سيصبح قريباً مدوراً كقرص الجبن، تقول مازحة، لا تقلقي، سأحبك وأنت سمينة أيضاً، يجيبها فاسيلي منتزعاً الابتسامة من بين شفتيه – كانت صحة أناتوليا تسوء باستمرار، وكان واضحاً أنه لا بد من زيارة الأطباء في الوادي، لكنها كانت ترفض وتنهمر دموعها في كل مرة يذكّرها فيها أحدهم بضرورة ذلك. ترك فاسيلي باب غرفة النوم مواربا كي يسمع صوتها إذا نادته، وذهب إلى المطبخ ليغلي الشاي بالنعناع. كانت بوابة الدار مفتوحة على مصراعيها لسبب لا يدريه، مشى نحوها ليغلقها، فرأى على الفور، ماغتاخيني واقفة تسند بطنها إلى سور الشرفة، شعرها مسبل وقصير لسبب ما، ويداها متصالبتان على صدرها، وهي تنظر إلى باحة الدار، إلى الزاوية التي استقر فيها بيت الكلب باترو.

فاسيلي عرفها في الحال، رغم أنها كانت نحيلة جداً وقد بدت قامتها أقصر من طولها بشبر كامل، وذلك بسبب قوامها، فهي، ذات يوم في شبابها، تعثرت فعلقت قدمها بشراشيب البساط، وسقطت أرضاً بكل قامتها الطويلة، فتأذّى كتفها، وصار منذ ذلك اليوم يؤلمها في أحيان كثيرة، لا سيّما في حالات تبدّل الطقس، لذا كانت ماغتاخيني ترفع كتفها غريزياً، وتصالب يديها على صدرها، خوفاً من أن يصطدم كوعها بشيء ما يسبب لها المزيد من الألم. أراد فاسيلي الاقتراب منها، لكنها أدارت له وجهاً فتياً خالياً من التجاعيد، وحرّكت رأسها تنهاه بغضب. انصفق الباب بفعل هبة ريح، وحين أعاد فاسيلي فتحه كانت الشرفة خالية.

منذ ذلك اليوم صارت ماغتاخيي تظهر يومياً تقريباً، ودائماً في الليل، بعد أن تغفو أناتوليا، وكان فاسيلي يشعر بقدومها دون خطأ، ينظر إلى الشرفة فيراها تقف هناك تضغط صدرها بيديها وتنظر إلى الفناء. هو لم يعد يحاول الاقتراب منها، لكنه كان يعرف أنها لا تأتي إليه دون هدف، وإنما لكي تقول له شيئاً ما، غير أنها ما زالت تتمهل، لسبب غير مفهوم. لم تخفه زيارات زوجته المتوفاة، فرغم أن الطبع يسوء مع التقدم في العمر، كانت ماغتاخيني امرأة طيبة القلب ولا تحمل حقداً، خدمت والديها بإخلاص وتفانٍ رغم أنها لامتهما زاعمة أنهما لم يحباها كفاية، لكن لومها كان مجرد لوم عاديّ لا يخفي خلفه زعلاً. لقد تزوجت فاسيلي بعد انتهاء المجاعة بعام، وعاملت آكوب ذا التسعة أعوام، معاملة الابن، بل إنها حين أنجبت فيما بعد، ثلاثة أطفال، لم تميز بين الأولاد، وعاملت آكوب برقة واضحة، ولم تكن تبتعد عن فراشه خطوة واحدة، حين كانت تصيبه نوبات حمى لا تفسير لها. كان فاسيلي يعبس، ويتنهد بعمق، وهو يتذكّر معاناة شقيقه الأصغر.

لقد حدثت له أول نوبة حمى بعد عدّة أشهر من موت الأم: نادى فاسيلي أخاه للعشاء فلم يأت، حين ذاك ذهب يبحث عنه في المنزل فوجده على الأرض في غرفة المعيشة، كانت حرارة آكوب مرتفعة جداً، حتى إن فاسيلي الذي لمس جبينه، سحب يده بسرعة خائفاً. عرّى فاسيلي آكوب من

ملابسه ومسح جسده بنبيذ التوت ومدّده في السرير ثم أسرع إلى ياسامان. وحين وصلت معه، كان آكوب ممدداً على الأرض من جديد باسطاً جسده الحار على ألواح الأرض الباردة وهو يهذي. وحين حاولت ياسامان أن تسقيه منقوع بعض الأعشاب، أفلت من يدها وصار يئن، وبعد أن نقل إلى السرير وغطّيَ بلحافين كي يتعرّق، بكى شاكياً وطلب أن يتخلصوا من السيف الذي تركه تحت الوسادة الشيطان الشرير أصلان – بالاسار. اضطروا إلى رفع الوسادة، وأروه أن المكان تحتها خال من كل سيف، لكن آكوب لم يهدأ، تدحرج إلى الطرف الآخر من السرير، ماداً يده نحو النافذة – انظروا، إنه هناك، ينتظر أن تسنح له فرصة، فيأتي ويقتلنا بسيفه. حمله فاسيلي إلى غرفة أخرى، بعيدة عن النافذة السيئة الصيت، لكن هذا لم يساعد أيضاً – ظل آكوب يبكي دون توقف ويرجوهم أن يبعدوا السيف، وإلاّ فإن أحداً لن ينجو. ظلت نوبة الحمى طول الليل، ولم تفارقه إلا عند الفجر، أما الفتى فاستيقظ في منتصف النهار، والمدهش أنه استيقظ صحيحاً لا يشكو إلا من بعض الضعف، ولا يتذكر شيئاً سوى أنه فقد الوعي بسبب رعب أصاب روحه بالشلل – أحس بكائن مخيف موجود خلف ظهره فسقط بلا وعي. منذ ذلك اليوم تكررت نوبات الحمى مرة في كل شهر، وأحياناً تتكرر أكثر من مرة في الشهر، وكان آكوب يظل عدة أيام بعد النوبة يخاف من العتمة ويحاول عدم البقاء وحيداً. وقد فعل فاسيلي كل ما يستطيع لمساعدة أخيه، – أخذه عدة مرات إلى الوادي للعلاج، وذهب به إلى مفسري الأحلام، والمعالجين بالرقى، واستعان بالخوري. ومن المؤسف أن هذه المحاولات كلها لم تنجح: الأطباء لم يجدوا أي انحراف في صحة الفتى، ولم تنفع الرقى والتعويذات، ولم يستطع مفسرو الأحلام رغم كل حملقاتهم في كراتهم الزجاجية أن يروا شيئاً، أما الأب عازاريا الشاب الذي دعي إلى المنزل، ووصل قبيل دخول الفتى في نوبة حمى جديدة، فصلّى ودعا له عدة ساعات ليلية صعبة، لكنه لم يستطع احتمال التوتر الروحي الذي انتابه فبكى في عجز ضاغطاً جبينه براحة يده الساخنة.

الوحيد الذي استطاع فهم أسباب نوبات آكوب المؤلمة هو ماغتاخيني. فهي، على عكس فاسيلي الذي حرص على عدم التحدث إلى أخيه بشأن المرض كي لا ينكأ جرحه ويجعله يعاني من جديد، راحت تستدرجه بليونة، ولكن بثبات، للتحدث عن ذلك، وتجمع نتف الذكريات وقطعها المتناثرة في لوحات تكون في البدء بلا معنى. وتعلمت بمرور الوقت، أن تتنبأ بحدوث النوبات، صحيح أنها لم تكن قادرة على تفسير كيفية حدوث ذلك لزوجها، لأنها كانت تشعر باقتراب النوبة بالحدس حصراً، معتمدة في ذلك على إحساسها وتخميناتها. كان آكوب في الأيام التي يحتمل فيها حدوث النوبة، يبقى في البيت تحت رقابتها، أما فاسيلي الذي يفقد مساعدة أخيه له، فيضطر إلى البقاء في ورشة الحدادة ليلاً ونهاراً تقريباً لإنجاز أعماله. غير أن ماغتاخيني رغم حرصها الشديد على إبقاء آكوب تحت نظرها، لم تستطع أبداً أن ترى لحظة بدء النوبة عنده، وهذا ما كان يزعجها ويثير غضبها، لأنها عرفت، بوحي ما، أن سر مرض الفتى يكمن بالضبط في تلك الثواني القليلة التي تسبق فقدانه الوعي. أما فاسيلي فكان ينظر إلى قناعات زوجته بوصفها نوعاً من الأوهام، وكان يسخر منها أحياناً، لكنه، في أعماق روحه كان يأمل في أن تستطيع ماغتاخيني، رغم كل شيء، أن تعرف سبب مرض أخيه الغريب.

وذات يوم، بعد انقضاء عامين طويلين يئس فيهما الجميع وتملكهم الإحباط، استطاعت ماغتاخيني، رغم كل شيء، أن تفعل ذلك. في ذلك اليوم بقي آكوب في البيت نتيجة إلحاحها، وراح ينضد قطع الحطب في المكان المخصص لها، وفي الشرفة رقد في المهد ملفوفاً بغطائين سميكين "كارابيت"، ابن أخيه البكر، البالغ من العمر عاماً. حين تأكدت ماغتاخيني من أن الطفل قد أغفى، نزلت إلى الفناء لتكون أكثر قرباً من آكوب، لكنها ما إن نزلت عن آخر درجات السلم، حتى سمعت آكوب يقول نصف هامس دون أن يلتفت نحو الشرفة: سيسقط الطفل الآن. استدارت ماغتاخيني وصرخت خائفة – بمعجزة ما تخلّص الطفل من الغطائين، وتدلى خارج السرير منحنياً نحو الأسفل،

فوق الحافة الخشبية الواطئة. اجتازت السلم بثلاث قفزات، وحملت ابنها بين ذراعيها، ضمته إلى صدرها، قلبها راح يدق عالياً وكأنه لم يعد في قفص الصدر، بل صار خارجه. بعد أن هدأ خفقان قلبها قليلاً، سارت إلى حافة الشرفة قلقة، فرأت ما توقعت أن تراه – في وسط الدار، فوق كومة الحطب المقطع، تمدد آكوب وقد صرعته النوبة وشحب لونه شحوب الموت، وهو يئن متألماً من الحرارة الفظيعة التي كانت تحرق أحشاءه.

– أيكون سبب مرضك هو أنك تستطيع التنبؤ؟ – سألته ماغتاخيني في اليوم التالي بلهجة من يقترح تفسيراً.

أغمض آكوب، الذي لم يكن يذكر سوى الرعب الذي جمّد روحه، عينيه في عجز.

– لست أدري.

بعد انقضاء بعض الوقت شهدت حدوث النوبة بيخلفانتس ماريام. التي جاءت تطلب قليلاً من دقيق الذرة. كانت ماغتاخيني تحمّم الصغير، وآكوب يقف إلى جانبها حاملاً المنشفة في حالة استعداد، لكنه تراجع خطوة إلى الوراء، وضع يده على الجدار، اتكأ عليه، جحظت عيناه وتهاوى إلى الأرض ببطء، وقبل أن يفقد وعيه بثانية، قال وهو يكزّ على أسنانه: الأسطى سامو. دسّت ماغتاخيني الطفل المبلول بين يدي ميريام، أما هي فهرعت إلى آكوب.

– لا تسألي عن شيء، – قالت من فوق كتفها، – ألبسي الطفل ثيابه، ثم اذهبي إلى سيربوي، أنذريها بأن مكروهاً قد حلّ بوالدها.

وجدوا الأسطى سامو، الراعي، على طرف غابة السنديان. كان العجوز ممدداً محاطاً بقطيعه الصموت المخلص، يبكي متألماً كالطفل – خطا خطوة غير موفقة فوقع فكسر فخذه.

شاع خبر قدرة الأخ الأصغر للحداد فاسيلي، على التنبؤ بالكوارث، سريعاً في القرية. وصار الناس يجيئون إليه ليعرفوا مستقبلهم، لكن آكوب كان يبسط يديه في عجز – إنه من حيث الرؤية – يرى، غير أنه لا يتذكر شيئاً. استقبل أهل القرية إجاباته المضطربة بعدم ثقة، وزعلوا، واتهموه بعدم التعاطف وانعدام الرغبة في المساعدة. وكانت أشدهم تطرفاً العجوز باراندزيم التي ماتت طيورها الداجنة كلها بمرض غير معروف، فقررت، وهي تحس بفرح غامض، أن سبب ذلك هو نوبات آكوب، وأشاعت في القرية أنه يتنبأ بالكارثة بل يستدعيها.

لم يكن أحد من أهل القرية يحبها بسبب مزاجها الشرير ولسانها السفيه، ولكن بعض المارانيين، مع ذلك، صدّق إشاعات باراندزيم واتخذ من آكوب نذير شؤم. صاروا يخبئون أولادهم منه، ولا يجيئون إلى ورشة الحدادة إذا كان فيها، وينتقلون إلى الرصيف المقابل وهم يرسمون شارة الصليب خائفين، إذا التقوا به في الشارع مصادفة.

استقبل آكوب تصرفهم هذا ببرود غير عادي لمن هم في مثل سنه، بل إنه فرح بذلك – ليفكروا كما يشاؤون، المهم ألاّ يحاصروه باهتمامهم الملحاح، لكن هذا التصرف تجاه آكوب أحزن أخاه فاسيلي وجرح قلبه، فحاول عدة مرات التفاهم مع أبناء قريته، اختلف معهم، وصاح، واشتعل غضباً، محاولاً إقناعهم بخطأ موقفهم، وخاض شجارات، غير أن ذلك أدى إلى تأثير عكسي – صار المارانيون يتجنبون الالتقاء به أيضاً. لم يؤثر ذلك في حجم العمل في الورشة على كل حال – الخوف خوف، ولكن المجرفة المتينة التي تخدم طويلاً ولا تتحطم سريعاً بسبب تكسير الحجارة المستمر (والحجارة في قمة مانيج – كار ليست أقل من التراب)، لا توجد عند كل حدّاد. لذا فإن المارانيين ظلوا يترددون على الورشة، وظل فاسيلي، رغم زعله، يستقبل طلباتهم في صمت، ويقوم بعمله على أفضل

وجه يستطيعه – بحرص، وإخلاص، وفي حالات كثيرة بالتقسيط، فهو لم يكن يرفض أبداً تأجيل الدفع بالنسبة إلى من لا يستطيع دفع الثمن الآن.

لقد كان من الممكن أن يستمر التوتّر الذي نشأ بين أهل القرية وأسرة فاسيلي، أعواماً كثيرة، وأن يتحول الحداد وأخوه إلى شخصين منبوذين، لولا ذلك الحدث الذي وقع في الربيع فقلب موقف ماران من آكوب رأساً على عقب بالمعنى الحرفي للكلمة. في ذلك الوقت كثرت نوبات الحمى وصارت شديدة إلى حدّ يدفع إلى الاعتقاد عند كل نوبة بأنها ستكون الأخيرة. ياسامان التي كانت بقرب الفتى دائماً، دافعت عن صحته قدر استطاعتها. حضّرت خصيصاً لعلاجه مجموعة من الأعشاب، التي كان من المفترض أن تعينه على احتمال آلام النوبة الشديدة. كان آكوب ينفذ تعليماتها بحرص: يشرب المحاليل المرة، ويترك النوافذ مفتوحة عند نومه أياً كان الطقس، ويستحم بماء بارد، ويتنفس بالطريقة التي علمته إياها – خمسة عشر شهيقاً وزفيراً عميقاً في الصباحات، بعد الاستيقاظ مباشرة، ومثلها قبل النوم. مما لا شك فيه أن العلاج ساعده، لأنه لم يصب بأي مرض جدي، ولا حتى بنزلة برد عابرة، أما جدري الماء الذي اجتاح القرية ولم ينج منه أحد، حتى كبار السن، لم يقترب منه وكأنه لم يلاحظه. لكن العلاج الذي حددته ياسامان عجز عن شفاء نوبات الحمى. النوبات الثقيلة المضنية صارت شديدة إلى حدّ لا يستطيع آكوب احتماله، فيغيب عن الوعي لحظة مداهمتها له، دون أن يتوفر له الوقت للتحذير من الكارثة القادمة، بل دون أن يتسنى له مجرد إدراك ما أصابه.

بعد أن يئس فاسيلي من إيجاد وسيلة للتخفيف من آلام أخيه، أخذه في رحلة ثانية إلى الوادي لمقابلة الأطباء، غير أن هذه الزيارة لم تقدّم شيئاً جديداً، بل إنهم، حين لم يجدوا لدى الفتى أية انحرافات، اقترحوا عليه أن يتركه في مستشفى لمعالجة المرضى النفسيين، وكان هذا أفضل ما اهتدوا إليه. ثارت ثائرة فاسيلي فأخذ أخاه آكوب وغادر وفي نيته ألا يعود أبداً إلى الوادي بعد اليوم.

– إذا كان مقدراً له أن يموت في نوبة، فأن يحدث هذا وهو بين يديّ أفضل من أن يحدث وهو بين المجانين، – هذا ما قاله.

كان آكوب يتألم لحال فاسيلي، أكثر مما يتألم لحاله، لذا لم يكن يشكو ويئن أبداً. كان يحرص على مقاومة الإحباط – حين يجتاز نوبة الحمى، ينطلق إلى العمل في الورشة – كان يعمل بهمة وحماسة، لا يطلب لنفسه أية تسهيلات، ويزعل كثيراً إذا اقترح عليه فاسيلي أن يرتاح أو إذا خصّ نفسه بالقسم الأصعب من العمل. وكان يشعر بامتنان لا نهائي للرعاية التي تحيطه بها ماغتاخيني، ويحبها حبه لأخته، وكان لطيفاً وودوداً في معاملته لأبويها العجوزين اللذين عانيا معاناة حادة من الحالة الصحية المتردية لابنتهما الصغرى شوشانيك، الأمر الذي أثّر تأثيراً قوياً في حالتهما الصحية، فانشلّت ساق بيتروس اليسرى، أما زوجته التي هزلت بسبب الأرق، فرقدت مصابة بالمرض العصبي المعروف شعبياً باسم مرض جيمجانك – مرض المساء [12] . كان آكوب يساعد باندفاع في أعمال المنزل – يكنس، يغسل الملابس ويرفوها، يلاعب أبناء أخيه الصغار الرائعين، الذين بلغ أكبرهم السابعة من العمر، وبلغ الأوسط الخامسة، أما الأصغر فكان له من العمر ثلاث سنوات. كان الأطفال الثلاثة يعرفون مرض عمهم، لذا كانوا يمشون في المنزل على رؤوس أصابعهم، تاركين له الفرصة كي ينام في هدوء بعد نوبة الحمى الصعبة. وكان قلب فاسيلي يقطر دماً وهو يراقب أبناءه، وأخاه، وماغتاخيني البائسة الممزقة بين العناية بوالديها المحتاجين للعناية، وأسرتها، وكان كلما حلّ كانون الثاني من كل عام يتنهد بارتياح، أملاً في أن يكون العام الجديد أرحم وأكثر سعادة من سابقه، ثم يؤكد في كانون الأول بمرارة، أن الحياة لم تفكّر في أن تكون أسهل، بل حملت معها المزيد والمزيد من المحن الجديدة.

الحدث الذي غير نظرة المارانيين إلى آكوب، سموه فيما بعد – اليوم الذي حمانا فيه حفيد كودامانتس أروسياك الأصغر من الموت. على منحدر مانيج – كار في الجهة الأخرى المقابلة لتلك التي انهارت في الزلزال وسقطت في الهاوية، التمعت أرض جرداء عريضة وعميقة – هناك، عاماً بعد عام، بعد ذوبان الجليد مباشرة، يجري سيل من الطين جارفاً تحته حرجاً من الشجيرات البرية النامية بعناد. وقد اعتاد الناس منذ زمن على سماع الهدير المدوي للسيل الطيني المندفع إلى قلب الهاوية، كان السيل ينحدر دائماً في طريقه المعتادة، تاركاً خلفه خطاً مبتلاً محفوراً في الجبل تفوح منه رائحة الصقيع والوحل. ثمة نتوء بركاني ضخم كان يحمي القرية من السيل. النتوء يرتفع كجدار يعلو قليلاً بيوت القرية المتطرفة، – مرة بعد أخرى يرتطم بجنبه الصخري الذي لا يقهر، سيل الوحل، ثم ينعطف يميناً ويمضي في طريقه، دون أن يسبب لماران أي أذى. وكان الناس يؤمنون إيماناً قاطعاً بثبات النتوء الصخري الذي صمد حتى في مواجهة الزلزال، وينظرون إلى السيل نظرة لا مبالية – فأي معنى لأن تخاف من شيء لن يصل إليك في أي يوم من الأيام؟

ذات يوم رأى آكوب في إحدى نوبات الحمى أن النتوء لن يصمد. تلك كانت الرؤيا الوحيدة التي تذكر، بعد ان أفاق من غيبوبته، كل تفاصيلها وكأنها أمام عينيه: السيل يندفع إلى الأمام تياراً صقيعياً قاتلاً، يمزق إلى شظايا صغيرة الصخرة المنقذة، ويمضغ بصوت مسموع فظيع القرية بيتاً بيتاً، ويخفيها في الهاوية، دون أن يترك أثراً لأي شيء حي.

لم يعر آكوب الأمر اهتماماً وعدّ تذكّره للرؤيا خدعة عادية من خداع الذاكرة، إذ لم يحدث من قبل أبداً أن تذكّر شيئاً مما يراه. لكنه ذهب في اليوم التالي، مدفوعاً بقلق غامض، إلى المنحدر الشرقي، ليتأكد من أن الوضع عادي هناك. استغرق اجتيازه المنحدر عرضياً ساعة كاملة، كانت الصخرة البركانية الضخمة ترتفع عند طرف القرية كتلة واحدة متماسكة ليس فيها أي شق، وتبدو صامدة صموداً مطلقاً. هدأ قلق آكوب بما رآه، فمدّ عباءته عند أسفلها الذي غمرته الشمس، وتمدد مسترخياً مانحاً نفسه فرصة للراحة، متجهاً ببصره نحو السماء. كانت الأرض باردة ولكنها كانت مغطاة بخطوط رقيقة من العشب. زهور الثلج ذبلت وأفسحت المجال لزهور البنفسج الجبلي ذات اللون الأزرق الفاتح، التي تفتحت وريقاتها في استحياء، لكنها ما زالت تتمهل في الإزهار.

كانت الريح ساكنة تقريباً، وغيمة حنون، واطئة تكاد تلامس رأسه، تتشبث بقمة مانيج – كار بذيلها الشفاف الأبيض كالثلج، تعوم ببطء ساكبة هدوءاً حليبياً في المكان... وضع آكوب راحة يده تحت رأسه وابتسم، وعبّ ملء صدره الهواء المشبع بغبار ثلجي لا وزن له، أغمض عينيه – وفجأة رأى في الطرف الداخلي لأجفانه هوّتين – دوامتين تدوران بسرعة فظيعة، تطحنان بأكفهما الجليدية وتحوّلان إلى غبار ميت كنيسة ماران الحجرية، ورأى حين دقق النظر قبة صليبها الذي التمع في الهوة المعتمة كطائر وقع في الفخ، يحاول الاندفاع نحو الأعلى باسطاً أجنحته الرقيقة في طيران عبثي.

خلُص آكوب من الغيبوبة الجليدية بقناعة راسخة مفادها أن النتوء الصخري البركاني لن يصمد هذه المرة، وأن الإمكانية الوحيدة لإنقاذ القرية هي في بناء جدار حجري بينه وبين البيوت في الطرف الشرقي. لم يكن من الصعب عليه إقناع أخيه بالخطر الذي يتهدد ماران، فقد كان فاسيلي يصدق كل ما يقوله آكوب دون جدال. ولكن كيف يمكنه أن يقنع بقية الرجال، ولا سيما أولئك الذين يقفون ضده بشكل قاطع، علماً بأن الوقت المتاح لهم لبناء الجدار قليل جداً، وبناء جدار الإنقاذ يحتاج إلى أيدي أهل ماران؟

فكّر آكوب قليلاً، ثم ذهب إلى ميليكانتس فانو، الذي يكنّ له أهل ماران احتراماً خاصاً، وهل كان بمقدورهم إلا أن يفعلوا ذلك تجاه الشخص الذي فعل كل ما يستطيع كي ينمّي قطيع «سفينة نوح»

وينقذ بذلك القرية من الموت؟ استمع إليه فانو، لم يقاطعه، ولم يطرح عليه أسئلة، ولم يعده بشيء. ودّع آكوب وذهب إلى ورشة الحدادة حيث تحدث مع فاسيلي. وفي مساء ذلك اليوم جمع في داره كل سكان ماران الذكور. الأخوان كودامانتس لم يعرفا بأية كلمات أقنع فانو الرجال، لأنهما رفضا حضور ذلك الاجتماع رفضاً قاطعاً، فاسيلي – لأنه ما زال منزعجاً من موقف أهل قريته المتشائم تجاه أخيه، – وآكوب – لأنه لم ير أية ضرورة لحضوره.

استغرق بناء جدار حماية الطرف الشرقي من ماران مدة شهر تقريباً، وفي بداية أسبوع الآلام كان الجدار يلف النتوء الصخري من الجهة التي استقرت فيها آخر ثلاثة دور في القرية. وقد تم، بناء على إلحاح آكوب، تدعيمه بأعمدة متينة وبأكياس ملؤها تراباً. وصل السيل عشية أحد عيد الفصح، في الوقت الأكثر سكوناً ورهبة من الليل – قبيل الفجر. لم يستطع الناس، بسبب الإعصار الثلجي الذي ابتلع القرية، أن يروا ما حدث في العتمة، لكنهم لم يجدوا في الصباح الباكر سوى القسم السفلي من جدار الحماية – أما القسم العلوي فقد تلقى القوة الفظيعة لضربة السيل، فتحطم وسقط في الهاوية جارّاً معه الأعمدة وأكياس التراب، ولم يبق في مكان النتوء الصخري الذي حمى القرية مئات كثيرة من السنين، سوى فلاحة فظة – وكأن أحدهم فلح منحدر مانيج – كار بمحراث ضخم، وراح يشق كتفه الحي بحدّ مجرفة عريض.

اقترب آكوب من الجدار الذي تهاوى نصفه، ووضع راحة يده فوقه وأصغى، ثم التفت إلى أهل قريته:

– أمامنا عام كامل كي نعيد بناءه. أنا أسمع هدير سيول أخرى، لن تكون قوية كهذا ولن تلحق الأذى بالقرية، لكن، علينا مع ذلك أن ندعّم الجدار، من قبيل الاحتياط.

أفسح المارانيون الطريق لمنقذهم في صمت، وبعضهم مدّ يده لمصافحته قائلاً: سامحني. حرّك آكوب رأسه بالنفي وقال:

– لا شيء يستحق الاعتذار.

مشى بين الحشد، نحلياً، مرهقاً، لونه يشحب بسرعة وعيناه قلقتان، لونهما كلون الرماد البارد. فاسيلي الذي كان يتابعه ببصره، شعر على الفور بحدوث مكروه، فأسرع يزيح الناس بكوعيه، واستطاع الإمساك بأخيه قبل لحظة من سقوطه في حالة إغماء. سخن جسد آكوب إلى درجة فظيعة، وتقلصت عضلات ساقيه وارتد رأسه إلى الخلف في حالة عجز، وانطلق من حنجرته أنين متواصل متحشرج. اضطرب الناس الذين رأوا للمرة الأولى نوبة الحمى، وجمدوا خائفين، غير أنهم، بعد لحظة، رفعوه على أيديهم وساعدوا في نقله إلى البيت. أخذت ماغتاخيني الأولاد إلى بيت والديها، كيلا يخيفهم أنين عمهم، وحين عادت وجدت زوجها الذي أرهقه القلق على أخيه، بالقرب من سرير آكوب – بماذا أستطيع أن أساعدك، بماذا؟ – كان فاسيلي يكرر هذه العبارة ممسكاً يدي أخيه الذي كان يتلوى ويهذي بفعل الحمى. عانقت زوجها وضمت رأسه إلى صدرها، فقام بمحاولة ضعيفة للإفلات، لكنه سرعان ما استسلم وأجهش بالبكاء – لا أستطيع الاستمرار هكذا، لا أستطيع احتمال المزيد.

استمرت نوبة الحمى في صباح اليوم التالي على غير العادة. كان آكوب يفقد الوعي تارة، وتارة يعود إليه وعيه، يتقلب في السرير، ورأسه يتصدع من ألم لا يحتمل، وعيناه تلتهبان، وكأن سيخين ناريين دُسّا في حدقتيه.

في الساعة العاشرة حين غمرت شمس نيسان بنورها القرية من أقصاها إلى أقصاها، وبدأ القداس الاحتفالي في الكنيسة، حمل فاسيلي أخاه وخرج به من المنزل، وإلى جانبه ماغتاخيني ترشده

إلى أين يجب أن يذهب. بعد أعوام، حين هدّها المرض أخيراً، حوّلت حياة زوجها، بعدم رضاها، وشكواها المستمرة، إلى عذاب لا نهاية له، وكان فاسيلي لا يسمح لنفسه بالرد على كلامها. كان يصبر إلى النهاية، وحين ينفد صبره تماماً يقود زوجته من يدها إلى أبعد غرفة في المنزل، فيغلقها عليها، ثم يتأكد دون أن تلحظ ذلك، أن السلم الخشبي موجود تحت النافذة، ويمضي إلى ورشة الحدادة ليقضي هناك نهاراً بلا معنى. ماغتاخيني كانت تشتكي من مصيرها المر، ومن أهلها ناكري الجميل، ومن الألم الذي لا يطاق المقيم في روحها منذ مقتل أولادها، لكنها لم تذكر أبداً اسم آكوب، ولم توجه اللوم إلى زوجها بسبب السهر اثنتي عشرة سنة طويلة، حين كانت المناوبة ضرورية قرب سرير المريض، ليس من أجل مساعدته بل فقط من أجل البقاء إلى جانبه.

خرج فاسيلي في ذلك الصباح إلى الشرفة لكي يطلب من زوجته أن تغير أغطية فراش آكوب التي بللها العرق، أما هي فكانت واقفة مستندة إلى السور الخشبي، ضاغطة يديها إلى صدرها، ناظرة إلى تلك الزاوية من الفناء، حث سيضع فاسيلي بعد ثلاثين عاماً البيت المخصص للكلب. التفتت ماغتاخيني حين سمعت وقع خطاه وقالت: أنا أعرف لماذا يعاني كل هذا الألم، إنه يتألم لأنه في كل مرة يصارع الموت، منتزعاً من بين مخالبه حياة أحد الناس، لكن الموت لا يغفر له ذلك ولذا يعذّبه بنوبات الحمى. لم يجد فاسيلي ما يجيبها به، نظر إليها كمن صعقته الصاعقة، واكتفى بالتقاط الهواء عبر فمه. أما ماغتاخيني، فصمتت قليلاً ثم تابعت: لا تقلق، أنا أظن أني فهمت ماذا يجب أن نفعل، دثّره باللحاف وأخرجه من البيت، سنذهب إلى الساحة. فاسيلي فعل ما طلبت، أخرج أخاه من البيت، كما فعل في تلك الليلة الصقيعية من ليالي المجاعة، حين حمله وعمره خمسة أعوام، ومضى به إلى حافة الجرف حيث عرف أن الوادي كله مضاء بأضواء زرقاء، ومشت إلى جانبه ماغتاخيني صامتة ضاغطة يديها إلى صدرها، وبدت ماران قرية ميتة – الناس ذهبوا إلى قداس العيد ولم يبق غير الحيوانات المنزلية والطيور الطائرة في السماء، شهوداً على نقلهما للفتى المضنى المحتضر إلى الساحة. الساحة المغسولة، النظيفة بمناسبة أحد الفصح، التمعت في ضوء الشمس، كقطع الزجاج المصقولة التي يلتقط بها الأطفال انعكاسات الأشعة. قادت ماغتاخيني فاسيلي إلى وسط الساحة، وطلبت منه أن يزيح اللحاف ويمدد آكوب على الأرض – استيقظ آكوب فوراً بفضل البرودة، وفتح عينيه، جثت ماغتاخيني على ركبتيها إلى جانبه، ومسّدت وجنتيه وجبينه: آكوب – جان، قل إنك لم تعد ترغب في ذلك، أنا لم أعد أرغب في ذلك، همس آكوب محركاً بصعوبة شفتيه الشاحبتين، لا تقل ذلك لي، قله له، صرخت ماغتاخيني غاضبة، أنت تعرف من يعذبك، قل له إنك لم تعد ترغب في ذلك، اصرخ مرة واحدة، لكن بصوت ترغمه على سماعه. وافق آكوب بهزّة خفيفة من رأسه، أغمض عينيه، عبّ نفساً عميقاً، وأطلق من داخله عويلاً حاداً يجرح الحلق، مخيفاً إلى درجة لا تحتمل. هذا العويل تحول إلى آلاف من الشظايا الجليدية، انغرس في روحه، قلب باطنها ظاهرها، أخمدها، سلبها إرادتها، حوّل داخلها الأعزل إلى تنفس بارد برودة لا تطاق لمراوح تدور تحت أجفانه ثم تنفجر لهباً يعمي البصر ويملأ كل شيء فلا يترك أي أمل في إنقاذه. تعلّقت روح آكوب فوق الهوّة السحيقة الباردة بغصن صغير بائس ثم هوت إلى أسفل، إلى أعماق الهوة الباردة أبداً، الغارقة في ظلمة الموت. ولكن، في اللحظة الأخيرة تماماً، حين تهاوت الأعمدة السماوية كلها، وانهارت آخر الركائز، حين غطاها الزمن بصقيع الأنفاس الخالية من الروح، في هذه اللحظة القصيرة جداً، استدارت وتحررت كي تطلق صرختها الحارقة: أنا لم أعد أرغب في ذلك. أصابها الصمم، انقذفت أرضاً، انجرفت نحو الأعماق، اصطدمت بالضفاف الشيطانية، امتصتها العتمة، مزقها ألم فظيع، فسالت نقاطاً زئبقية في الفضاء، تشعل في ظلمة جسده متاهات نارية مضيئة. وفجأة، عند الحافة تماماً، حين لم يبق شيء عدا القدر المحتوم، حين محا الألم الخط الفاصل بين الحياة والموت، وأطفأ الضوء الأخير، حلّ الصمت المطلق:

«انهض!» – أمر أحدهم بصوت لا يحتمل الاعتراض.

ففتح آكوب عينيه.

منذ ذلك اليوم الذي ظهرت فيه ماغتاخيني، صارت حالة أناتوليا الصحية تسوء باستمرار – إنها الآن – بالإضافة إلى الضعف العام، مرهقة بالغثيان الفظيع، لا تستقر في معدتها أية لقمة طعام. وإذا كانت في شهر آب قد اشتكت من زيادة الوزن، فإنها في تشرين الأول هزلت إلى حدّ صار من الممكن معه أن يعدّ المرء أضلاعها كلها بأصابعه، وقد استيقظ فاسيلي في إحدى الليالي على صوتها وقد عجزت عن الوصول إلى المرحاض – خذلتها ساقاها بسبب الضعف، فجلست على الأرض وأجهشت بالبكاء دون توقف، نادبة، وشاكية مصيرها المرّ. ساعدها في قضاء حاجتها، وأعادها إلى الفراش، نفش الوسادة لتصبح أعلى، فذلك يخفف من شعورها بالغثيان.

ثم وضع إبريق الشاي على النار، وفي انتظار أن يغلي الماء، جلس إلى جانبها وصار يمسّد يديها. بكت أناتوليا – قالت إنها خجلة من عجزها، ومن أنها صارت عبئاً ثقيلاً على كاهله، لكن فاسيلي قاطعها قائلاً:– كلماتك هذه تزعلني، فأنا لا أستحقها. غلى شاياً ثقيلاً وسقاها إياه بالصحفة في حذر، كان ينفخ كل رشفة يصبها في الصحن الصغير كي يبرد الشاي قبل أن يقدمه لها، شربت أناتوليا ثلث الكأس – لم تستطع أن تشرب أكثر، أسندت رأسها إلى الوسادة، وأغمضت عينيها. أما فاسيلي فرقد إلى جانبها، عانقها بلطف، وقبّل صدغها.

– أنا مذنبة جداً بحقك، – قالت أناتوليا.

– لا تبدئي من جديد – قاطعها فاسيلي.

– دعني أكمل كلامي، – قالت ترجوه.

استمع فاسيلي إليها صامتاً وهي تروي نادمة قصة نزيف الدم وكيف أخفت ذلك عن ياسامان، وكيف تصرفت بأنانية فقبلت عرضه بالانتقال إلى بيتها فقط من أجل أن تصرفه، ثم كيف لم تجد بعد ذلك الكلمات الصحيحة كي تقنعه بعدم الإقدام على ذلك.

– كنت أعرف أن هذا الأمر لن ينتهي على خير، غير أني لم أستطع أن أقول لك الحقيقة.

– هل أنت نادمة لأننا نعيش معاً؟ – سأل فاسيلي.

– ما هذا الذي تقوله! – قالت أناتوليا بلهجة من يشعر بالذنب. – أنا نادمة لأني عقّدت حياتك.

– أنت لم تعقّدي حياتي، بل حياتك. لو أنك أخبرت ياسامان بقصة النزيف في الوقت المناسب لعرفت كيف تعالجك.

– لو علمت لما عالجتني. كانت ستطلب من ساتينيك استدعاء سيارة الإسعاف، وأنا لم أكن أريد الذهاب إلى الوادي. أنا كنت أريد أن أموت.

– لماذا؟

– لأني تعبت من الحياة.

– وأنت تريدين ذلك الآن أيضاً؟ – سأل فاسيلي وهو يضحك ضحكة ساخرة مرة،

أجهشت أناتوليا بالبكاء.

– أنا الآن أريد أن أعيش أطول فترة ممكنة.

انتظر فاسيلي حتى أغفت، ثم نهض بحذر، وضع العباءة على كتفيه وخرج إلى الشرفة. كانت ماغتاخيني تنتظره عند الإفريز. لم تكن هذه المرة تقف مديرة ظهرها له، بل كانت تواجهه، شكلها هو نفسه الذي بدت فيه يوم الإكليل في الكنيسة – صبية وجميلة، في ثوب فضي وشال مزركش يحيط بوجهها الرقيق. ابتسمت، لكنها لم تسمح له بالاقتراب منها – رفعت يدها محذرة.

– لماذا تجيئين؟ – سأل فاسيلي.

لم تجبه.

– منذ اليوم الذي ظهرت فيه صارت صحتها تسير من سيئ إلى أسوأ.

هل تأتين لأخذها؟

هزّت ماغتاخيني رأسها بالنفي محتجة كالأطفال.

– أرجوك ساعديها. أنقذيها كما أنقذت آكوب.

عند ذكره لاسم آكوب، التمعت ماغتاخيني وغطتها شرارات ذهبية اللون، وفي خلال ثانية اختفت، ذابت في الهواء بلا أثر. اقترب فاسيلي من المكان الذي كانت تقف فيه ولمس الإفريز. الإفريز دافئ وكأن إنساناً حياً كان يستند إليه.

وقف قليلاً، وعبّ من الهواء الخريفي الحاد ما ملأ صدره. في الشرق بدأ الفجر يبزغ طارداً ضباب الليل، وتساقطت باكورة الندى الشحيحة، وفي الصباح ستتساقط موجة ثانية وفيرة من الندى تفوح معها رائحة الأعشاب والتراب الرطب. وعلى طرف القرية ارتفع حائط الحماية – منذ اليوم الذي تخلى فيه آكوب عن موهبته، وتخلص نهائياً من نوبات الحمى اندفع اثنان وعشرون سيلاً من قمة مانيج – كار، لكنها كلها مرت بجانب القرية دون أن تتسبب لها بأي أذى.

أرسلت ساتينيك في الصباح الباكر برقية إلى الوادي. وبعد ساعتين من الفحص الأولي الذي اتسم بالدقة، حملت عربة الإسعاف التي ملأت المنطقة بضجيج بوقها، أناتوليا إلى المستشفى، تاركة القرية مذهولة بالخبر المفاجئ. فقد تبيّن أن ابنة سيفويانتس كابيتون وآغوليسانتس فوسكه الصغرى البالغة من العمر ثمانية وخمسين عاماً، متجاوزة في العمر آخر أقربائها بنحو نصف قرن، البنت التي عاشت زمن المجاعة، وعانت من البرد، والخيانة، والحرب، واستطاعت رغم المحن كلها أن تحتفظ بقلب طيّب وحس مرهف، حامل في شهرها الخامس.

الفصل الثاني

بعد مغادرة عربة الإسعاف راح المسنون في ماران يترقبون بقلوب واجفة الأخبار من الوادي، التي كان يحملها لهم إما موكوتش الذي يسافر إلى هناك لجلب البضائع، وإما ساعي البريد ماميكون، الذي كان بعناد كبش يقطع الطريق الطويلة الصعبة، مرتين في الأسبوع لكي يجلب إلى قسم البريد الصحف الممتلئة بالكلام الفارغ وأوراق الإعلانات.

من المؤسف أن الأخبار كانت قليلة، لأن المهجع المجهز تجهيزاً خاصاً، حيث وضعوا أناتوليا تحت رقابة الأطباء، كان مغلقاً، ليس فقط في وجه الزوار الغرباء، وإنما أيضاً في وجه فاسيلي. الشيء الوحيد الذي سمحوا له به هو أن يرسل إليها مع الممرضة وريقات مكتوبة بأحرف مطبعية مشوهة، ترد عليها أناتوليا برسائل طويلة مملوءة بتأكيدات تقول فيها إنهم يعاملونها معاملة ممتازة، ويطعمونها طعاماً لذيذاً، ولا يسمحون لها بالنهوض من السرير حذرَ أن تفقد الطفل – فللعمر حقه على كل حال، كل شيء سينتهي على خير، يا حبيبي، كتبت له أناتوليا، وكان فاسيلي، وهو يتهجى رسائلها مقطعاً، مقطعاً، يتوقف فيها كل مرة عند كلمتها الحنون ويكررها في سره – يا حبيبي، يا حبيبي. كان يقيم في فندق في الأطراف، يستغرق الوصول منه إلى المستشفى ثلاث ساعات، ولكي يدفع أجرة الغرفة الرخيصة غير المدفّأة اضطر للعمل زبّالاً، لقد استقبلوه في العمل من دون رغبة نظراً لكبر سنه، لكنهم ومع ذلك سايروه، وهكذا لم يعد بمقدوره أن يأخذ قسطاً كافياً من النوم، لأنه صار مضطراً أن يجمع بالمكنسة، منذ الصباح الباكر أوراق الخريف في الشوارع الضيقة في أطراف المدينة، ثم يجلس بعد ذلك أمام نوافذ المهجع الذي ترقد فيه أناتوليا حتى يُطفأ النور في الطابق العلوي من المشفى في وقت متأخر من الليل. كان يستطيع طبعاً أن يظل في ماران ويجيء إلى الوادي مع نيميتسانتس موكوتش، لكنه كان يخاف أن يغادر المدينة لإحساسه إحساساً غامضاً بأن مكروهاً لا يمكن علاجه سيصيب أناتوليا إذا ابتعد عنها. من الغريب أنه لم يفكر بالطفل أبداً، بل لم يكن مؤمناً جداً بوجوده، فالسرعة التي أخفوا بها أناتوليا في المشفى، والسرية التامة التي أحاطوها بها، دفعتاه للتفكير بأنها، أغلب الظن، مصابة بمرض لا يعرفه العلم كمرض آكوب، والسّر يكمن في أنه هو من فضح جهل الأطباء في حالة آكوب، ولذا هاهم الآن قد انتقموا لأنفسهم، فانتزعوا منه الإنسان الوحيد الذي يعدّه أغلى من حياته. فاسيلي لم يحدّث أحداً عن مخاوفه، ولم يكتب بذلك حتى لأناتوليا – فقد تقرأ الممرضة رسالته وتريها للرؤساء، فيمنعونه إلى الأبد من الظهور في المستشفى. لقد قام قبلاً بمحاولة لتخليصها من الأسر، جاء إلى رئيس الأطباء وطالب بإخراجها فوراً من المستشفى، فأراه الطبيب، الذي ارتبك في البداية، بعض صور الأشعة والأوراق التي ارتسمت عليها خطوط متعرجة غير مفهومة، ثم بدأ يشرح له الأمر، غير أن فاسيلي لم يستمع لكلامه، وطالبه بأن يسمح له بالدخول إلى المهجع، وحين قوبل طلبه بالرفض، سماه كلباً شارداً، فاستدعى ذلك أن يمسك الحراس بذراعيه ويقودوه إلى خارج المستشفى، والأمر الوحيد الذي يسمح له الآن أن يقوم به، هو إرسال الرسائل والجلوس قبالة نوافذ مهجع أناتوليا.

كان موكوتش يحمل إليه في كل أسبوع الأطعمة التي جمعها له أهل القرية العجائز، – خبز، جبن، جوز، فواكه مجففة، قليل من المخللات والسمن، وبعض الحلوى البسيطة – الكعك أو الكاتو. وكان فاسيلي ممتناً امتناناً لا حدود له لهذه المشاركة، لذلك اقتطع جزءاً صغيراً من النقود التي وفرها، فاشترى من مخزن الأشغال اليدوية خمس أطقم من أدوات التطريز على القماش ومجموعة من الخيوط الحريرية الملونة – وأرسلها إلى القرية، لا حاجة لتقديم الهدايا للرجال، أما النساء، فعندي رغبة في شكرهن، قال شارحاً الأمر لموكوتش.

تمنّع موكوتش في البداية، لكنه أخذ الهدايا بعد ذلك، وبعد مرور أسبوعين حمل إلى فاسيلي ثماني وسائد مطرزة متماثلة – طلبت العجائز إعطاءها لأناتوليا كي تنعم بنوم مريح.

لم يقبلوا في المستشفى استلام الوسائد قائلين إن أناتوليا ترقد في مهجع معقم، وأنهم ليسوا بحاجة إلى عدوى.

أشعر جوابهم فاسيلي بالإهانة، لكنه أبقى الوسائد في غرفته في الفندق كي يعيدها معه إلى ماران فيما بعد.

في أواخر شهر تشرين الثاني وصل من وراء المنحدر الشمالي، طرد بريدي كبير، فيه أطعمة وحوالات نقدية. حمل ماميكون هذا الطرد إلى الفندق والعرق يتصبب من جبينه، في البداية قرر فاسيلي أن الطرد مرسل إلى ييبوغانتس فالينكا، وأنه يجب تسليمه إلى موكوتش لإيصاله إلى ماران، غير أن ماميكون استاء من قراره وقال:– أنا ساعي البريد، وإيصال الطرود عملي، الطرد المرسل إلى فالينكا أوصلته في الأسبوع الماضي، وكاد من ثقله أن يقصم ظهري، أما هذا الطرد فلك من تيغران وزوجته، كيف كان اسمها؟ ذكّرني! آخ تذكّرت، ناستاسيا.

حوى الطرد معلبات لحوم وأسماك، وحليباً مجففاً، وبعض علب البسكويت المحلّى، ولحافاً ناعماً، ليناً أبيض كالثلج، مصنوعاً من نسيج يكاد يكون بلا وزن، ملفوفاً بعناية بورق هدايا مزركش.

– وهذا لمن. – سأل فاسيلي مندهشاً.

– لا بد أنه للطفل، – قال ماميكون وتمطّق بلسانه معجباً.

لم يعترض فاسيلي بل اكتفى بهز كتفيه. وضع اللحاف الصغير تحت الوسائد، والمعلبات على حافة النافذة، بعد أن حاول إعطاء ماميكون بعضها، لكن هذا طوّح بيديه في الهواء وتراجع نحو الباب وهو يقول: ماذا أصابك؟ هل جننت؟ أنت لا تملك ثمن قوت يومك ومع ذلك تحاول توزيع الطعام هنا وهناك!

النقود التي أرسلها تيغران كانت تكفيه ليدفع أجر الغرفة في الفندق لمدة شهرين مقدماً، تأثر فاسيلي لذلك، وذهب إلى دائرة البريد، فأرسل برقية ضمنها عبارات الشكر، وتعهّد فيها برد النقود فور توفّرها لديه. لم يتأخر الجواب على البرقية، ففي اليوم التالي جاءته عاملة في الفندق، بورقة مطوية أربع طيات، حاول فاسيلي أن يقرأها فلم يتمكن – كانت الأحرف صغيرة جداً، ولذا ذهب يطلب المساعدة من حارس الفندق، قلّب الحارس البرقية بين يديه، وضع نظارته، تنحنح منظفاً حلقه، ثم راح يقرأ متوقفاً في نهاية كل جملة وقفة ذات مغزى: «لا داعي يا عم فاسو لأن تردّ شيئاً. لي طلب وحيد – انتظر مجيئي. أنا من يجب أن يكون أبا الطفل في العماد.»

– أي طفل؟ – سأل الحارس رافعاً بصره عن البرقية.

حكّ فاسيلي نقرته، وتوخوخ، ثم وجد نفسه فجأة يحدث رجلاً غريباً عن المحنة التي حلّت بأناتوليا، وعن فرح الجميع بحملها الذي لا يصدق حدوثه، لأنه اعتاد ألاّ يصدق الأطباء. إذا حمل المولود بين ذراعيه – فذلك أمر آخر، معناه أنهم لم يكذبوا، أما إذا لم يحدث هذا – فسيضطر إلى محاربة المستشفى، لكنه لا يعرف الآن كيف سيفعل ذلك.

– طفل من؟ – لم يفهم الحارس.

– ابني أنا، قال فاسيلي الذي توتّر بسبب قلة فهمه، وأخذ البرقية ومضى إلى مركز البريد حيث أملى على عاملة البرق: «إذا وهبني الله – فسأنتظرك حتماً».

حين عاد ليلاً بعد مناوبته تحت نوافذ مهجع أناتوليا، رأى على عتبة غرفته شاباً كثير الحركة، أبيض كما لو كان مدهوناً بالطحين، دسّ أمام فمه علبة معدنية موصولة بأسلاك، وراح يثرثر بكلام عن حبل العجوز.

– أية عجوز؟ – سأل فاسيلي زامّاً عينيه.

– زوجتك، قال الشاب موضحاً، – حدثني كيف استطعت في أعوام شيخوختك أن تزرع جنيناً في رحم زوجتك، ولماذا احتجزوا زوجتك في مهجع في المستشفى؟ أتراها مصابة بمرض يشكل خطراً على المحيطين بها؟ أم أن الجنين الذي تحمله ليس على ما يرام؟

ضربه فاسيلي على قفاه، ودفعه بالرفسات على الدرج، ثم ذهب إلى الحارس، أنهضه ممسكاً بتلابيبه وظل يهزه في الهواء عدة دقائق، ثم هدّده بتحطيم عموده الفقري إذا حدّث بعد اليوم أحداً عن أناتوليا، وأنزله إلى الأرض برفق. بحث الحارس بيده عن ظهر الكرسي، جلس، صبّ لنفسه قطرات من علاج مهدئ، وارتعشت شفتاه على حافة الكأس.

في اليوم التالي استردّ فاسيلي النقود التي دفعها مقدماً للإقامة في الفندق، وانتقل إلى فندق آخر، غير أن الخبر الذي اقتنصته الصحافة انتشر سريعاً في الوادي، وظهرت الآن على صفحات الجرائد كلها مقالات عن امرأة عمرها يناهز المئة عام تعيش في قرية جبلية، حبلت بمعجزة، وراحت الأخبار تفقد منطقيتها يوماً بعد يوم وتتحول إلى هذيان: زعم بعضهم أن العجوز كانت المقيمة الأخيرة في القرية، وأنها حملت من روح شريرة، وأنهم سجنوها في المستشفى لأن الطفل الذي ستنجبه ليس إلا تجسيداً للشر ذاته، الذي سيأخذ سريعاً صورة إنسان، ويقتل الوادي كله. وعلى العكس من ذلك زعمت جرائد أخرى أن الروح القدس زرعت الجنين وأنه لن يمرّ وقت طويل حتى يظهر مخلّص جديد يقود البشرية إلى السلام والازدهار.

صارت مساحة المستشفى الآن محاطة بحلقة كثيفة من المتسكعين والمتعصبين دينياً والصحفيين الذين يعرقلون عمل الطاقم الصحي.

وقد اضطر هذا الوضع المستشفى إلى مضاعفة عدد الحراس ثلاث مرات، أما العاملون الصحيون فصاروا مضطرين عند المغادرة إلى استخدام ممرات تحت الأرض لها، لحسن الحظ، مخرج في بناء مجاور فيه مكتب قانوني مزدحم دائماً بالناس وخروج المرء من هناك متخفياً مختلطاً بالزبائن ليس أمراً صعباً.

وفي أحد مساءات شهر تشرين الثاني، بينما كان فاسيلي يتأمل المتسكعين عند إحدى الزوايا التقى بكبير الأطباء يقفز منكّساً قبعته فوق عينيه، ورافعاً إلى أعلى ياقة معطفه، من مكتب الاستشارات القانونية ويسير مسرعاً مبتعداً عن المستشفى. عرف الطبيب فاسيلي فأمسك بمرفقه وقاده بعض الوقت، دون أن يبطئ خطوه، قُدُماً في الشارع، ثم انعطف إلى أحد مداخل الأبنية، وبعد أن تأكد من أن أحداً لا يسمعهما، قال له بهمس مسموع:

– وجودك هنا خطر على حياتك. لست أدري من أين عرف الصحفيون بخبر زوجتك، وهم الآن لا يتركون أحداً يمرّ دون أن يعترضوا طريقه. سأترك لك عنوان بيتي، يمكنك أن تمرّ بي مرّة في الأسبوع للحصول على الأخبار. لا أنصحك بالمرور أكثر من مرّة فقد يقتفون أثرك.

لم يكن فاسيلي يملك الجرأة على الاعتراف بأن سبب هذا الصخب المحيط بالمستشفى هو صراحته غير الحذرة.

– كيف حال زوجتي؟ – سأل فاسيلي.

– ليست في أفضل حال، – قال الطبيب وهو يثبت القبعة على نقرته – الآن فقط لاحظ فاسيلي أن الطبيب شاب، في الثالثة والثلاثين، أو الخامسة والثلاثين في أقصى تقدير، لكنه يبدو أكبر سناً بكثير، بسبب الجيوب الداكنة تحت عينيه، وتعابير الإرهاق اللامتناهي البادية على وجهه، – ضغطها يهبط، والتحاليل ليست جيدة، ننتظر بلوغها الشهر السابع من الحمل كي نجري لها عملية قيصرية.

– عن أية سبعة شهور أشهر تتحدث؟ وأية عملية قيصرية؟

ألقى عليه كبير الأطباء نظرة متعبة، ثم انزل القبعة بشدة فوق حاجبيه، ودسّ أنفه في ياقة معطفه.

– هل أفهم أنك لا تصدق حتى الآن أن زوجتك حامل؟ حسناً، سنرى كيف ستغرّد حين ستحمل الطفل بين ذراعيك.

كتب له الطبيب العنوان بسرعة على ورقة، ثم اختفى في عتمة الليل.

حين وصل موكوتش من ماران بعد بضعة أيام، أخبر فاسيلي أن أناساً من الوادي ظهروا في القرية لأول مرة منذ نصف قرن، وأبدوا اهتماماً بأناتوليا، لكنهم، لحسن الحظ، زاروا في البداية ياسامان وأساؤوا لأنفسهم حين تقدموا كصحفيين، فأفانيس الذي شبع من قراءة صحافة الوادي لم يرتبك، بل أدار سبابته أمام صدغه، وصرفهم بسرعة، مؤكداً لهم أن ماران لم تعرف أبداً ساكنة بهذا الاسم. وبعد أن طاف فرسان الوادي نصف يوم في القرية دون أن يحصلوا على إجابات مفهومة من عجائزها، رحلوا عائدين بسلام من حيث أتوا، ولم يظهروا بعد ذلك.

بعد أسبوع لفّ فاسيلي في ورقة جريدة علبة من كونسروة السمك وعلبة بسكوت وتوجه لزيارة كبير الأطباء. الورقة التي كتبها الطبيب على عجل علّقها فاسيلي بدبوس على بطانة الجاكيت، ملاصقة لصدره، وهو لم يفعل ذلك كي تكون قريبة من نظره، بل بدافع الحرص عليها من الضياع – فهو لم يكن بحاجة إلى النظر فيها لأنه يتذكر العنوان منذ قرأه أول مرة: حي كيربيتشني، شارع الياسمين الأبيض، رقم 8. يقع بيت الطبيب عند منعطف درب ضيق مرصوف بالحجارة، إذا سرت فيه باسطاً يديك تستطيع أن تمسك بالحواجز الحديدية المتقابلة على طرفيه. ولم يكن في هذا الدرب، على الرغم من اسمه، أي شجيرات ياسمين، فباحات الدور كلها مغطاة بالبلاط، ومن أحواض واطئة موزعة هنا وهناك بمحاذاة الجدران، تطل نباتات زينة صناعية. أحس فاسيلي بالكآبة وضيق النفس من الرتابة التي لا وجه لها وهو يمشي بين منازل رمادية لا يبدو عليها أنها مأهولة، نوافذها مغلقة بإحكام بستائر ثقيلة غير شفافة.

كان يمشي، يلتقط بفمه هواء تشرين الثاني البارد، ويتوقف أحياناً ليسعل ويتخلص من مذاق هواء المدينة العالق في حلقه.

امرأة جميلة المنظر فتحت له الباب وقدته إلى غرفة الضيوف، فدهش فاسيلي من بساطة أثاث المنزل – كانت الغرفة مفروشة بموبيليا قديمة، على وجه الأريكة التي جلس عليها بحذر، وعلى ذراعيها غطاء اهترأ فظهرت الحشوة الفظة للأريكة من خلاله. قدمت المرأة نفسها باسم ماريا ثم اعتذرت لغياب زوجها عن المنزل – فهو اليوم مناوب، ومدت له يدها برسالة أناتوليا ثم أشعلت المصباح المدلى من السقف – ارتجفت قرونه البلاستيكية قليلاً ثم غمرت الغرفة بضوء أصفر شاحب، خرجت ماريا بأدب وتركته وحيداً. فتح فاسيلي الورقة المملوءة كتابة بأحرف طباعية (أناتوليا تكتب

بأحرف طباعية كي تسهل قراءة فاسيلي لرسائلها) فوجد في رأس الصفحة كلمة «حبيبي»، أطلق تنهيدة عميقة، وشرع يقرأ محركاً شفتيه في صمت. لكنه، للأسف، لم يجد جديداً، فما كتبته أناتوليا هو أن كل الأمور جيدة، وأن المهم هو أن تبقى حالتها مستقرة حتى الشهر السابع، حيث سيكون إجراء العملية الجراحية ممكناً.

نظر فاسيلي إلى الممر فلم يرَ أحداً – أبواب الغرف الأخرى كانت كلها مغلقة، لذا لم يشأ إقلاق راحة أهل البيت، وقرر المغادرة دون أن يودعهم. بعد دقيقة من مغادرته جاءت ماريا تحمل كأساً من الشاي وبعض الشطائر، فلم تجد أحداً، لكنها وجدت على طاولة الصحف الصغيرة علبة كونسروة السمك، وعلبة البسكوت، ومغلفاً وورقة صغيرة كتبت عليها أحرف طباعية مشوهة: «الريسالت لأناتولي والأكلات لكم».

سار فاسيلي في مساء شهر تشرين الثاني المعتم وهو يبكي من السعادة. لقد صدّق أخيراً أن أناتوليا لا ترقد في المشفى بسبب مرض عضال، بل لأنها تحمل تحت قلبها ابنه. الغريب في الأمر هو أن ما أقنعه بحبل زوجته ليس رسائلها، ولا نظرة طبيب الإسعاف حين جسّ بطنها برفق بأصابعه الثخينة القصيرة، ثم قال همساً بصوت غير واثق: «هذا مستحيل!» – ولا حتى التقارير الطبية التي فردها أمامه كالمروحة كبير أطباء المشفى الشاب يوم الفضيحة. ما أقنعه هو الأثاث المتواضع الذي رآه في بيته – هذا الرجل الذي يدير مشفى كبيراً ويعيش في هذه الظروف الصعبة، لا يمكن أن يمارس الخداع، قال فاسيلي في سره، وهو محق في ذلك طبعاً، فالمرء الذي تتاح له فرص كثيرة للسرقة ولا يقع ضحية للإغراء، لا يمكن أن يكذب.

بعد سبعة أيام كاملة، لفّ في ورقة جريدة علبة من سمك السايرا وعلبة بسكوت واستعد لزيارة الطبيب. لقد قضى الأسبوع الأخير وهو يقلّب في رأسه أفكاراً صعبة. فما إن هدأت فرحته، حتى تملّك روحه خوف ثقيل مظلم. إنه وأناتوليا قد فارقا سن الشباب منذ زمن بعيد، وسيغادران هذا العالم قريباً، فلمن سيتركان الطفل؟ أضف إلى ذلك أن ماران لا تصلح لحياته، فالطفل يحتاج إلى أشياء كثيرة – المدرسة، والألعاب، ومصادقة أتراب في سنه. من تراه سينمو إذا عاش بين عجائز القرية يودعهن واحدة بعد أخرى إلى العالم الآخر؟

تبادل فاسيلي الآراء حول مخاوفه مع ماميكون والأب عازاريا اللذين زاراه. وكان الاثنان، المعروفان بتناقض آرائهما دائماً، وفي كل موضوع، متفقين في هذه المرة بشكل يثير الدهشة، على الرغم من أن كلاً منهما قال رأيه بأسلوب مناقض لأسلوب الآخر.

– الرب لا يقبل اليأس... – قال الأب عازاريا بلهجة ذات مغزى. قاطعه ماميكون ولم يتح له الفرصة لإتمام كلامه:

– يشاء القدر ويبيض الديك في قنّك بيضة، فتحزن بدلاً من أن تفرح!

نظر إليه الأب عازاريا بطرف عينه ثم رفع بصره نحو السقف. فغمز ماميكون بعينه لفاسيلي، وغمرت الابتسامة تجاعيد وجهه:

– هل عكّرت مزاجك يا أبتِ المقدس؟

– أنت تسأل وكأني لم أعرفك إلا اليوم!

– الحق أن حياتك لم تكتسب معناها الحقيقي إلا منذ اليوم الذي عرفتني فيه!

ضحك الأب عازاريا ضحكة مكتومة، لكنه ظل صامتاً، خشخش بحبات مسبحته ثم أعاد

المسبحة إلى جيبه.

– أنا أقول لك يا فاسو، – سعل ثم تابع – من دون رغبة الرب ومعرفته، لا تتحول لحظة سعادة الإنسان إلى أيام وأسابيع، بل تبقى كما هي لحظة وحسب – سريعة وتزول سريعاً. اقبل السعادة بامتنان ما دام الرب قد أهداها لك. لا تسئ إلى نوايا السماء الحسنة بالشك، كن جديراً بالهدية التي أعطيت لك.

– لقد سبق أن أهدتني السماء مثلها، ثلاث هدايا كاملة، ثلاثة أبناء، – قال فاسيلي بصوت راجف. – الله أعطاني، والله أخذ...

– وإذن، هذا ما كان مقدراً عليك.

– يا أبت عازاريا، هل تستطيع الكلمات أن تعزي المرء؟ – قال فاسيلي معاتباً.

– إنه لا يرى أبعد مما هو مدون في كتبه المقدسة، لذلك هو يعزي بهذه الطريقة، أتمنى لو أسجنه في القبو، وأطمر المفتاح في التراب، كي لا يخرج من هناك، – قال ماميكون ساخراً.

– يا لك من زنديق! – زجره الخوري من دون حقد.

– فاسو، سأشرح لك الأمر بكلمات بسيطة، – قال ماميكون وهو يطوّح يده مشيحاً عن الخوري، – أقول لك بصدق – لو وقعت في ظرف مماثل لما أنت فيه لضاقت بي الدنيا أيضاً. غير أن الرجل رجلٌ لأنه قد يشك ولكنه لا يتراجع. هل أنا أقول الحق؟

– الحق، – قال فاسيلي موافقاً.

– حسناً، ما دمت أقول الحق، فذلك يعني أنك ستستطيع إدارة الأمور، تخلّص من الشك، ومن هذا التعبير الحامض الذي يكسو وجهك. لو رآك الناس لظنوا أن أسنانك تؤلمك، – هكذا ختم ماميكون كلامه.

ابتسم ابتسامة مقتضبة. لا يمكن القول إن كلام ماميكون نزع حجراً عن صدره، ولكنه ساعده بالتأكيد كي يتهادن مع تحولات الحياة غير المتوقعة، وأن يتفاءل.

كان الطبيب في المنزل حين زاره في المرة الثانية. هو نفسه فتح له الباب، وتنحى جانباً، كي يمر فاسيلي إلى القاعة الصغيرة. إلى اليسار من المدخل كرسي خشبي يبدو أنهم يستخدمونه عند انتعال أحذيتهم. وعلى المقعد علبة سمك الشبروت وعلبة البسكوت.

– اليوم أيضاً جئت بيدين غير فارغتين؟ – سأل الدكتور فاسيلي وأخذ منه الأغراض الملفوفة بورقة الجريدة. – أوه، علبة سمك السايرا. وبسكوت أيضاً. ضع هذه الأشياء هنا، ستأخذها حين تغادر.

– إنها هدية من قلب منزه عن الغرض... أرجو ألاّ تظن... – حاول فاسيلي تبرير سلوكه.

– أنا أيضاً أتكلم من قلب منزه عن الغرض. شكراً جزيلاً، لكن لا داعي لأن تأتينا بأي شيء. ادخل إلى غرفة الضيوف، خذ راحتك. يجب أن نتكلم.

ما إن جلسا، حتى دخلت إلى الغرفة ماريا حاملة ضيافة في صينية. نهض فاسيلي وهو ينقل قدميه في المكان مرتبكاً.

– اجلس من فضلك. اجلس، ابتسمت له، ووضعت الصينية على الطاولة. – ضيّفا نفسيكما، أما أنا فسأذهب كي لا أعيقكما.

صب الطبيب الشاي في كأسين، ووضع أمام فاسيلي فطيرة، وقرّب منه السكر. شكره فاسيلي وثبّت نظره عليه متسائلاً.

– كل، الفطيرة لذيذة جداً، ماريا صنعتها بنفسها.

– لا أستطيع ابتلاع شيء.

– طيّب، سنتكلم وبعد ذلك تأكل.

الحديث مع الطبيب لم يكن طويلاً، لكنه كان مقلقاً. حدّثه في البداية عن حالة أناتوليا الصحية. لم يفهم فاسيلي من شروحه إلا القليل، لكن لهجته القلقة أفهمته أن الحالة ليست جيدة تماماً، فقد أربك الطبيب ضغطها الواطئ، والزلال في البول، والوهن العام الذي لم يستطيعوا في المشفى التغلب عليه.

– يجب أن تصمد شهراً آخر، لكننا سنضطر، إذا لم تتحسن حالتها، إلى إجراء العملية قبل موعدها. – ضغط على ركبتيه بأظافره، ثم فرد يده حالاً، وكان واضحاً أنه قلق. – الأولوية بالنسبة إلينا في جميع الحالات هي لحياة أناتوليا، لذا سنعمل كل ما نستطيع عمله لإنقاذ حياتها.

– ما معنى الأو ولوية...؟

– معناها «المهم». نحن، إذا كان أمامنا أن نختار من ننقذ، فسنختار الأم. لكني أؤكد لك أننا سنبذل كل جهدنا، كي ننقذ الاثنين.

كوّر فاسيلي ثم أرخى عدة مرات قبضتيه الضخمتين المخشوشنتين بسبب عمل الحدادة الصعب. لم يرفع عينيه كي لا يفضح ما في داخله من يأس وألم.

انحنى الطبيب قليلاً فوق الطاولة ولمس يديه بحذر:

– كل شيء سيكون على ما يرام، أعدك بذلك.

– بماذا أكافئك على طيبة قلبك؟ – قال فاسيلي وقد تمالك نفسه أخيراً.

– بلا شيء. سأكون صريحاً معك إلى آخر حد – الحادث الذي وقع لكما فريد من نوعه، إذا سارت الأمور على ما يرام فسيرفع ذلك من مكانة مستشفانا، هل فهمت؟ إنها قضية مربحة لنا جميعاً – نحن نؤمن لزوجتك مجاناً رعاية ممتازة وعلاجاً ممتازاً، ونحصل مقابل ذلك، حين ينتهي كل شيء، على مساعدات مالية إضافية من الدولة، وعلى إمكانية إحداث مخبر أبحاث، وعلى زيادة في عدد المرضى الراغبين بالتداوي في مشفانا حصراً.

استمع فاسيلي بانتباه محاولاً أن يفهم كيف تسير أفكار الطبيب، متجاوزاً الاهتمام بالكلمات غير المفهومة التي كثرت في حديثه، دون أية مراعاة لجليسه.

– أي أن المهم بالنسبة إليكم الطفل؟ – سأل بحذر محاولاً التأكد.

– نعم.

– وستفعلون كل شيء من أجل ذلك؟

– نعم.

– ونحن لن ندفع لكم شيئاً مقابل ذلك؟

تلعثم الطبيب.

– الأمر الوحيد الذي أريد أن أطلبه منك – هو أن توافق على إجراء حوار صحفي مع جريدة جيدة جادة. حين سينتهي كل شيء، سنجري لقاء نتحدث فيه بالتفصيل عما حدث لكم. وأنت ستؤكد كل ذلك. وسنجمع في الوقت نفسه مؤتمراً علمياً نعرف فيه الزملاء بطرق العلاج التي اتبعناها. نحن هنا استطعنا المحافظة على حالة زوجتك بأساليب جديدة، نستطيع القول إننا ابتكرناها من خلال المراقبة. وإذا ما سار كل شيء بشكل جيد، فإن هذا سيعطينا الحق في أن نستخدم هذه الطرق في علاج نساء أخريات وهكذا ترى أنك ساعدتنا بأعلى درجات المساعدة ونحن نشكرك شكراً جزيلاً.

استمع فاسيلي إليه دون أن يقاطعه. وشجع صمته الطبيب فتابع كلامه:

– سيظل الطفل وأمه تحت المراقبة أسبوعين أو ثلاثة أسابيع، وقد تظل المراقبة شهراً، فنحن يجب أن نكون متأكدين أن كل أمورهما ستكون بخير. لا تقلق! سيكون بإمكانك بعد الولادة أن تزورهما. أنا لا أريد أن أتنبأ، لكني أعتقد أننا، إذا سارت الأمور على ما يرام، سنسمح بإخراجهما من المستشفى في منتصف شباط.

أحنى فاسيلي رأسه إحناءة صغيرة علامة الموافقة.

– ليكن الأمر كذلك.

تنفس الطبيب بارتياح.

– يجب أن تفهم أني لا أفعل ذلك من أجل الكسب المادي، – قال محاولاً تبرير عمله، – أنا...

– يا بني، أنا أثق بك، – قاطعه فاسيلي. – وليس هناك ما هو أسمى مرتبة من الثقة.

في أواخر تشرين الثاني هطل الثلج كثيفاً قبل موعده في التقويم السنوي، غمر الوادي حتى أعاليه بهسيس الصمت، وزاد في بريق الضوء، ومحا الألوان لم يُبق منها إلا الأسود الذي كان يظهر بحذر على سطوح منازله البيضاء بياض الثلج.

في الثالث والعشرين من كانون الأول أغفت أناتوليا، ولم تستيقظ في صباح اليوم التالي. أخاف ذلك الأطباء الذين جالوا في المهجع كسرب من النحل، لكنهم لم يستطيعوا إيقاظها.

حالة المريضة ليست سيئة، بل إنها على العكس من ذلك، صارت أكثر استقراراً، وهذا ما أدهش الجميع، ولذا تقرر عدم اتخاذ أي إجراء والمحافظة بدقة على مؤشرات وضعها الفيزيولوجي. غيرت الممرضات أجهزة التنقيط، وراحوا في كل ساعة يقلّبونها من جنب إلى جنب حتى لا تصاب بالخدر، ويمسحون جسدها الناحل إلى حد الشفافية، بإسفنجات مبلولة، ويدلّكونه لمساعدة الدم على الجريان في العروق. ظلت أناتوليا نائمة نوماً عميقاً سبعة أيام طويلة، لكن صوت الكلب باترو أيقظها في اليوم الثامن.– كان الكلب منهمكاً في حفر الأرض تحت شجرة التفاح العتيقة، ثم نبح بإلحاح، وركض نحو أناتوليا، تشبث بحذر بذيل ثوبها وجرّها معه، فتبعته باستسلام، ولكن باترو توقف بعد بضع خطوات وعوى وكأنه يلومها فأيقظ عواءه المستاء أناتوليا، فتحت عينيها وحاولت النهوض، لكنها سرعان ما ارتدت ورقدت على الوسائد وهي تشعر بدوار في رأسها.

في ذلك اليوم نفسه أجروا لها العملية القيصرية، وفي النصف الثاني من اليوم حمل ماميكون المتجمد من البرد حتى العظم، الذي اجتاز الدرب المغطى بالثلج من سفح جبل مانيج – كار إلى قمته، إلى القرية التي جمّدها الصقيع، الخبر الذي كانت تنتظره بقلب واجف ثلاث عشرة عجوز، وثمانية مسنين من الرجال – في الثامنة والستين من العمر، صار حفيد تلك المرأة التي نجت من المذبحة الكبرى آروسياك، وآواها في مزرعته آرشاك – بيك الحفيد المباشر لليفون السادس لوزينيان، آخر حاكم لمملكة كانت عظيمة وهي الآن غارقة في بحر النسيان، الحفيد الصلب كالصخرة، ذو القلب اللين كقلب الحمل، كودامانتس فاسيلي الذي فقد جميع من أحبهم، – الأب، والأم، والأخ، وثلاثة أبناء، وزوجته الشقية، وكوفئ في مغرب حياته على ما عاناه بعاطفة حب منقذ، أباً لابنة سليمة البنية ورائعة.

سمّوها تكريماً لجدتها فوسكه – الذهبية.

الفصل الثالث

شهر شباط يكون في العادة قاسياً، يكثر فيه الصقيع وهبوب العواصف، لكنه جاء في ذلك العام كثير الثلج ورحيماً. الصباحات – صامتة، حالمة، متدثرة حتى العيون بمناديل مخرّمة، تحلّ متأخرة، ناعسة، تطرد بأنفاسها الناعمة ضباب الليل. والديكة قليلة الصياح، وغير راغبة فيه. يصيح الديك ثم يصمت مصغياً بلا لهفة، ينتظر صيحة جوابية، يسمعها وكأنها آتية من الطرف الآخر للعالم. وكلاب حراسة الدور لا تنبح، تكتفي بالهمهمة وهي تتابع بنظرة غاضبة ندف الثلج المخملية الكبيرة. الندف كبيرة – هذا يعني أن هطول الثلج لن يدوم طويلاً، وأنه قريباً سيتوقف. لكن شباط المتقلب المزاج نفض عن أكمامه الندف الكبيرة وغمرها في الدور النائمة بحفنات سخية لا نهاية لها من ذرات الثلج.

أيقظ دخان المواقد البيوت النائمة. امتد إلى الأعلى، تاركاً خلفه، وهو يذوب في دوامات الثلج، الرائحة الدافئة لجمرات الحطب، وعطر قطع الخبز المنزلي المحمص على المواقد. الماشية التي تم حلبها، وقدّم لها علفها، تحلم في الاصطبلات، والدجاجات اللواتي اجتزن بخير عذاب إنتاج البيض كل صباح، ينبشن المعالف، وديوك الحبش المعتدة بنفسها (تقاقي) بأصوات آمرة، والعصافير التي تزاحمت عند إناء الماء تتشاتم.

من شرفة منزل شالفارانتس أفانيس تتفرع في الثلج إلى جهات مختلفة أربعة دروب مطروقة، ضيقة، عرض الواحد منها لا يتجاوز القدمين. أحد هذه الدروب يقود إلى الاصطبل وقنّ الطيور، والثاني إلى القبو، والثالث إلى المرحاض، والرابع إلى بوابة الحديقة. بقية باحة الدار ترقد تحت طبقة من الثلج المنفوش الجاف الذي لا تبدو عليه علائم الذوبان – يبدو أنه سيبقى طويلاً. وبغض النظر عن أصوات الطيور المنزلية، – ساد في الجو هدوء وكأن أحدهم أقفل الصوت عمداً، كي لا يبقى مسموعاً إلا تنفس الريح وهمس ندف الثلج المتساقط.

شالفارانتس أفانيس، المتكوم فوق الصندوق الخشبي عند مدخل المطبخ يقوم بخفق الرغوة الوفيرة في فطوره اليومي – صفار بيضتين وست ملاعق من السكر الناعم. وعلى الموقد يصفر أنف إبريق الشاي الذي تشقق طلاؤه، مطلقاً البخار إعلاناً عن غليان الماء فيه. وعلى الطاولة راحت تبرد قطع كبيرة من الخبز المحمص على الموقد.

– هل سترفعين الإبريق عن النار، أم أفعل أنا ذلك؟ – سأل أفانيس بصوت راجف.

فردت عليه ياسامان التي كانت تغسل بالماء والصابون «كيس الخام» الذي مسحت به الأرض بعزم، قائلة بصوت غاضب:

– اجلس حيث أنت، سأفعل ذلك بنفسي.

– لم يعد بمقدور المرء أن يخطو خطوة في بيته دون استئذان.

– لا تبالغ!

تذوق أفانيس الخليط فأزعجه أن شعر بحبيبات السكر تعلق بأسنانه، فقرقع بالشوكة بقوة.

– حبيبات السكر هذه المرة كبيرة، لا تذوب بسرعة. يجب أن أبلغ موكوتش ألاّ يجلب هذا النوع من السكر مستقبلاً.

– الحبيبات الكبيرة لا تعني أن السكر سيئ، – ردّت ياسامان وهي تمسح الأرض تحت الطاولة مسحاً دقيقاً وتمسح البساط أيضاً متجهة نحو الباب.

– قد يكون السكر جيداً، لكن يدي انخلعت وأنا أخفقه.

– حمداً لله أنك لا تمسح الأرض!

زفر أفانيس بغضب.

– لقد اقترحت عليك المساعدة.

– أنت تساعد، وأنا عليّ بعد ذلك أن أبذل جهداً مضاعفاً لأصحح ما خرّبت – ألملم ما خلفته وراءك، وأعيد ترتيب المكان! – كانت ياسامان تقسّم كلامها على إيقاع ضربات الممسحة كي توفر الجهد الذي تبذله.

– أن تنظفي بيتهم، هذا مفهوم. لكن لماذا تلمّعين بيتنا؟ – دمدم أفانيس.

أنهت ياسامان تنظيف المدخل، وغسلت الكيس الخام بالماء النظيف، مسحت المطبخ مرة ثانية، ثم جلست إلى جانب زوجها، واضعة يديها المخشوشنتين من العمل، المحمرتين بسبب الماء البارد، على ركبتيها، واستعدت للانتظار حتى تجف الأرض.

– كيلا نحمل إليهم عدوى ما، هل هذا واضح؟ – تنهدت وقالت مستبقة جوابه – هل نسيت ما هو المولود الصغير؟

– لم أنس. ولكن، المهم، إذا كنت تخافين العدوى، ليس مسح الأرض، بل عدم السماح لك بالاقتراب من الطفل، – قال أفانيس مقهقهاً.

التفتت ياسامان ببطء نحو زوجها مقطّبة حاجبيها

– خمسة وثمانون عاماً، وعقل لا يساوي براز كلب!

أراد أفانيس أن يرد على كلامها رداً لاذعاً لكنه غير رأيه – زوجته متوترة منذ الصباح، والأفضل ألاّ يزيد توترها.

– وماذا بعد، هل صار باستطاعتي الجلوس إلى الطاولة؟ يجب تحضير الشاي قبل أن يبرد الماء تماماً، – قال بلهجة مسالمة.

نظرت ياسامان إلى أرض المطبخ نظرة متفحصة.

– يبدو أن الأرضية قد جفت. خذ سطل النفايات، أفرغه واغسله، أما أنا فسأعد الفطور.

أخذت منه إناء البيض المخفوق مع السكر، ونهضت متثاقلة.

الساعة التي فوق خزانة الأواني اهتزت بصوت عجوز، دقت التاسعة. ما زال الوقت مبكراً، غير أن الأعمال كثيرة اليوم – في الساعة الحادية عشرة ستجتمع عجائز القرية في بيت عاملة البرق ساتينيك، ليحضرن أطباق الطعام لمائدة الاحتفال. أما الرجال المسنون الذين تسلحوا بالرفوش فسيذهبون لتنظيف الطريق المؤدي إلى ماران. إن ذلك عمل لا معنى له ولا جدوى منه. فالثلج ما زال يتساقط كما كان، ولكن يجب عمل شيء ما يسهّل، لو قليلاً، طريق العودة أمام عربة نيميتسانتس موكوتش الذي يجب أن يذهب في الصباح الباكر من هذا اليوم لإحضار فاسيلي، وأناتوليا، والصغيرة

جداً فوسكه من الوادي، وإيصالهم في هذا الجو العاصف إلى بيتهم. محاولة نقلهم بعربة الإسعاف باءت بالفشل – علقت السيارة في الشريط الجبلي المغمور بالثلج، وعادت إلى المستشفى خائبة. دفأ موكوتش، الذي أيقظته البرقية البارحة من قيلولته، العربة باللحف الصوفية، وحمّلها بعباءات ثقيلة من الفراء كي يكون لديه ما يلفّ به أناتوليا والطفلة، واصطحب معه عجوزاً آخر للمساعدة، وانطلق في العاصفة الثلجية. واليوم، قرابة الساعة الثالثة بعد الظهر، سيصل الركب إلى ماران إذا سارت الأمور على خير.

ييبوغانتس فالينكا هي من اقترح استقبالهم بمائدة احتفالية. فبعد أن ودّع المارانيون موكوتش في رحلته إلى الوادي، قرروا الاجتماع في بيت أحدهم. فقضوا المساء في حديث هادئ حول موقد مشتعل جيداً، وأكلوا بطاطا مشوية، شربوا معها منقوع الفواكه، وحرصوا على عدم التحدث عن يوم غد لاعتقادهم أن الحديث عن ذلك، قد يتسبب بحدوث مكروه للقادمين. جلس الرجال بعد أن شبعوا يلعبون النرد، أما النساء فبعد أن جمعن الأواني وغسلنها، شرعن في رفو الثياب أو نسج الصوف. عند ذلك جالت فالينكا ببصرها على الغرفة الهادئة، واقترحت إعداد وليمة احتفالاً بعودة أناتوليا. الفكرة لم تعجب المسنين كثيراً.

– انتظري حتى يصلوا من دون مشاكل، وبعد ذلك نفكر بالاحتفال، – قالت بيخلفانتس ماريام وهي تلوح بيديها في خوف، معبرة عن قلق الجميع.

لكن ييبوغانتس فالينكا قاطعتها معترضة – ما هذه ال«نفكّر»؟ لقد أنجبت أناتوليا طفلة، وهي بذلك أطالت حياتنا، نعم، نعم، لا تنظرن إليّ بعيون مستديرة، الأمر، فعلاً، كما ذكرت، نحن كنا نستعد للموت، ولكن كيف لنا أن نموت وفي أعناقنا مسؤولية كبيرة – تربية طفلة ودمجها بالناس.

سادت في الغرفة دقيقة صمت لا تعكره سوى هسهسة الجمر في موقد الحطب.

– لتقل ساتينيك رأيها، فهي، على كل حال، قريبة فاسيلي المباشرة، – قالت، أخيراً، ياسامان.

توجهت أنظار العجائز إلى ساتينيك التي تلمظت وتنحنحت:

– أظن أن أناتوليا وفاسيلي سيفرحان إذا استقبلناهما استقبالاً لائقاً، بحب واحترام، وضيافة تناسب هذا الحدث المهم.

أمضى المجتمعون بقية المساء في تثبيت قائمة الأطباق التي سيتم تحضيرها – الجميع أراد أن تمدّ مائدة تبهج الأبوين. واستقر رأيهم على تحضير خوخوبيه [13] من لحم ديك الحبش، وباتيه الفاصولياء، وإوزة مشوية محشوة بالزبيب، وسلطة من لحم الدجاج المسلوق والجوز المطحون، وقطع كبيرة من الجبن الأبيض القليل الملح المتبل بطحين الذرة والنبيذ. أما الحلوى فقد قرروا أن تكون كركنيه – الكاتو الخاص الذي يشوى حصراً بحرارة الرماد، ويقدّم على الطاولة في أهمّ المناسبات.

في الحادية عشرة صباحاً تدثر الرجال بالعباءات وتسلحوا بالرفوش وذهبوا لتنظيف مداخل ماران من الثلج، أما النساء فشرعوا في تحضير الطعام. بعضهن راح يقلي ديك الحبش، كي يُطبخ بعد ذلك مع البصل المحمر وحبات الرمان، وأخريات اشتغلن بتحضير الإوزة وحشوتها، والسلطة وتوابعها. أما الكركنيه فسلمتها النسوة لفالينكا وياسامان، المرأتان الأكثر براعة بالطهي في ماران. وبينما كانت ياسامان تلهث باذلة جهدها في تنظيف إحدى زوايا الفناء وتحضيرها لإشعال النار، خلطت فالينكا نوعين من العجين وجبلت الحشوة بالسمنة والسكر والفانيليا، والبندق المطحون الناعم. وبعد ذلك قامت هي وياسامان برقّ العجينة المحلاّة، ووزعتا عليها الحشوة، وضمتا أطرافها، وقسمتاها بعناية بأطراف

أصابعهما إلى فطيرتين كبيرتين. ثم رقّتا العجينة غير المحلاة ورشتا عليها الدقيق بسخاء، ولفّتا بها الفطيرتين، وكانتا حريصتين على أن تغلّفاهما بإحكام، – ثم طمرتاهما في الرماد الحار. وفي الساعة الثالثة، حين علا صرير عربة نيميتسانتس موكوتش موصلة إلى ماران أناتوليا والطفلة، ملفوفتين بأغطية صوفية دافئة، كانت الكركنيه قد نضجت.

أخرجت ياسامان وفالينكا الفطيرتين ونفضتا عنهما الرماد، ودقتا قشرتهما بعصا خشبية – الطبقة المحترقة انطسرت وتخللتها شقوق كثيرة. لم يبق سوى القليل من العمل – نزع قطع العجينة غير المحلاّة التي لا لزوم لها، وتحرير ما تضمه في قلبها بحرص – الفطيرتين الطريتين الذهبيتي اللون.

وفي اللحظة التي وصل فيها موكوتش بصحبة رجال القرية المسنين إلى بيت ساتينيك، حملت فالينكا وياسامان، وقد وضعتا على أكتافهما شالين جميلين، ورفعتا رأسيهما باعتزاز، فطيرتي الكركنيه اللتين تشعان حرارة كشمسين في قلب دوامات الثلج، وعلى بعد خطوتين خلفهما مشت ساتينيك والابتسامة تضيء وجهها، وفي يدها صرّة أعطاها إياها ذات يوم لتحفظها فاسيلي، وفيها صور أبنائه. لا بد أن قريبها الآن يملك الطاقة الروحية اللازمة ليتأمل عيونهم الزرقاء الحبيبة.

الفصل الأخير

بحلول الشهر السادس كانت فوسكه قد تعلمت الزحف، والجلوس ضامة يديها ورجليها الطرية في وضع مضحك، بل راحت تحاول متشبثة بساق أمها أن تقف، وكانت تغضب لعجزها عن ذلك. كانت تشبه أباها من حيث المظهر – عينان رماديتان بلون الرماد البارد، حاجبان عاليان، رموش طويلة سوداء. وورثت عن أمها لون شعرها النادر المشوب بظلال نحاسية. شعرها الآن، في طفولتها، يبدو أبيض داكناً، لكن أناتوليا كانت تعرف أنه سيتلون مع تقدمها في السن، ويكتسب لون القمح الذهبي الذي ما يزال يلوح حتى اليوم في شعر الأم الأشيب بعد الولادة.

إنها، رغم التعب وقلة النوم، تشعر أنها أكثر شباباً، وأنها ممتلئة قوة، كانت منهمكة دون توقف، في أعمال البيت، تطبخ، وتغسل، وترتب، أما رعاية الحقل والحيوانات الداجنة فكانت على عاتق فاسيلي، كان يسقي النباتات، ينبش التربة، يزرع ويجني المحصول، يحلب العنزات والغنمات، بل إنه تعلم صنع الجبن الأبيض – وقد شكت أناتوليا مازحة من أن الجبنة التي يصنعها أطيب وألذ من التي تصنعها هي، رغم أنه لم يتعلم صنع الجبن إلا البارحة، كما يقال.

في الأماسي كان فاسيلي يضع الطفلة في عربة أطفال صنعها بنفسه وبذل في ذلك جهداً غير قليل في ورشة الحدادة، – كانت العربة ثقيلة، لكنها قادرة على المناورة بسهولة مدهشة – ويمضي بها في نزهة في ماران، يتوقف عند كل بوابة، يسلم على العجائز، وتدمدم وتناغي فوسكه، وترحب بكل من يحاول حملها، وتضحك ضحكات تغري الآخرين بالضحك كلما رووا لها قصيدة العنزة النطاحة، ومثّلوا لها النطحة بأصابعهم.

في عطلة عيد الفصح، جاء إلى القرية تيغران وناستاسيا، وعمّد الأب عازاريا فوسكه في جو احتفالي، جلست الطفلة هادئة بين ذراعي أبيها في العماد طول وقت القداس، لكنها عند غسلها بالماء المقدس أطلقت صيحة غضب وكادت تقلب الطست النحاسي المستخدم مغطساً، الذي كانت فالينكا قد طبخت فيه عشية ذلك اليوم الطبخة الأولى من مربى الكرز، ثم قامت في الصباح فنظفته حتى اللمعان، وزينته بشريط من الدانتيل على شكل صليب، وجاءت به إلى القداس. جدران كنيسة ماران اهتزت من صراخ الطفلة، وتأوهت وهي تهز كتفيها اللذين دلف عبرهما الماء، أما الطفل كيرياكوس ذو العام ونصف العام من العمر، الذي كان ينام بسلام على ركبتي جدته فاستيقظ واشترك بحماسة في

صراخ فوسكه، مالئاً المحيط بصيحات قوية سمعها حتى بيتينانتس سورين الأصم، ولم يتقاعس ماميكون عن المزاح وهو يضحك في لحيته زاعماً أن الأولاد ثملوا وهم ما زالوا أطفالاً، ولا يعلم إلا الله ماذا يمكن أن يعني ذلك!

قبيل شروق الشمس خرجت أناتوليا إلى الفناء فوجدت باترو تحت شجرة التفاح اليابسة التي لم يقطعها فاسيلي بناء على طلبها، – فهي كانت الشجرة المحببة للجدة مانيه، "لذا دعها واقفة تذكرنا بها". كان الكلب يحفر بتفان تحت الشجرة الميتة ناثراً حفنات التراب الرطب من حوله، وحين أحس بوجود أناتوليا، نبح بصوت مسموع واندفع نحوها، تشبث بأسنانه بذيل ثوبها وشدّها لتتبعه. ذهلت أناتوليا لرؤيتها أن منامها يتحقق، وسمحت للكلب أن يقودها إلى الحفرة غير العميقة التي حفرها، ونظرت فيها.

لا شيء هنا يا باترو – جان قالت محاولة تهدئة الكلب، لكن باترو أنّ وأصدر أصواتاً شاكية وهو ينبش التراب بأظافره، ثم أطلق صيحة فرح وهو يخرج شيئاً من الحفرة ويضعه عند قدميها. انحنت أناتوليا ونظرت إلى كبة قماش بالية تقريباً، فردتها بحذر فوجدت في داخلها خاتماً فضياً ثقيلاً كمد لونه بفعل الزمن، مزيناً بحجر أزرق كبير لم تعرف اسمه. نظفت الخاتم من الوحل والسواد الذي لصق به، تنظيفاً جيداً ثم وضعته في العلبة التي خبأت فيها قطعة الحلي الوحيدة التي ورثتها عن أمها – قلادة من صدف طبيعي ذات لون وردي مشوب بالصفرة، وقد حفرت عليها بمهارة صورة صبية تجلس موارية وتنظر إلى أحدهم في الأفق البعيد. ستكبر فوسكه وتتزين بها.

كانت أناتوليا حين تأخذ ابنتها إلى الفراش في الأماسي، تغني لها أغاني ما قبل النوم التي غنتها لها أمها في حينه، – عن المطر الذي هطل فطراً يوم ولدت الذئبة، وعن الذئاب الصغيرة السبعة التي انتشرت في العالم، ثم عادت في اليوم الذي فقدت فيه الأم الأمل برؤيتها ذئاباً كبيرة قوية؛ وعن الريح التي تحمل على أجنحتها السريعة أخباراً عن أولئك الذين زالوا منذ زمن، وعن عريشة الكرمة التي امتدت حتى السماء ونامت على أغصانها طيور الجنة.

وكانت فوسكه تستمع حابسة أنفاسها، وإلى جانبها يرقد فاسيلي داساً أنفه في خصلات شعرها الناعمة، إنها لم تكن تعرف النوم بغير هذه الطريقة، الأم يجب أن تغني لها أغاني ما قبل النوم، والأب – يرقد، ببساطة، إلى جانبها، وهذا هو الوضع الصحيح، ففوسكه لا تعرف شيئاً عن العالم الكبير، هي لديها عالمها الصغير جداً، البيت الحجري، وشجرة التفاح اليابسة، وثلاث عشرات من العجائز، والكنيسة الصغيرة التي يقيم فيها القداديس قسيس جوال في الأعياد، والجانب الشرقي من القرية الذي يحميه جدار أصم من انهيارات الثلوج، أما جانبها الغربي فقد سقط في الهاوية دون عودة، وأما الطريق الوحيدة المؤدية إلى الوادي التي يزداد استخدامها صعوبة عاماً بعد عام، فقد نمت فيها الأعشاب البرية، التي لم يمنعها من إغلاقها نهائياً إلا آثار عربة نيميتسانتس موكوتش التي كان يسافر بها لجلب البضائع، فقد تركت تلك العجلات خطين رفيعين أجردين على طول الطريق من قمة مانيج – كار إلى العالم الكبير، وفي شرفة بيت أناتوليا وقفت ماغتاخيني التي لا يراها الجميع مصالبة يديها على صدرها – إنها ملاك فوسكه الحارس؛ وفي بيت ييبوغانتس فالينكا ما زال الشق يتنفس في الجدار كما كان – يزداد تارة، ويعود تارة فتتقارب حافتاه، ولكنه لا ينغلق، فكأنه قلب مزقه الألم إلى شطرين، يتألم غير أنه يستمر في الحياة، وفي صندوق البياضات استقرت رسوم ناستاسيا ملفوفة بشرشف من الشيت كي لا تتسرب إليها الرطوبة، لقد نسي الجميع الحرفين اللذين رأتهما ناستاسيا على سور قبر الطاووس، لكن ماران رأت فيهما منذ زمن بعيد الحرفين الأولين من اسمي حفيديها الوحيدين، الصبي والبنت، اللذين يجب عليهما إما أن ينهيا تاريخ القرية، وإما أن يبتكرا لها صفحة جديدة، من المؤسف أن ذلك لا يعرفه أحد، لا أحد يعرف كيف ستجري الأمور، وفي البيت الخشبي يغفو باترو واضعاً

وجهه ذا الأذنين الكبيرتين، على كفه الأكبر حجماً، إنه الكلب الوفي الذي وجد بين جذور شجرة التفاح اليابسة الخاتم الذي أخفته الغجرية باترينويا هناك يوم مولد أناتوليا، وتمتد فوق العالم الصغير لفوسكه الصغيرة ليلة صيفية لا قاع لها، تروي الحكايات عن قوة الروح الإنسانية، وعن الإخلاص، والنبل، وعن أن الحياة – دوائر كتلك التي ترسمها حبات المطر على سطح الماء، حيث يعكس كل حدث ما كان قبلاً، غير أن معرفة ذلك لا يستطيعها أحد، إلاّ المختارين الذين، إذا ما وجدوا يوماً في هذا العالم، فلن يعودوا إليه أبداً، لأنهم يشربون كأسهم حتى النهاية شربة واحدة، لكننا لا نتحدث الآن عن هذا، نحن الآن نتحدث عما وقع قبل سنة وشهر بالضبط، في يوم الجمعة، بعد منتصف النهار مباشرة، حين انتقلت الشمس من مرحلة الصعود وبدأت بالانحدار برزانة نحو الطرف الغربي من الوادي، عن سيفويانتس أناتوليا التي تمددت لتموت دون أن تدرك الروعة الكبيرة التي تنتظرها في المستقبل، وها هي الروعة قد حلّت، إنها تتنفس بيسر وحنان، فليستمر ذلك طويلاً، بل فليستمر دائماً، وليلقِ الليل بتعاويذه السحرية حامياً سعادتها وهو ينقّل بين يديه الباردتين ثلاث تفاحات ستسقط فيما بعد من السماء على الأرض، كما تقول حكايات أهل ماران – واحدة لذلك الذي رأى، وأخرى لذلك الذي روى، والثالثة لذلك الذي سمع وآمن بالخير.

القصص

ماتشوتشا

في السادسة

– ميّلي رأسك على كتفك. ابتسمي ابتسمي! هل تعرفين كيف تبتسمين؟ أريني، كيف تفعلين، برافو. لا تطرفي بعينك.

انظري إلى هنا، الآن سيطير العصفور.

ماتشوتشا طويل القامة جداً، شديد السمرة، ورمادي العينين على غير توقع. كي تلتقط نظرته عليك أن ترفع رأسك كثيراً إلى الخلف. من الأسفل يبدو عملاقاً – ساقان طويلتان، طويلتان، يدان كبيرتان، أصابعهما متشنجة – إنه يحركها في الهواء وكأنه يعزف على آلة غير مرئية. «أظنه يعزف على المزمار»، – هذا ما أظنه. أخاف أن أسأل – ماتشوتشا جميل. والرجال الجميلون لا يثيرون عندي، أنا الستينية، سوى مشاعر الشك.

شعر ماتشوتشا أجعد، مدهن، رموشه كثيفة ومخملية، شارباه يحيطان بشفته العليا كقوس – هو تركهما ينموان منذ فترة قصيرة جداً، ولذا ظهرا في وجه وكأنهما رُسما بقلم فلوماستر. شارباه لا يعجبانني، هذا ما أريد الإعلان عنه فوراً، لكن ماتشوتشا يقول إنهما يمنحانه وجاهة. أتكاسل فلا أسأل ماهي الوجاهة، لذا أسبغ على وجهي ملامح الجد وأهز رأسي بالإيجاب، تاركة له أن يعتقد أني أعرف ما هي.

ستوديو ماتشوتشا يحمل اسم «بيرد» وهو تماماً اسم المدينة الصغيرة التي نعيش أنا وهو فيها. أنا – في بيت حجري مؤلف من طابقين فوق تلة، حين تهب الريح تطرق نوافذ غرفتي شجرة تفاح من شجر الجنة، ويرسم القمر ليلاً على أرضية الغرفة مربّعاً فضياً كامد اللون. ماتشوتشا – في بيت من طابق واحد على زاوية الشارع المجاور. أمه نوبار امرأة عجوز تتكلم باللهجة الأرمنية الغربية التي أفهمها بصعوبة، وهي تعرف الإنكليزية أيضاً فتحييني حين نلتقي بالشكل التالي: غود دي دارلينغ، هاو آر يو. فأجيبها: آي إيم فاين. هذا كل ما أعرفه جواباً على تحيتها. أنا لا أعرف أين والد ماتشوتشا. قد يكون ميتاً، وقد يكون هجرهم وسافر إلى مدينة أخرى، كما فعل زوج خالتي. إنها الآن

مضطرة للعمل في ثلاث ورديات كي تطعم بناتها، أما زوجها فيتلفن لها مرة في الشهر ويقول إنه لن يرسل نقوداً، فليتدبروا أمرهم بالشكل الذي يحلو لهم. زوج خالتي رجل جميل.

أقرر أن أرتب هندامي قبل أن أتصور. المرآة في زاوية صغيرة محجوبة بستارة. كرسي مخلخل القوائم مسنود إلى الجدار، يبدو أنه مخصص لأولئك الذين لا يحبون ترتيب هندامهم واقفين. فوق الكرسي عُلّقت خريطة صغيرة. إذا أدرتها إلى اليسار تظهر عليها صورة عملاق في ثوب طويل. إنه يقف موارباً، رادّاً رأسه إلى الخلف، رافعاً يديه إلى أعلى، وكأنه يطلب المساعدة من السماء. أتأمل الخريطة بعض الوقت، ثم أنصرف عنها إلى الرف – لكي تعرف ما عليه يجب أن تقف على رؤوس أصابعك. على الرف مشط بلاستيكي، وبعض ملاقط الشعر.

– يبدو أن أحدهم نسي أشياءه هنا، – أقول لماتشوتشا بصوت مرتفع.

– أية أشياء؟ – يسأل وهو يطلّ عليّ.

– هذه!

– هذه أنا وضعتها، فقد تريد زبونة أن تغيّر تسريحتها. حسناً، هل أنت جاهزة؟

أردّ إلى ما وراء أذنيّ خصلات الشعر الفالتة من «ذيل الحصان».

– جاهزة.

يجلسني ماتشوتشا على الكرسي. خلفي، في حوض ثقيل تقف نخلة اصطناعية كثيرة الأذرع، تفوح منها رائحة البلاستيك. أحرك رأسي كي أراها بشكل أفضل.

– لا تتحركي! – يوجه لي ماتشوتشا ملاحظة. إنه يوجه نحوي ضوء المصابيح، يتأملني متفحصاً، – هل من الضروري أن تتصوري مع هذا الأرنب؟

– آها.

يطقطق بلسانه. يبدو أن الأرنب لا يعجبه. إنه قديم ومهترئ، وعيناه زرّان مختلفان – أحدهما أخضر، صغير، والثاني أزرق، أكبر منه. الأخضر هو عين الأرنب الأصلية، أما الأزرق فقد استعرناه من معطف أمي الكريمبلين. يدير ماتشوتشا الأرنب ويجلسه بشكل جانبي. أنا أعترض – يهمني أن يظهر كله في الصورة.

– ما سبب اختلاف عينيه؟ إنه ينظر إلى زاويتين مختلفتين، كالأبله، – قال ماتشوتشا متأففاً.

– الزّر ضاع، فوضعنا مكانه زراً آخر، – تمتمت أجيبه، أنا أتعاطف مع الأرنب، إنه طيّب، أهدته لي جدتي.

ماتشوتشا يتنهد.

– حسناً.

يغوص تحت غطاء آلة التصوير القماشي الأسود ويهدأ.

– ميّلي رأسك قليلاً على كتفك. ابتسمي. ابتسمي! هل تعرفين كيف تبتسمين؟ أريني كيف تفعلين ذلك. برافو. لا تطرفي بعينيك.

انظري إلى هنا، الآن سيطير العصفور.

فيما بعد، ضحك بابا وماما على الصورة حتى دمعت أعينهما، – في أريكة كبيرة، وعلى خلفية بدت فيها نخلة اصطناعية، أجلس وقد سال أنفي، وأنا أضم إلى صدري أرنباً قماشياً مهترئاً، عيناه مختلفتان.

في السادسة عشرة

أندفع راكضة إلى داخل الاستديو – الوقت ضيق جداً. ماتشوتشا يرفع رأسه عن إيصال يملؤه بعناية. يزم عينيه ضاحكاً مني:

– إلى أين تسرعين؟

أريد أن أكذب، لكني، بدلاً من ذلك، وبشكل غير متوقع، أقول الحقيقة:

– إلى موعد.

– آها! الحق معك ما دمت ذاهبة إلى موعد.

صوت ماتشوتشا لا يفصح عن شيء، – إنه رتيب وغير مبالٍ، ونظرته مباشرة وودودة. قد يخدع ذلك غيري، أما أنا فلا. لدي إحساس داخلي أنه يضحك مني. في غير هذا الوقت ما كنت لأتردد في خوض ملاسنة معه، أما الآن، فلا أستطيع – قبل أسبوعين ماتت أمه، وقد كنت أنا أيضاً في وداعها، أنا، بصراحة، لم أكن راغبة جداً في الذهاب، لكن أمي وبختني قائلة إني كبرت تحت أنظار نوبار، لذا يجب أن أكون في وداعها. حسناً، تشاجرت معها قليلاً، كي لا تظن أن إقناعي يمكن أن يتم بهذه السهولة، وبعد ذلك ذهبت. لم يكن عدد الناس كبيراً – في أيام العمل قليلون من يستطيعون الاستئذان. كانت نوبار راقدة في التابوت – عجوزاً، مستكينة. وكان ماتشوتشا يجلس عند رأسها، مشبّكاً أصابعه المتوترة بعضها ببعض، مطرقاً. اقتربت ماما منه، وهمست بكلمات العزاء. اكتفى بهز رأسه في صمت، وشدّ على يدها. أنا لم أقترب، لكن، حين رفع بصره نحوي ارتبكت ولوّحت له بيدي في غباء. عندئذ خبأ وجهه في راحتيه وأجهش بالبكاء. هيا بنا، قالت لي ماما همساً. وضعت عند التابوت باقة الورود وتبعتها. ماما مشت في الشارع، طويلة القامة وجميلة، بشعر طويل تداعبه الريح، أما أنا فتبعتها وأنا أشعر بتفاهتي تفاهة تامة.

– ثلاثون عاماً، وبكى بكاء طفل.

– وكيف لا! – أجابت ماما.

يداي آلمتاني بعد ذلك طول النهار – يبدو أني أمسكت سيقان الورود في الباقة بشدة فخدشت الأشواك أصابعي كلها.

– أحتاج صوراً لجواز السفر – قلت لماتشوتشا.

يضع الإيصالات جانباً وينهض من وراء الطاولة. في أعوامي الستة عشر صارت قامتي طويلة رغم عدم انسجامها، ومع ذلك كنت مضطرة للنظر إليه من أسفل إلى أعلى. شعر ماتشوتشا الآن يخالطه الشيب، وعيناه بلون الماء الساخن. فيه الكثير من الثقة بالنفس، والجمال الذكوري المحتشم، الأمر الذي حرضني بشدة على قول ما يكدّره.

– أتدري ماذا تقول عنك النساء؟ – قلت وكأن الشيطان قد تحرك في داخلي. – يقلن أنك مثل آلان ديلون.

نظر ماتوتشا إليّ نظرة أحسست معها ببطني يسخن.

– اذهبي، رتبي هندامك، – أجاب بعد دقيقة صمت.

في الزاوية رائحة غبار وعطر رخيص. وعلى الجدار ما زالت الخريطة نفسها، لكنها تشققت مع الزمن واصفرّت، غير أن المرء ما زال يستطيع رؤية العملاق ذي اليدين المرفوعتين نحو السماء. أضع الحمرة على شفتي بسرعة وبيدين غير خبيرتين (الحمرة سرقتها من علبة زينة ماما)، وآخذ عن الرف ملقط شعر وأثبت خصلات من شعري فوق جبيني، لتتدلى إطاراً جميلاً وتنسدل موجات على كتفيّ.

يوجه ماتشوتشا الضوء نحوي. يضحك ضحكة قصيرة ساخرة. يخرج من جيبه منديلاً ويعطيني إياه:

– امسحي شفتيك!

– لماذا؟

– أقول: امسحيهما!

أمسح شفتي بغضب. وأكوّم المنديل في قبضتي.

– ومع من موعدك؟ – سأل ماتشوتشا ساخراً، وهو ينظر إلي من خلال عدسة الكاميرا.

– مع ابن فانويانتس إيديك.

– أنا أعرفه. إنه فتى جميل.

– وماذا في ذلك؟

يتظاهر أنه لم يسمع سؤالي:

– اجلسي مستقيمة، لا تحني ظهرك. أنزلي كتفك الأيسر، لماذا رفعته هكذا؟

أغمضي عينيك، والآن افتحيهما. ابتسمي قليلاً، بأطراف شفتيك. برافو. انظري إلى هنا، سيطير العصفور.

أنا أبدو في صورة جواز السفر فتاة صغيرة وغبية – تسريحة بلهاء، – نظرة مرتبكة، وشفة سفلية ممطوطة إلى الأمام لسبب ما، يبدو أنني فعلت ذلك لأني أرغمت على مسح حمرة الشفاه. يمكنني أن أتصور ثانية وأغيّرها، لكن لديّ أمور أكثر أهمية – الحب الأول، والدخول إلى المعهد. سأرحل قريباً مبتعدة عن هذه المدينة الريفية العفنة بشوارعها المتعرجة وكنائسها نصف المهدمة، إلى مدينة كبيرة، إلى فضاءاتها الذهبية، الشاسعة. منذا الذي سيهتم بالصورة التي في جواز سفري سواء أكانت ناجحة أم غير ناجحة؟ ليأخذها الشيطان، فأنا لن أغيّرها.

الثانية والعشرون

الظلال في مدينة طفولتي ناعسة وصموتة، تمتد من دار إلى دار وكأنها مشدودة بأصابع صقيعية كي لا تسقط في الهاوية. إذا أغمضت عينيك تستطيع أن تتذكر كيف كانت تلك المدينة قبلاً، – خضراء، باردة، تفوح فيها رائحة الأمطار الطازجة وأزهار الليلي الجبلية التي لفها برد الصباح.

واجهة ستوديو التصوير مغلقة بقطعة من النايلون الشفاف – الزجاج حطمته موجة الانفجار،

ولا معنى لوضع زجاج جديد مكانه، فقد تحطمه قذيفة جديدة. ثمة انطباع مخادع ينشأ عند المرء فيوحي له أن كل شيء على حاله، إذا لم يلتفت إلى الواجهة المحطمة، إذا لم يلتفت إلى الواجهة وإذا لم ينظر في عيني ماتشوتشا.

– مرحباً، – أقول له.

– مرحباً.

وجه ماتشوتشا شاحب، مرهق تقريباً. إنه يعرج، ويميل كثيراً على ساقه التي تأذت. ومن الصدغ حتى أرنبة الأنف، يمتد عبر الوجنة أثر جرح طويل فظ. العينان فقط، بقيتا كما في الماضي – حيتين، نفاذتين، لونهما فضي – زئبقي.

– أحتاج عشراً أو عشرين صورة عادية بالأبيض والأسود. أنا مسافرة إلى الخارج، سأحتاج هناك إلى صياغة بعض الوثائق، ولا أريد أن أهرول في مدينة غريبة بحثاً عن أستوديو تصوير، – أقول له، وأنا أطوف بنظري على الجدار خلف ظهره. من المستحيل النظر إلى عيني ماتشوتشا والتظاهر بأن شيئاً لم يتغير.

يبدو لي أن كل شيء تغير في الأعوام الستة الأخيرة. أنا وقعت في الحب ثلاث مرات – بغباء وبلا معنى، أنهيت الدراسة في المعهد، عملت ممرضة في مستشفى عسكري يعالج الجنود الجرحى. ماتشوتشا حارب وأصيب بجراح بليغة، سُرّح من الخدمة، تزوج من لاجئة، أم لولدين، بنت بعمر ثماني سنوات، وصبي عمره أربع سنوات، الولدان يحبان ماتشوتشا كأب حقيقي، والزوجة لا تضن عليه بروحها.

– ستسافرين، إذن، – قال ماتشوتشا.

– نعم.

أمسح الحمرة بمنديل ورقي، أبحث، دون أن أنظر، عن ملقط شعر على الرف، أجمع شعري في كبّة كثيفة. الخارطة معلقة على الجدار وعليها صورة العملاق. ألتفت كي أتأمله بانتباه أخيراً. لكن باب الاستديو ينصفق بقوة، جاء زبائن جدد، ويجب أن أخلي الزاوية.

ماتشوتشا يتأملني عبر عدسة الآلة. يقترب وهو يعرج بشدة. أرى كم يؤلمه المشي.

– لم لا تشتري عكازاً؟

– أتدبر الأمر من دونه. – يلمس بطرف سبابته ذقني، يجعلني أرفع رأسي قليلاً. – تعلمي ألاّ تخفي وجهك. وتذكّري – أنت جميلة. أنا أنظر إليه كما في طفولتي، من الأسفل إلى الأعلى.

– ابتسمي، – يقول لي.

أبتسم.

ثلاث وأربعون

من أغلى ذكريات الطفولة إلى قلبي – صباحات تشرين الثاني الباكرة. الصيف انقضى منذ مدة، والطيور تهاجر طول الليل مطلقة صيحاتها المدهشة – إلى الجنوب، إلى الجنوب. صيحاتها الوداعية تقلق الديكة فتدفعها الغيرة إلى إطلاق صيحاتها الجوابية قبيل الفجر. نداء فرسان الفجر

الصاخب ينتقل من دار إلى دار، ومن بوابة إلى بوابة، ومن رابية إلى رابية، ثم ينعطف بذيله الملون الثقيل منطلقاً إلى الأعلى – إلى هناك حيث طار آخر سهم من طيور اللقلق. إلى الجنوب، إلى الجنوب.

الحديقة التي غسلها المطر ليلاً تدثرت بغمامة من الضباب – الضباب يلف ذرا الأشجار، ويرقد كقطن منفوش على أكتاف أشجار الكيباريس الموبرة، وتتلامح عبر أغصان شجرة درّاق كبيرة – ثمار صفراء متدثرة بوبر خشن، تبرز بحدة فوق غطاء الضباب الحليبي.

يذهب الضباب – تزدهي الروابي بالألوان الذهبية والحمراء، وتملأ المنطقة رائحة النباتات العطرية بكثافة، وتفوح بحدة رائحة السرو وثمار «اليجوفيكا» البرية التي غسلها مطر الصباح – في أواخر الخريف تكون هذه الثمار حلوة تشوبها مرارة، وكبيرة لا تتسع راحة اليد لثلاث منها معاً.

عدت إلى الوطن في تشرين الثاني بالذات، في موعد هجرة اللقالق إلى الجنوب. إنه الآن مختلف تماماً. مدينة طفولتي غارقة في أضواء مصابيح النيون، وتبرق بأضواء الإعلانات، وهناك حيث كان ستوديو التصوير، يقوم الآن مكتب استشارات قانونية ضخم. نمرّ أنا وماما، بجانبه، فلا نلتفت، أنا أحمل بيدي باقة ورود.

المقبرة خالية، يسودها الهدوء، لا شيء سوى الريح تهيم بين شواهد القبور ناشرة الدخان الحلو للبخور المحترق. قمة الربوة الشرقية ملتفة بغطاء ضباب سيهبط سريعاً إلى أسفل، فيغرق العالم من أقصاه إلى أقصاه فيه.

نازاريتيان تارون، 1957– 2005. رحل منذ تسع سنوات. يبدو في الصورة فتى في مطلع الشباب، تماماً كما حرصت دائماً أن أتذكره، – أسمر، عملاقاً رمادي العينين. أقرأ عدة مرات المكتوب على الشاهدة، محاولة، دون جدوى، أن أدرك معناه، لكني نجحت أخيراً: «أفضل زوج وأب في العالم – من زوجتك المحبة، وابنتك وابنك».

– لماذا دفنوه هنا، ولم يدفنوه إلى جانب نوبار؟

ماما تمد لي يدها بكيس بخور صغير.

– هي مدفونة في المقبرة القديمة، وهناك ما عادوا يدفنون أحداً، لذا أرقدوه هنا.

أرمي في الكأس المعدنية بعض حبات البخور، وأشعل عود ثقاب. ماما تضع على حجارة الضريح عند موضع القدمين الورود. تتكلم وكأنها لا تتحدث معي بل مع نفسها: «حين أقامت نوبار مع غاريغين في مدينتنا، كان عمر أبيك ست سنوات. إنه يذكر كم كانت حياتهما صعبة، – عاشا عيشة الكفاف. لكن حياتهما تحسنت بالتدريج، بنيا لسكنهما بيتاً. وكانا يتذكران كثيراً بوسطن التي جاءا منها حين فتحت الحدود لفترة قصيرة بعد الحرب العالمية الثانية. تركا كل شيء من أجل تحقيق الحلم بالعودة إلى وطن الأجداد. كانا شابين جميلين نجوا بأعجوبة من مذبحة الأطفال.

تأخرت نوبار في الإنجاب – أنجبت في الثانية والأربعين. وبعد أسبوع مات غاريغين بنوبة قلبية، تاركاً إياها وحيدة وعلى يديها طفل رضيع. أسمته تارون، تخليداً لذكرى المكان الذي جاء منه أجدادهم.

كبر فتى جيداً، وأنا واثقة من أنه كان قادراً على تحقيق الكثير. لكن، لتحقيق الأحلام الكبيرة، يجب السفر إلى المدن الكبيرة، وهو لم يكن قادراً على فعل ذلك، فلم يكن لديه من يترك أمه المسنة المريضة في رعايته. وهكذا عمل في ستوديو التصوير، وتعلّم العزف على الكلارينيت. ذات يوم، حين

كان طفلاً، – سألوه عن اسم الولاية التي جاء منها أبواه، فأجابهم متلعثماً – ماتشوتشا. ومنذ ذلك اليوم أطلقوا عليه هذا الاسم، لم يسؤه الأمر بل إنه أعجبه.

أنت تذكرين، على ما أظن، الخريطة القديمة المعلقة في ستوديو التصوير. إنها خريطة ولاية ماسّاتشوسيتس. وقد اعترف تارون ذات مرّة لأبيه أنه يحلم بالسفر إلى بوسطن والتعرف إلى المدينة التي كبر فيها أبواه، لكن الوقت لم يسعفه.

في فناء بيتهم عاش كلب أحمر الشعر، يحرّك ساقيه الأماميتين، أما الخلفيتان فيسحبهما سحباً – أصابت شظية عموده الفقري في أثناء القصف. كان قبل أن يقيم في الدار يعيش في الشارع، ينظر في عيون المارة الذين كان كل منهم يتمنى لو أن أحداً يقتله رحمة به، أما ماتشوتشا فكان يطعمه سرّاً، وحين عاد من الحرب، نقله معه إلى البيت، وصار، بعد أن هزل الكلب كثيراً، يحمله على ذراعيه ويمشي به وهو يعرج».

ماما تضع المبخرة في مكانها وتترك فيها الكيس الورقي الذي يحوي البخور. ويزحف الضباب بسرعة فوق الرابية الشرقية، يحتل الفضاء شبراً بعد شبر.

مسحت بيدي الصورة التي على القبر قبل أن أغادر، علقت بكفي بقع من الطين، وكان هو في الصورة ينظر إليّ بعينيه الفضيتين، اللتين يشبه لونهما لون سماء تشرين الثاني.

وداعاً، ماتشوتشا. وداعاً.

خدّوم

الشيخة خدّوم يسميها الجميع بهذا الاسم – الشيخة خدّوم، وذلك ليس بسبب تقدمها في السن – وإنما بدافع الاحترام، فلقب "شيخة" يعني الحكمة.– قبل عامين احتفل أحفادها احتفالاً كبيراً ببلوغها الثمانين من العمر، وقد واجهوا مشكلة في تحديد تاريخ يوبيلها الثمانيني – فقد كانوا في بداية القرن العشرين يسجلون شهادات ميلاد المولودين في قلعتها الحجرية البربرية، بعد فترة طويلة من ميلادهم، ولم تكن الأمهات اللواتي أرهقهن السهاد يذكرن جيداً في أي يوم وأي شهر أنجبن هذا الولد من أولادهن أو ذاك، ولذا جاء في شهادة ميلادها ما يلي: "خدّوم العلّوش، البنت الخامسة لإسماعيل العلّوش وبشرى علوي، ولدت في موسم الأمطار الغزيرة، في اليوم الثالث من شهر جمادى الأولى".

وفي بطاقة الهوية التي حصلت عليها خدّوم في الخمسين من عمرها، وذلك في أعوام الحرب، سجلوا تاريخ ميلادها اختلاقاً في 28 كانون الأول، عام 1903، لكن أحفادها الذين كانوا يحضّرون لليوبيل، كانوا مهتمين بمعرفة يوم ميلاد قريبتهم المحترمة معرفة دقيقة. أداروا عجلة حساب التقويم القمري في الاتجاه المعاكس، وبحثوا في الوثائق القديمة ومقالات الصحف التي مضت عليها عقود من السنين، وحسبوا التاريخ التقريبي، الذي تبين أنه، إذا صدقنا الحسابات، الخامس من كانون الثاني عام 1905– أي بعد عامين وثمانية أيام من التاريخ الذي تحدده شهادة الميلاد. وهنا واجهت الأحفاد الحيارى مسألة تحديد الموعد الذي سيقام فيه الاحتفال، لأن الحالة الصحية لخدّوم تزداد سوءاً، وثمة احتمال كبير بألاّ تظل حية حتى الموعد الحقيقي لبلوغها الثمانين. وبعد طول تفكير تقرر أن يقام الاحتفال بحسب التاريخ الذي في بطاقة الهوية. ويمكن، إذا أبقى الله خدّوم حية حتى موعد اليوبيل الحقيقي، أن يقيم الأحفاد احتفالاً آخر لا يقل عن الأول فخامة، بل يزيد.

تعاملت خدّوم مع الاحتفال بإيجابية، لكنها لم تندمج فيه – حتى إنها لم تتذوق (التورتة) الباهظة الثمن المصنوعة في شركة الحلويات الفرنسية المشهورة في العالم كله، التي جلبها في علبة – برّاد خاصة من الدار البيضاء حفيدها محمد – ابن ابنتها الصغرى نعيمة. مدّوا موائد الضيافة أمام

البيت، ونصبوا خيمة بين أشجار النخيل النامية في زوايا فناء صغير أحرقته شمس الصيف دون رحمة، فصارت تفوح منه، حتى في الشتاء، رائحة الطين المحمص، ورائحة أغصان الصبار السميكة المغبرة في الحرّ الذي لا يطاق – خدّوم تتذكر حتى الآن رائحة الفرشاة التي كانت الأم الكبرى تنزع بها الحبيبات عن أوراقها الشائكة، لتحصل منها بعد ذلك على صبغة بلون نادر الجمال؛ الأطباق التي حضّروها تكفي لإطعام المشاركين ثلاثة أيام – تم تحضير الطعام تماماً عند حضور كبرى بنات أحفادها التي تجرأت، فأحضرت معها من دون استئذان جدتها الكبرى، صديقها الشاب الفرنسي ذا العينين الفاتحتين، الذي، بدلاً من أن يقضي الوقت في حديث رجالي رزين حول المائدة الزاخرة بالأطعمة، راح يطوف في المنزل مطلقاً بحماسة «تعابير الإعجاب» وهو يصوّر كل تفاصيل البيت التي تقع عليها عيناه. هو، حتى لم يغفل عن المبولة النقالة التي حاول جرها من تحت السرير لتصويرها في ضوء النهار، ولم يصرفوه عن ذلك إلا بصعوبة. بالمناسبة، أنت لا يمكنك أن تنتظر الكثير من هذا الأجنبي الذي تنوي الحفيدة ميريام، بحسب الشائعات، أن تربط مصيرها بمصيره، فعدم اللباقة سمة ملازمة لهؤلاء الأجانب.

أمضت خدّوم أيام الحشد الثلاثة كلها في غرفتها. الأحفاد وأبناء الأحفاد تعمدوا عدم إقلاق راحتها – كانوا يطلون عليها في الصباح ليقبلوا يدها ويتمنوا لها يوماً سعيداً. وفي المساء – كي يطلبوا تبريكاتها قبل النوم. كانوا يتكلمون معها باللهجة المراكشية المهشمة، ولا يفهمون كثيراً لغة الجدة البربرية، لذا اقتصرت أحاديثهم على العبارات العامة. غير أن أبناءها وبناتها كانوا يقضون معها أوقاتاً طويلة يجلسون إلى جانبها ويتحادثون في مواضيع شتى. وكانت خدّوم لا تصغي إليهم باهتمام، لا لأنها لا تحترم أحاديثهم، بل لأنها تعرف أنهم لن يحدثوها بأي جديد، فهم يكررون على مسامعها الأحاديث نفسها. كانت تتناول طعامها في غرفتها، وبمفردها حصراً، عادّة عملية مضغ الطعام أمام الآخرين عملاً معيباً ومدمراً لشعور الإنسان بكرامته. وقد روت أمها أنها حين كانت طفلة رضيعة، كانت تتوقف عن الرضاع في اللحظة التي يدخل فيها أحدهم إلى الغرفة، وتشرع في البكاء الشاكي، لا تتوقف إلى أن تخلو الغرفة من جديد. وهي بدأت تأكل بيدها منذ بلوغها السنة الأولى من عمرها، مختبئة عن أعين الجميع في غرفة نوم والديها.

أبناء خدّوم يتذكرون هذه العادة، لذا كانوا يغادرون الغرفة في موعد تقديم الطعام. وكانت المساعدة في تدبير شؤون المنزل «زهرة» وهي امرأة تلف شعرها بمنديل، حبوب الجدري شوهت وجهها، فظلت عانساً، تحمل لها الطعام في صينية، بعد أن تتأكد من أن السيدة باتت وحيدة.

كانت خدّوم قليلة التطلّب في الطعام، وكانت محافظة في أكلها: في الفطور يقدمون لها، كل يوم، العسل، والزبدة النباتية، والزيتون، والخبز المصنوع من دقيق القمح الخشن وقطعة من جبن الماعز الطري، وفي الغداء – الحساء حتماً، والكسكس بالخضار، فهي منذ خمسين عاماً ويزيد، لا تأكل اللحم، أي منذ توفيّ علي نتيجة مرض عضال. والفطور والغداء ينتهيان بشرب الشاي المراكشي التقليدي، خدّوم تفضل شرب الشاي من دون سكر، لكنها تأكل معه بعض القطع الصغيرة من البسكوت المحشو باللوز. وكانت نادراً ما تتناول العشاء مكتفية، دائماً تقريباً، بوجبتي طعام في اليوم، بعد الغداء، إذا لم يكن الطقس حاراً جداً، كانت خدّوم تخرج إلى الفناء، فتجلس طويلاً تحت نخلة، تفتت بقايا الخبز للطيور. وكانت الطيور تنتظرها فوق السور، مشكّلة فوقه سلسلة مزقزقة صاخبة. وعند رؤيتها خدّوم خارجة من البيت، تترك السور في لحظة وتسرع نحوها متدافعة وهي تصفق بأجنحتها الملونة. تجلس على المقعد بشكل يتيح لها رؤية الذروة الحادة التي ترتفع فوق القلعة، ذروة الجبل الأقرع الذي ظلت أعلى ذروة فيه، رغم الغابة الكثيفة التي تغطي سفحه، قرعاء كمفصل الركبة، فكانت سبباً في تسمية الجبل بالجبل الأقرع. كانت خدّوم تفتت الخبز للطيور دون أن تحيد ببصرها

عن الجبل المندفع رمحاً في السماء – إنها تعرف كل منعطف فيه وكل نتوء، وكل كهف. لقد قضت ثمانين عاماً وهي تراقبه من فناء بيتها، وتبحث في كل مرة عن شيء ما جديد في مظهره فلا تجد: الأشجار الحديدية هي هي، مرتفعة كما كانت مرتفعة في طفولتها، وأشجار السنديان الحجرية – كما كانت في السابق لا يستطيع المرء إحاطتها بذراعيه، وأشجار الأرز، التي تنغرس تيجانها في السماء الصفراء، ما زال اختراقها مستحيلاً كما كان، والكهوف اللامعة كخطوط سوداء ما زالت صامتة ومخيفة، كهوّات في الزمن – تغوص فيها فلا تجد بعد ذلك طريقاً للعودة. بالمناسبة، ما هذه السبعون سنة في عمر الشيخة خدّوم، بالمقارنة مع العمر التوراتي للجبل الأقرع، إلا خفقة جناح جرادة. وإذا ما كان لواحد منهما أن يلاحظ التبدلات، فهو الجبل الذي يتأمل بلا مبالاة وبرود القلعة الحجرية، التي نمت في سفحه في خلال ثلاثمئة عام. وعلى امتداد هذه الأعوام الثلاثمئة مرت عبر القلعة القوافل التي تحمل إلى أغادير البعيدة، حيث مستودعات التجار، الأحمال الثمينة: الحرير، والنحاس، والقمح، والزيت، والزبدة النباتية، والتوابل، والسجاد. تمر القوافل بمحاذاة الطرف السفلي لغابات الجبل الأقرع النامية منذ آلاف السنين، وبجانب حقول «الموجيفالنيك» و«التماريسك» التي تغطيها الشجيرات البرية، وعبر مروج «الإلياندرا» التي تسمى هنا الريحان الوردي – متجهة إلى السواحل الرملية، وواحات السهوب. وعلى امتداد الطريق ترافق سلسلة قوافل الجمال، مجموعات حراسة من المحاربين البرابرة، تسلمها كل مجموعة إلى المجموعة التالية يداً بيد، كما في سباق التتابع. كان المسؤول عن أمن الطريق بمحاذاة سفح الجبل الأقرع، حتى أول السهول الرملية والد خدّوم – مولاي إسماعيل وهو عملاق طويل القامة، عريض الأكتاف ينتمي إلى قبيلة من قبائل البرابرة الجبليين التي تسمى «أعاري»[14] نسبة إلى المكان الذي هم منه أصلاً. توارث الأعاري الجبل الأقرع – وهم أناس ذوو أجساد عملاقة، وجمال مدهش غير محلي – بشرة ذهبية، وشعر أحمر ناري كثيف، وعيون زرقاء. نساء قبيلة أعاري كنّ في نظر أهل المنطقة أجمل عرائس جبل الأطلس الأوسط، أما الرجال فكانوا في نظرهم عرساناً مرغوبين عند أي أسرة تحترم نفسها. صحيح أن الزيجات المختلطة بين القبائل لم تكن ملحوظة في ذلك الزمن، لكن تلك الزيجات التي حدثت، حدثت حصراً من أجل وضع حد للصراع الدموي فيما بينها.

كان لدى إسماعيل العلوش المسؤول عن الأمن في مناطق الأعاري، فصيله الخاص من الفرسان المقاتلين الذين يحمون القوافل من هجمات اللصوص. إسماعيل نفسه كان رجلاً مؤمناً، محترماً، لا يعرف الخوف، ولا الحقد، ولا يكنّ غير الاحتقار البارد لأولئك الذين لا يحترمون القوانين الإنسانية، وقد حظي، بسبب عفته وشجاعته بالاحترام ليس فقط في أوساط أهل المدينة والتجار، بل أيضاً في أوساط بائعي العبيد السود الذين كانوا ينقلون عبر الطرق المجاورة إلى «الصوير» الرجال والنساء والأطفال البائسين المعدّين للبيع.

تجار العبيد كانوا يمرّون على بعد فرسخ من أراضي الأعاري، أما اللصوص فكانوا لا يتعرضون للقوافل التي يرافقها فصيل فرسان مولاي إسماعيل. وإذا ما تغيب في يوم ما، لسبب ما، والد خدّوم عن قيادة الفصيل، كان فرسه يتقدم المقاتلين وعلى سرجه الجلباب الأزرق الغامق الذي يستطيع المرء أن يميز على ظهره شعار آل العلّوش – شكل يتصالب فيه صليب وسيف وخنجر، تزين قبضاتها أغصان زيتون رفيعة. كان هذا الرمز يتكرر على السجاد والقماش الذي تنسجه حائكات آل علّوش، وفي التشكيلات الملونة التي ترسمها النساء في الأعياد على أكفهن وكعوبهن. والرمز نفسه يرسمونه على جبين وذراعيّ كل فتاة من آل العلّوش – بوصفه حرزاً، يؤكد انتماءها للأجداد، وتحذيراً مهيباً بأن أي محاولة للاعتداء عليها ستواجه بغضب رجال قبيلة الأعاري.

كان الوشم يفقد لونه بمرور الزمن ولكنه لا يختفي تماماً، وكان من الممكن أن يراه المرء

حتى على وجوه أقدم العجائز الملأى بالتجاعيد. خدّوم كانت آخر بنات آل العلّوش اللواتي وشم الرمز على جباههن. وقد وشمت بالرمز نفسه فتاة أخرى لا تمت بصلة إلى آل العلّوش في الوقت نفسه. هي لا تذكر ماذا كان اسم تلك الفتاة في الواقع – كان اسمها بطيئاً يخشخش كرحى طاحون حجرية يدور فيطحن حبوب القمح المجففة في الشمس الحارة، دقيقاً خشناً. الأم الكبيرة، جدة مولاي إسماعيل، قرأت على رأسها رُقياً، وسمتها فاطمة، وخبأت الصليب الصغير الذي كان على عنقها، في قعر إناء فيه مواد عطرية. الفتاة لم تعش طويلاً، عاشت شهرين أو ثلاثة أشهر، وماتت نتيجة التهاب رئوي حاد لم تستطع الأم الكبيرة التي كانت تعالج كل الأمراض أن تنقذها منه. دفنوها عند غروب الشمس، والشيء الوحيد الذي تتذكره خدّوم منها هم قدماها المجرّحان اللذان لم يتوقف نزيف الدم منهما إلا بعد الموت، وعيناها السوداوان الجميلتان جمالاً مدهشاً، المؤطرتان برموش طويلة كثيفة. الطفل، على عكس الفتاة، عاش، وقد سمته الأم الكبيرة علي، ولم يكن يحمل صليباً.

الأب هو من جاء بالطفلين إلى البيت – وجدهما في أحد دروب تجار العبيد السرية. لقد رموهما ليختنقا بسعالهما على طرف سهل رملي، يحيط على شكل قوس بأرض الأعاري. كان الطفلان ضعيفين جداً، لا يستطيعان حتى شرب الماء دون مساعدة، وكانا يرتعدان برداً، ويهذيان بلغتهما الخشنة التي تخدش الأذن، ويختنقان بالسعال، ويجرجران على الحصير كعوبهما الجريحة المضرجة بالدم. عمر الفتى لا يتجاوز الخمس سنوات، أما الفتاة فكان عمرها قرابة التسع سنوات، وكانا متشابهين إلى درجة مدهشة – شعرهما أسود، وعيونهما كبيرة، وملامح وجهيهما رقيقة. تحسنت صحة الفتى بعد أسبوع، أما الفتاة فظلت مريضة فترة أطول، لكنها شرعت، هي الأخرى، بالتحسن، عند ذلك دار الحديث حول الوشم – أم خدّوم هي من أصرّ على ذلك، لكي تحمي الطفلة من سخرية أترابها. لو أنها عرفت أن البنت ستموت لما وشمتها، لكن، من تراه يستطيع أن يتنبأ بذلك؟ لقد كانت الأم الكبيرة واثقة من أن الفتاة ستنجو من المرض حتماً ما دام الفتى قد نجا منه. ولم تدر في أسرة إسماعيل العلّوش أية أحاديث عن كيفية التعامل معهما في المستقبل، سيكبران ولدين في الأسرة، وسيتلقيان المساعدة الضرورية كي يبنيا حياتهما، هذا ما يجب أن يكون ولا شيء غيره.

في النصف الأول من النهار، حين يكون أترابه في المدرسة الابتدائية، يتجول علي في البيت، وفي النصف الثاني من النهار يركض معهم في القلعة يطارد العصافير، أو يظل حتى وقت متأخر من الليل يلعب بالحصى. – حين يكف عن البكاء – سنرسله هو أيضاً إلى المدرسة – قالت الأم الكبيرة.

كان علي يبكي ليلاً في نومه. ينوح نوحاً متواصلاً بنغمة موحدة وكأنه ذئب صغير – أو – أو – أو – أو – أو – أو. وتجري على وجهه دموع مالحة حارة، فتستيقظ الأم الكبيرة وتجتاز البيت كله، من غرفتها في الطابق الثالث إلى الطابق الأول حيث ينام الأطفال، تجلس عند رأسه، وتقرأ الأدعية. علي لا يكف عن البكاء، لكنه يهدأ، يتكوّر كعكة ويبكي في هدوء، وهو، حين يستيقظ لا يذكر شيئاً. أما البنت، وخلافاً لما هي عليه حال أخيها، فلم تكن تبكي أو تنوح أبداً. قضت كل هذه الشهور راقدة في غرفة الأم الكبيرة التي أخذتها إليها كي تبقى إلى جانبها دائماً. خدّوم بلغت الثالثة عشرة في ذلك العام، فحمّلوها مسؤولية شطف أرضيات غرف النوم، فكانت، مرة في الأسبوع، تطرق باب غرفة الأم الكبيرة (لا أحد كان يدخل غرفة الأم الكبيرة من دون إذن)، تنظف أرضية الغرفة، محاولة ألاّ تنظر إلى البنت التي ترقد ووجهها إلى الجدار، كاشفةً من تحت الغطاء قدميها الجريحين المدهونين بالكريم. هي ظلت عاجزة عن الوقوف على قدميها – كانت كلّ محاولة تقوم بها للمشي خطوة تنتهي برجفة شديدة ونزيف وكانت الأم الكبيرة تطلب أحياناً أن يحملوها إلى الفناء، حيث تجلس شامرة تنورتها، رافعة كمّي جلبابها الطويلين، كاشفة ذراعيها الموشومين، تضع البنت على ركبتيها

وتضمها إلى صدرها فتغمض البنت عينيها في صمت، تسعل أحياناً فيرتجف كتفاها النحيلان، وكان علي يقف إلى جانبهما، يمسك يدها، لكنه يضجر من الوقوف ساكناً، فيتركها ويدور راكضاً في الفناء، أما الأم الكبيرة فتغني الأغاني البربرية الرتيبة بصوت منخفض، وعيناها تنظران باستمرار إلى قمة الجبل الأقرع، وسرب من الفراشات الذهبية يحوم غيمة شفافة فوق رأسها.

لم يستطع أهل الدار أن يعرفوا كيف وقع الطفلان في أيدي تجار العبيد – فالولدان لا يفهمان البربرية، لو أن البنت عاشت وتعلمت اللغة بمرور الوقت، لأمكنها، أغلب الظن، أن تقول شيئاً، لكنها ماتت، وعلي، صغير جداً، ومن غير المتوقع أن يتذكر شيئاً. لكن الأم الكبيرة، التي كانت تراقبهما بانتباه، اكتشفت ذات يوم أن الطفلين يخافان جداً من صوت المؤذن الآتي من المئذنة العالية – كان الطفل يجمد في مكانه، والبنت تحبس أنفاسها، وترتجف جفونها المكسوة بالزرقة. غير أنهما تعوّدا سماعه فيما بعد ولم يعودا يخافانه، فهدأ قلقها. وذات يوم حملت قافلة كانت تمر في أراضي الأعاري نبأ عن أنهار الدم التي أغرقت الإمبراطورية العثمانية شعوبها فيها. ضحك مولاي إسماعيل ضحكة ساخرة، وقال إن الأتراك وصلوا حتى إلى هذه المناطق لكنهم تراجعوا وهم يلعقون جراحهم، فقد تبين أن قلاع البرابرة العصية أقوى من أسنانهم، لكنه نقل الحديث عن أن العسكر الأتراك باعوا بعضاً من الناس عبيداً، كلمة، كلمة، إلى الأم الكبيرة.

زفرت الأم زفرة حرّى وهزت رأسها. من المحتمل جداً أن يكون هذان الطفلان من هناك. والشيء الوحيد الذي يستطيعون فعله لأجلهم، إذا صحّ ذلك، هو عدم ذكر الماضي نهائياً. لا تنكأ الجراح وإلا فإنك لن تعرف أبداً كيف تكون سعيداً، هذا ما كانت تؤمن به الأم الكبيرة، لذا طلبت من حفيدها عدم نقل هذا الحديث إلى أيّ إنسان آخر، فوعدها إسماعيل بذلك، وحافظ على وعده.

بعد شهر، وبغض النظر عن أن علي لم يتوقف عن البكاء في الليالي، أمر إسماعيل بإرسال الطفل إلى المدرسة، وقال في ردّه على اعتراض الأم الكبيرة: إن تغيير الظروف يساعد الطفل على التخلص من مخاوفه. تطوّعت خدّوم للمساعدة، وظلت عدة أيام تصنع لوحاً للكتابة. وكان علي يحوم حولها، ويكرر بشكل مضحك ما تقوله من كلمات. أما هي فشرحت له بالتفصيل كيف يصنعون اللوح: يجب في البداية الحصول من عند النجار على مربع خشبي بالحجم المطلوب، ثم صنع ثقب فيه كي يصبح تعليقه بواسطة مسمار ممكناً، وصقله بعد ذلك بحفنة من الطين حتى يلمع لمعاناً كاملاً. وكان علي يستمع لها دون أن يفهم شيئاً مما تقول. لكن خدّوم كانت واثقة من أنه يفهم معنى ما تقوله بحس لا تفسير له.

– في المدرسة يكتبون بريشة مصنوعة من القصب، ويحصلون على الحبر من شجر الأرز – يشعلون النار في جذور الشجرة، فتسخن وتبكي بدموع لزجة سوداء. بعد ذلك يقصون بعناية الجزء المحترق من الساق ويدهنونه بسائل عشبي خاص، فيتماثل جرح الشجرة تدريجياً للالتئام ويكتسي لحاءه من جديد. تتابع الأرزة حياتها، لكن تبقى في جذورها فجوة يمكن أن تحمي المرء من المطر إذا كوّر نفسه كعكة واختبأ فيها. هل تفهم ما أقول؟

– تفهم ما أقول! – يحني الفتى رأسه بالإيجاب، وتغمر وجهه ابتسامة عريضة – منذ فترة وجيزة، سقط أحد قواطعه الحليبية، فأكسبت الفجوة بين أسنانه وجهه تعبيراً مثيراً للضحك. كانت خدّوم تضحك وتداعب شعره المنفوش. لقد أحبته بكل قلبها، بل أحبته أكثر مما أحبت إخوتها الأشقاء، ربما لأنها كانت تعطف عليه بسبب ما عاناه من عذاب. فمن الذي يستطيع أن يعرف أي عذاب مرّ به هذان الطفلان، الصبي والبنت، الأخ والأخت، اللذان أبعدا عن أبويهما ونقلا إلى بلاد غريبة كي يباعا في سوق النخاسة في الصوير.

كان علي يقدر علاقة خدّوم الطيبة به، ويبادلها حباً بحب، وحين ماتت أخته لم يعد يتواصل إلا معها، في البداية رفض تناول الطعام، وراح يبكي بكاء متواصلاً ويضمن كلامه بلغته الخشنة غير المفهومة، كلمات بربرية: «مؤلم جداً»، «ساعديني». وحين كانت خدّوم تعجز عن تهدئته، كانت الأم الكبيرة تتولى ذلك، تخرج معه إلى الفناء، تجلس في مواجهة الجبل الأقرع، ثم تجلسه على ركبتيها وتتمتم بالأدعية. وكان علي يبكي وهو يطمر وجهه في ثنايا جلبابها الحريري.

ذهب إلى المدرسة في أوائل موسم الشتاء، في البدء كانت خدّوم تأخذه إلى المدرسة وتعود لتأخذه منها. راقبته من النافذة خلسة – كان يجلس في الزاوية، إنه أصغر التلاميذ سناً، حائر، خائف، يضم إلى صدره لوح الكتابة، شعره المنفوش بدا على خلفية رؤوس الآخرين الحمراء الذهبية، بقعة سوداء، فكأنه طائر أسود كبير منفوش الريش حطّ على حافة حوض مزهر – حطّ ونسي أن يطير.

كان الملاّ، معلم القراءة والكتابة، رجلاً صارماً وعنيداً، وكان التلاميذ يتذكرون طول عمرهم ثقل عصاه التي كان يضربهم بها إذا انصرفوا عن الدرس. خدّوم سمعت من إخوتها عن قسوته فقلقت كثيراً على علي، لكن ذلك كان عبثاً – فعليّ اندمج بسرعة في العملية التعليمية، وبعد فترة، كتب بالريشة المصنوعة من القصب سور القرآن الكريم على اللوح، ثم صار يقرؤها بصعوبة وسط ضجيج من الأصوات المختلفة – كان الأولاد يتعلمون السور بقراءتها جهراً، علماً بأن كلاً منهم كان يقرأ سورة مختلفة عن السور التي يقرؤها الآخرون، وكانوا يعتقدون أن من يتعلم كيف يميز صوته وسط هذه الحزمة من الأصوات، يستطيع في وسط يسوده الهدوء أن يميز أفكار الآخرين.

في الربيع تزوجت خدّوم ابن عمها غير الشقيق، فصار عمها غير الشقيق حماها، وعمتها بالتبني حماتها، بيت زوجها كان ملاصقاً لبيت أهلها، السور ملاصق للسور، ولم تكن مضطرة للخروج إلى الفناء إذا أرادت زيارة الأم الكبيرة، فقد كان باستطاعتها أن تصعد إلى السطح الحجري المصقول، وتجتازه إلى سطح بيت والديها، ثم تهبط على درجات السلم غير المرتفعة، إلى الأسفل، إلى الطابق الثالث. ولذا لم تعانِ خدّوم أية مصاعب خاصة بسبب الزواج، فهي ببساطة، انتقلت من الأسرة إلى الأسرة. حملت مباشرة، وفي موسم الأمطار التالي أنجبت طفلة أسموها عائشة. كان علي يأتي أحياناً ليلعب مع الطفلة، وكانت خدّوم تراقبه مبتسمة وهو يلهو مع الصغيرة – يغني لها ويلاعبها، ويهدهدها.

– ستتزوجها حين تكبر، – قالت له مازحة ذات يوم.

– موافق – قال علي.

وهذا ما حدث فعلاً، فبعد ستة عشر عاماً صار علي صهر أخته بالتبني بزواجه من ابنتها البكر. وبعد ثلاثة مواسم أخرى من الأمطار الغزيرة، أصيب بمرض عضال أصاب رئتيه وهو ينتظر ميلاد ابنه يونس. نقله أخوته إلى كازابلانكا لعرضه على الأطباء. أحد أخوته عاد بعد عشرة أيام مهموماً، محبطاً وقال إنهم اضطروا إلى ترك علي في المستشفى، تحت رقابة الأطباء، وأن أحواله سيئة، لذا يجب الإسراع بالسفر لوداعه. أتمت خدّوم استعدادها للسفر في دقائق – وضعت الأولاد في رعاية حماتها، والتفت بجلبابها، وأسرعت عبر غرفة الأم الكبيرة التي لم يسكن أحد فيها بعد موت صاحبتها، ولذا بقيت، عملياً، على حالها. لم تتذكر خدّوم الطريق الصعبة إلى كازابلانكا، فالشيء الوحيد الذي رسخ في ذاكرتها هو عائشة الخائفة التي لم تع بعد فظاعة ما حصل، فراحت تهدهد ابنها ذا الثلاثة أشهر، وأبوها الجالس إلى جانبها – وقد بدا لخدّوم أنها لم تره من قبل أبداً محبطاً كل هذا الإحباط. الطريق كانت طويلة – في البداية ركبوا عربة إلى أقرب مدينة، ثم قضوا يوماً تقريباً في سيارة باص عتيقة على طريق مغبرة، وكان محرك السيارة ينفث دخاناً ويقرقع بشكل عجيب. شعرت خدّوم بالخوف فضمت ساقيها، لكنها لم تترك من يدها الحقيبة الصغيرة التي ضمتها إلى صدرها بقوة.

بدا علي ضعيفاً جداً، لكنه كان واعياً، فكأنه انتظر وصولهم ليودعهم. كان شاباً صغير السن، في الرابعة والعشرين من عمره، ليس في شعره الكثيف أية شعرة بيضاء، قسمات وجهه رقيقة، وعيناه واسعتان وعميقتان.

وضعت عائشة الطفل النائم على صدره، ثم جلست إلى جانبه وشرعت بالبكاء.

– لا تبكي، قال علي عابساً، فصمتت.

وضعت خدّوم الحقيبة على المنضدة الصغيرة، وأخرجت منها آنية العطور الفخارية الصغيرة التي أخذتها من غرفة الأم الكبيرة قبيل السفر، ثم أخرجت من الآنية صليباً صغيراً ودسته في يده.

– هذا كل ما تبقى من أختك.

فهم علي ما الذي دسته في يده، فشدّ عليه قبضته بقوة جعلت أطراف أصابع يده تبيضّ.

– شكراً.

مات في تلك الليلة، قبيل الفجر. الطبيب الذي كان موجوداً بقربه باستمرار، سأل عائشة فيما بعد، أين تعلّم المتوفي اللغة اليونانية.

– اللغة اليونانية؟

– نعم، لقد نطق باليونانية قبل موته. أنا درست في أثينا، أفهم اليونانية، عشر سنوات...

– ماذا قال؟ – قاطعته خدّوم بالسؤال.

– إيرخوم سي ساس. أنا آتٍ إليك.

– إيرخوم سي ساس، – كررت خدّوم العبارة لنفسها، – إيرخوم سي ساس.

دفنوا علياً في كازابلانكا، وعادوا في السيارة الباص نفسها – السيارة ترتعد صاخبة وتتوقف من حين لآخر طول الطريق، فيقوم السائق بمعالجة المحرك ويشتمه هو وإبليس، أما خدّوم فكانت تضم الحقيبة الصغيرة وفي داخلها آنية العطر إلى صدرها، وزجاج نوافذ الباص عكر خدشته العواصف الرملية، ويونس نائم يمصمص شفتيه الشبيهتين بشفتي أبيه، وظلال الرموش المخملية على خده.

بعد ثلاث سنوات تزوجت عائشة مرة أخرى، فأنجبت خمسة أطفال آخرين. وهكذا صارت خدّوم جدة للمرة الأولى وهي في الحادية والثلاثين من عمرها. أما في الخمسين فكان عندها ثمانية وعشرون حفيداً – عشرة صبيان، وثماني عشرة بنتاً. هي لم تفرّق بينهم في المعاملة، لكنها، مع ذلك، كانت تحب يونس أكثر من الجميع – الحفيد الأسمر الوحيد بين آل العلّوش. كان يونس يعرف أنه يوناني، وأن أجداده كانوا مسيحيين، لكنه، ظل على دين الأسرة التي ربّت أباه، فكان يصوم رمضان بانتظام. درس الطب، وانتقل إلى مراكش حيث تزوج من عربية، فأحزن ذلك قلب جدته، – لقد كانت خدّوم البربرية النقية، تنظر إلى العرب الكثيري الصخب، بحذر وببعض التعالي – فما الذي يمكن انتظاره من هؤلاء الغرباء الوقحين! بعد العرس مباشرة قدم العروسان للزيارة. خدّوم التي كانت قبل ذلك قد انتقلت إلى غرفة الأم الكبيرة، تعاملت مع زوجة حفيدها بحذر هو أقرب إلى البرودة، أما هرّتها (لم تكتف بمجيئها بل جلبت معها قطتها المقلّمة)، فكانت تكرهها بكل قلبها. ومن سوء حظها أن القطة اختارت لحماماتها الشمسية الطابق الثالث من المنزل، وقد تعثرت بها خدّوم عدة مرات وهي تخرج من

الغرفة. وذات يوم، قفزت القطة من تحت قدميها وتدحرجت على السلم إلى أسفل وهي تصرخ غاضبة، فقذفتها بحذائها المنزلي بكل ما تستطيع من قوة. لم تصبها، لكنها أفرغت شحنة الغضب التي في داخلها. سنا، زوجة يونس، فتاة أكثر حكمة من المتوقع في سنها، تظاهرت بأنها لا تلاحظ عدم استلطاف حماتها لها، وكانت تعاملها باحترام ولطفٍ. ولكي تدخل السرور إلى قلوب أهل زوجها، صارت تخبز يومياً خبزاً بربرياً حقيقياً. خدّوم رفضت أن تأكل من الخبز الذي تخبزه كنتها مدعية أنه يسبب لها الحرقة، وطلبت أن يحضروا لها الخبز الذي تخبزه كنتها الصغرى. وظلت تمتدحه طول أسبوعين مؤكدة أن الخبز البربري الحقيقي لا تحضّره إلا بنات قبيلة الأعاري. كان أهل البيت يتبادلون النظرات لكنهم يظلون صامتين. وذات يوم خرجت من غرفتها قبل الموعد المعتاد، فرأت سنا تودّع يونس – كان يونس يحمل تحت إبطه كيساً فيه قطعة خبز، انزلق عبر السور، وقف خارجاً قليلاً، ثم عاد وصفق البوابة متعمداً. عادت خدّوم إلى الغرفة، جلست على الديوانة، وضحكت ضحكة قصيرة. كانت آنية العطور على حافة النافذة الحجرية، تغمرها أشعة الشمس التي استيقظت لتوها.

– هل معنى ذلك أن طبعي فسد مع تقدمي في العمر؟ – سألت خدّوم، وهي لم تكن تعرف إلى من تتوجه بالسؤال – أهي تتوجه به إلى الأم الكبيرة، أم إلى علي، أم إلى صليب أخته الصغير، أم إلى آنية العطر الصغيرة. ما يهمها كان أن تحصل على الجواب، وقد حصلت عليه.

– سنا، يا ابنتي، – نادت مادة رأسها من باب الغرفة.

في الأسفل، في غرفة المعيشة الصاخبة، حيث مدّوا طاولة الفطور، ساد هدوء حذر.

– ماوو! – أجابت القطة بصوت نفاذ.

«ليقلبك الله إلى كلب!» – قالت خدّوم في سرها، لكنها تمالكت نفسها على الفور.

– سا ا ن ا! – نادت مرة ثانية.

– نعم يا جدتي، – أجابت العربية وهي تطقطق بكعبي حذائها على درجات السلم.

– منذ اليوم سآكل الخبز الذي تعدينه، – قالت خدّوم، وصفقت باب الغرفة دون أن تنتظر منها جواباً – لا تطلبي مني أكثر من ذلك! – قالت مشيرة بإصبعها إلى آنية العطر. لكن آنية العطر الحكيمة ظلت صامتة، ولم تجبها بشيء.

راحت الحياة تتبدل بسرعة لم تستطع خدّوم أن تجاريها، فتألف التغيرات التي تطرأ عليها، أو حتى تلاحظها. غير أن بعض الأمور حظيت باهتمامها طبعاً. أدخلوا إلى القلعة الكهرباء، وظهر الماء في البيوت، فلم تعد هناك ضرورة لبذل جهود تقصم الظهر لجلبه من الآبار. وذات يوم علت في الشارع ضجة لا تطاق وتدحرجت فيه كتلة معدنية سماها الجميع بتنغيم «موبيليت» يقودها ابن حكيم الأعور. لم تتقاعس خدّوم عن الذهاب لرؤية هذا «الموبيليت» فذهبت وليتها لم تذهب.

كان ابن حكيم يصلّح «الموبيليت» بالمطرقة واللحام – يلحم هنا، ويطرق هناك – ثم زوّده بالزيت والبنزين، فأطلق «الموبيليت» دخاناً أصاب خدّوم بالغثيان نصف يوم بطوله.

بعد بعض الوقت وضعوا بحفاوة كبيرة جهاز تلفزيون في بهو الضيوف. تجاهلت خدّوم الجهاز شهراً كاملاً، ثم لم تستطع الاستمرار في تجاهله، فنزلت لتراه. كان أهل البيت يضحكون وهم يستمعون إلى حوار بين رجلين يسخرون من أعمال المطبخ المراكشي الكثيرة، كانوا يتحدثون عن تحضير طبق من لحم طائر الحجل «خذي طائر الحجل، احشيه بالكسكس. وخذي دجاجة منتوفة الريش واحشيها بالحجل، ثم خذي إوزة، واحشيها بالدجاج، احشي خروفاً بالإوزة، وبقرة بالخروف،

وجملاً بالبقرة، وفيلاً بالجمل. ضعي ذلك كله/24/ ساعة على نار خفيفة، وصبي فوقه المرق من حين لآخر. ثم قدمي الطبق على النحو التالي: شققي جوف الفيل، أخرجي الجمل، ومن الجمل أخرجي البقرة، ومن البقرة – الخروف، ومن الخروف – الإوزة، ومن الإوزة – الدجاجة، ومن الدجاجة – الحجل. وكلي بشهية من أدى واجبه، لأن تحضير طبق الحجل نجح معك نجاحا رائعاً.»

طوّحت خدّوم يدها في الهواء وخرجت إلى باحة الدار، جلست قبالة الجبل الأقرع. إنها تعيش منذ زمن بعيد، وهذا ما جعلها تشعر أنها هي نفسها، جبل، لقد تعلمت أن تنظر إلى مشاغل الناس بحيادية وعن بعد، واستسلمت لسرعة مرور الأحداث. سيأتي غد – ولن يكون هناك أي شيء، لا الشوارع الحجرية المتعرجة، ولا الجدران المزينة بالموزاييك الملون، ولا الأبواب القديمة التي نخرها زيز الخشب، ولا تيجان أشجار النخيل التي لوّحتها الشمس – مرّر يدك عليها فتتساقط غباراً من قش، وتغرق في العدم.

«الحياة شبيهة بحلم منتصف النهار – حلم قصير، ملون، حار، – قالت خدّوم في سرّها. – إنها ترنّ بضحكات أولادنا، وتنهمر بالدموع عند موت أهلنا. تفوح منها رائحة رياح المحيط والصحراء، وعرانيس الذرة، وأوراق الشاي المعطرة – روائح كل شيء ليس مقدراً لنا أن نحمله معنا».

قلّما كانت خدّوم تتوجه بخطابها إلى الله – كانت تحرص ألا تقلق جلالته بأشياء فارغة. كانت تحزن وهي ترى السعي الزائد عن الحد الذي يتوجه به إليه الناس الأغبياء. إنها لم تسافر أبداً إلى الحج، لكنها كانت تحسب بدقة النقود التي ستدفعها لو حجت، وتعطيها لأسرة محتاجة. لقد كانت تعتقد أن الإيمان يجب أن يكون في القلب لا في المظاهر.

لقد كانت، بالمناسبة، تتجرأ في حالات نادرة جداً، فتتوجه إليه طالبة منه أن يشير إلى الوقت الذي يحين فيه أجلها، كي تستطيع الاغتسال وارتداء الثياب النظيفة وتنطق بشهادة الوداع.

– وأن تترك لي، – تضيف رافعة عينيها المطفأتين إلى السماء، – إذا كان ذلك ممكناً، نصف زفرة أقول فيها الكلمات التي قالها علي قبل موته.

خدّوم كانت واثقة من أن الولد والبنت اللذين أنقذهما أبوها آنذاك، سيسمعانها، الولدين الشقيين اللذين لم يتمكنا من تغيير قدرهما المر. إنها، حين يحين أجلها، وفي لحظة خروج نفسها الأخير ستكرر ما قاله علي – إيرخوم سي ساس. إن الله كليّ الرحمة، وسيسمح لها بذلك.

الحرب

حربي.

أنا لا أذكر متى بدأت حربي.

قد تكون بدأت في ذلك اليوم حين كفت قريبتي لوسينيه عن الخروج من القبو. كان القبو المكان الوحيد الذي يمكن الاحتماء فيه من القذائف، إذ لو أصيب المنزل إصابة مباشرة لما نجا أجد من سكانه. لم يكن هناك مكان آخر للنجاة، لذا حين سمعت أسرة عمي صوت الانفجارات ركضت إلى القبو. على طول الجدار اصطفت أوانٍ فخارية تذكّر بلمسات يدي جدتي، تاتا. وعلى الرفوف العريضة تابع التين الذهبي الشفاف نضجه، تلمسه – فيقطر دموعاً حلوة لزجة. وفي الزاوية ديوانة خشبية قديمة – عريضة، ظهرها من الخشب الأحمر المصقول، وذراعاها مدهونان بلون غامق تشقق عند موضع الكوعين. لوسينيه كانت تجلس رافعة ساقيها فوق الديوانة، ضامة ركبتيها بيديها، وهي تبكي في صمت.

البيت يئن، كما لو كان حياً، حين كانت القذائف تسقط قريبة منه. كان يتمايل من جنب إلى جنب، يتنفس بصعوبة، وتتناثر حوله قطع صغيرة من الحجارة.

من المحتمل أن تكون حربي قد بدأت في ذلك اليوم بالضبط، حين رفضت حبيبتي لوسينيه الخروج من القبو رفضاً أبدياً، وصارت، حين يطلبون منها أن تطل، لو إطلالة سريعة على الفناء، تزرقّ، وتختنق بأنفاسها، وتفقد الوعي.

أو أنها بدأت في ذلك اليوم حين عدت بعد دورة امتحانية من يريفان؟ عشر ساعات طويلة يخالها المرء بلا نهاية، في السفر على طريق غير معبد – الطريق المعبد الوحيد بقي على الطرف الآخر من الحدود، والباص "إيكاروس" غاص حتى الركب، في الوحل الذي يصعب اجتيازه في الممر الجبلي الضيق. وعلى طرف الطريق راح يتحرك جرار صغير عتيق علقت جنازير عجلاته بشكل خطر فوق الهاوية، محاولاً جرّ حافلتنا العاجزة نحوه.

بعد ذلك بدأ إطلاق النار. لم يكن ثمة مكان نختبئ فيه، المنحدر الذي علقت فيه سيارتنا يرى من الناحية المقابلة بوضوح كامل. جمد الرجال في انتظار الموت وقد حموا بأجسادهم النساء والأطفال. الجرار وحده لم يهتم بالطلقات النارية وظل يجر "الإيكاريوس" الثقيل بعناد.

– دعه، – كانوا يصرخون، – دعه!!!

لكن الجرار لم يستسلم، ظل يضج بإصرار، وهو يشق طريقه أعلى فأعلى، وظل الناس يراقبونه جامدين في أماكنهم، ثم مشوا خلفه، حتى الأطفال كفّوا عن الصراخ، واكتفوا بالبكاء بصوت منخفض، وراحت النساء تولول بحزن.

– الموت ماشياً أقل إثارة للخوف، صاح بنا سائق الجرار مودعاً، كان رجلاً أشيب، ضئيل الحجم، يرتدي سترة ملطخة بالزيت، وسراويل مدعوكة محشورة في جزمة مطاطية، لوّح بيده ينطلق نحو الأسفل في الطريق الضيق لسحب باص النقل من أسر الطين. الأبطال أناس بسطاء دائماً، الأبطال الذين يستعرضون عضلاتهم وهم ينقذون العالم لا يوجدون إلا في الأفلام. الأبطال الحقيقيون وجوههم دائماً بسيطة جداً.

– إنه يعمل وحيداً لليوم الخامس في هذا القطاع من الطريق؛– قال السائق فيما بعد وهو يقود السيارة نحو خزان المياه، – إنه يقضي نهاره وليله عند المنحدر.

– ألا يوجد له بديل؟

– لا يوجد. بديله قتل في الأسبوع الماضي.

– الموت ماشياً أقل إثارة للخوف، – تذكّر أحدهم كلماته.

– بديله قتل هكذا بالضبط، ماشياً، – قال السائق هازاً رأسه. – هو محق طبعاً، فالأفضل أن تفعل شيئاً بدلاً من أن تنتظر مستسلماً.

أليس من المحتمل أن تكون حربي قد بدأت في ذلك اليوم؟ في تلك اللحظة المذلة، لحظة العجز المطلق، حين تشعر أنك هدف حيّ ليس أكثر، ليس أكثر.

أم أن بداية حربي كانت حين سقطت قنبلة في حديقة بيتنا؟ كانت ليلة صماء، حطمت فيها موجة الانفجار الزجاج، وأسقطت أختيّ النائمتين عن السرير إلى الأرض وتساقطت فوقهما الشظايا، ودار في الهواء ريش اللحف التي تمزقت وتمزقت معها الستائر... غايانيه ظلت بعد ذلك عدة أسابيع

لا تنام في الليل، بل تنظر خائفة بعينين ذهبيتين، نظرات تجعلني أرغب في ضمها إلى صدري ضمة لا أتركها من بعدها أبداً. كان عمر سونيتشكا عشر سنوات، رحت أقارن بينها وبيني حين كان عمري عشر سنوات، بكيت متألمة لأجلها، كم نحن مختلفتان! وكم هي صعبة هذه الطفولة التي قدّر لها أن تعيشها...

بابا لا يقيم أبداً في البيت. وهو، إذا جاء يوماً، ينام قرب الباب، حتى ينطلق إلى المستشفى فور سماع بوق سيارة الإسعاف – سيارات الإسعاف لم تكن تطلق أبواقها إلا إذا كانت تنقل جرحى. كان هذا اتفاقاً غير معلن لاستدعاء الأطباء. وكان بابا يضطر في أحيان كثيرة إلى الذهاب تحت القصف، فلا نستطيع أن نعرف هل وصل سالماً أم لا، لأنك لا تستطيع أن تتصل به. أو تسأل عنه فأجهزة الهاتف صامتة.

نقل ذات يوم فتى مصاباً بجرح قاتل – شظية حطمت عموده الفقري، وسال دمه في الشارع.

– دكتور، – قال بصوت أقرب إلى الأنين، حين مدده بابا على المقعد الخلفي للسيارة، – دكتور، أنا سأعيش، أليس كذلك؟

– وسنرقص أيضاً يوم عرسك، – قال بابا يعده.

غير أنه لم يصل به حياً إلى المستشفى. سكر يومها سكراً شديداً وقال إنه أحس بظهره كيف أخذ الموت الفتى.

السيارة التي غسلناها بالكلور ظلت أسبوعاً واقفة، مفتوحة الأبواب، لكن رائحة لحم الجسد المحروق لم تختف منها، فاضطررنا إلى تلبيس صالونها ببطانة جديدة، ثم باعها بابا بعد ذلك.

لم يعد بابا يطيق استخدامها.

أنا لا أعرف متى بدأت حربي.

أذكر أن جو أواخر الصيف كان يسود في باحة الدار حين بلغت هي ذروتها – حر شديد، جو جميل متكاسل، عناقيد واطئة من النجوم الملونة.

لقد بدا للناس أن هذا الجمال نوع من السخرية. ان تراقب صراع الألوان في حين تتحول فيه حياتك ألماً، أمر في غاية الصعوبة. الحرب تجعل الناس ملحدين أو مؤمنين إيماناً أعمى. لا ثالث بين هذين النوعين. الحرب تجعل الناس طيبين أو أشراراً. لا ثالث بين هذين النوعين. إنها تكرهك من أعماقها ولا تطالبك بالتسامح معها. إنها عدو سافل، وقوي، وغير إنساني.

لقد ظننت أني دفنت الحرب هناك، في الجبال، لكنها، لو نظرت إلى عينيها مرة واحدة، لن تتركك إلى الأبد. الحرب ستعود إليك فوضى من الأفكار، ورؤى فظيعة، ونوبات خوف لا تمكن السيطرة عليها، ودموعاً تنهمر بلا سبب...

ستهربين في كل مرة إلى غرفة ابنك كأنك تطلبين منه أن ينقذك، ستزحفين على ركبتيك بجانب سريره، ويعوجّ فمك في بكاء صامت، وتقبلين خصلات شعره اللينة، وتمسدين يديه وتتمتمين: إلهي، لا تدعها تعود، إلهي، لا تدعها تعود، إلهي، لا تدعها تعود أبداً!

زانازان.

– زانازان! يا زانازان! أتريدين إجاصة؟

لزانازان رموش طويلة، وعينان بلون السيرين. شعرها كثيف، عسلي، لا شيب فيه، يتموج في ضفائر عند الصدغين.

أمد يدي لها بالإجاصة. تنظر في اتجاهي، ولا تحيد ببصرها.

– خذي الإجاصة يا زانازان.

تهز رأسها.

بشرة زانازان زيتونية اللون، وعليها نمش أحمر. إنها عندنا غير عادية، لا مثيل لها.

– ماذا أقدم لك كضيافة؟

تغطي فمها بقفا كفها – خط الحياة في راحتها غير واضح، وقصير، وينقطع في منتصف الكف.

– زانازان؟

– إم؟

– كلميني.

تظل صامتة. أصابعها شاحبة، طويلة، في سبابة يدها اليسرى – خاتم بسيط. تقف وقفة طريفة، مصالبة ساقيها. على فخذها آثار جرح له شكل الهلال.

– متى جرحت؟

تهز كتفها. تبتسم ابتسامة شاردة، فكأنها تبتسم في داخلها. أشعر برغبة في ضمها إلى صدري، لكني لا أفعل. زانازان لا تحب أن يلمسها أحد.

– لو كنت أجيد الرسم لرسمت وجهك.

تنظر إلي في شك. تتردد ثم تأخذ الإجاصة.

– قولي لي شيئاً يا زانازان.

تخرج، تغلق الباب خلفها في هدوء.

أتتبعها في خيالي، وهي تنزل على الدرج – الاستراحة الأولى، فالثانية، ثم تخرج من تحت سقف المدخل إلى الفناء الذي تغمره الشمس.

– زانازان! يا زانازان! – يناديها الأولاد.

تمشي، لا تلتفت. ضفيرتها تتدلى خلف كتفها، نهايتها مربوطة بقطعة مطاط مضحكة.

قبل عشرين عاماً كانت الحرب. استقبلتها زانازان حبلى. حدث المخاض تحت القصف. لم يكن بالإمكان استدعاء سيارة الإسعاف – أجهزة الهاتف صامتة. لا يمكن طلب المساعدة من الجيران – لماذا ترغم الناس على تعريض حياتهم للخطر. صبرت إلى أقصى حد تستطيعه. وحين صار الألم لا يطاق – جمعت أشياءها وذهبت مع زوجها إلى المستشفى، تحت القصف. الزوج أصيب بشظية، والطفل لم يتمكنوا من إنقاذه.

– زانازان! يا زانازان! – ينادي الأطفال.

هي تمشي ولا تلتفت.

إنها تعيش مع حماتها العجوز.

– مع من أتركك حين أرحل؟ – تقول الحماة باكية.

زانازان تبتسم ابتسامة قصيرة، لا مبالية، تمد يدها بالإجاصة لحماتها.

– إم – م – م.

رموشها طويلة وكثيفة، وعيناها بلون السيرين. هل رأى أحد عينين بلون السيرين؟ أنا رأيتهما عند زانازان.

أنا أعيش

فيكا تقول: لا وقت لدينا ولا مسافة، وكل لقاء لنا محدد، وكذلك كل فراق. لا تبكي إذا أخذوا أحداً من الأسرة، لا تبكي إذا أخذوه منك فأنت لا تقررين شيئاً، أنت، ببساطة، تقتفين الآثار التي رسمها من خطط حياتك من اليوم الأول إلى اليوم الأخير. أنا أصدق فيكا أكثر مما أصدق نفسي. لقد كانت هناك حيث لم يقدر لي أن أكون، وقد رأت ما لم أره حتى في الأحلام. فيكا التقت بالملائكة – إنهم مختلفون، مجنحون، وغير محدودي الحجم، لبعضهم وجوه مخيفة، رؤيتها تسبب الألم. إنها تعرف كيف تصور كائنات العالم الآخر بألوان مائية يبدو معها أن الإنسان الذي صنع هذا لم يعرف الشقاء أبداً.

إذا سألتها ما الذي رأته وتعرفه، تجيبك – لا شيء، ثم تنظر من فوق كتفك. إنها ذلك الجزء من روحي الذي أريد تخبئته بيديّ كي لا يراه أحد. إنها كنزي. ولن أعطيه لأيّ كان.

مارينا تقول – انظري ما الذي اخترعته أيضاً، انظري ما الذي اخترعته. كفّي عن ذلك فوراً، ما زال الكثير من الجمال ينتظرك في المستقبل، وأنت ما زلت تفكّرين بالتفاهات. ارمي كل هذا من رأسك حالاً، تقول مارينا. إنها تتحدث أحياناً – بصوت عادي منخفض – عن أناس يظلون معها دائماً، عن العم العجوز فانو، الذي بقي في بلدته سوخومي حتى النهاية، الجميع رحلوا، أما هو فبقي ليحمي المنزل وأشجار الكرمة، فمن سيرعاها إذا ذهب، ضربوه، وهددوه بالقتل، فصبر، لكنه استسلم حين عجز تماماً، وسافر إلى بيت ابنته حاملاً ربطة ثوم، ومرتدياً جوربين مختلفين، ومات بسبب الكآبة. أو تحدثنا عن ابن أخيها الذي طلبوا منه أن يرمي الصرة التي حملها من بيت أبيه وهو يغادر إلى الأبد – ارمها – أمروه، وضربوه على ضلوعه بأخمص بندقية، رفض، فقتلوه بالرصاص، وحين سقطت الرزمة وانفتحت، تناثرت منها كأضلاع المروحة، الصور العائلية – الجد والجدة الجورجيان، نبات الأكاسيا في حديقة النباتات، وشاطئ البحر في الصيف الحار. إن هذا لن يتكرر في حياتنا – كانت مارينا تقول هذا أحياناً، بثقة، وهي تنظر إلى عيني مباشرة. أنا أثق بها أكثر مما أثق بنفسي. إنها ذلك الجزء من روحي الذي أريد أن أعرضه على كفي، وأتباهى به أمام الجميع – انظروا، ماذا أملك. إنها كنزي، ولن أعطيه لأحد.

تتكوّن حياتي من ذكريات في لوحات بعضها يفقد لونه ويختفي، وبعضها لا يعترف بالزمن أو المسافات. الخفّافة، مثلاً، عنق طويل، وبنود جلدية لونها (بيج)، وقفل ذهبي. كانت واسعة أكبر من مقاس الرجل بعدة أرقام، لذا حين انتعلتها البنت ومشت بها كانت أشبه بلاعب سيرك يمشي على الحبال في الهواء فارداً يديه. الثوب من الشيفون، رقيق، لونه مزيج من الفيروزي والبنفسجي، يتطاير ذيله عالياً في الهواء، ويترجح سوار ذهبي على الذراع الأيسر – تجمع البنت كفها في قبضة كي تمنع

السوار من الانزلاق والسقوط. كان ذلك في عام اثنين وتسعين على ما أظن، مدينتي في طرف البلاد، في طرف العالم، تحارب، لا تهدأ، رمادية يلفها الضباب، مقلّمة بظلال ممزقة، لكل بناء نصف مهدم، مدينتي – الضائعة، الذاهلة، راحت تنظر مأخوذة كيف تمشي بنت عشر سنوات – في ثوب امرأة، وخفّافة بكعب عال، وحليّ باهظة الثمن. فيما بعد استيقظ أحدهم من ذهوله اعترض طريقها، ومدّ لها يده بصمت. وهي مدت يدها باطمئنان، وقادوها إلى البيت.

هناك وقع حادث عادي تماماً في الحرب – في القصف قتلت ماما والأخ الأصغر، وبقيت البنت والأب وحدهما. وذات يوم، بعد عدة أسابيع بعد الدفن، لبست أجمل ثياب ماما وخرجت في المدينة المحاربة. مشت – وهي تبتسم.

حين أتذكّرها تتبدل نغمة صوتي، وتزداد نظرتي قتاماً، لكن فيكا تقول إنه ليس مقدراً علينا أن نمرّ بتلك الطرق التي اجتزناها ذات يوم، ومارينا تقول إن كل ما تركناه وراءنا، لن يعود إلينا أبداً، وأنا أثق بهما أكثر مما أثق بنفسي، ولا خيار غير ذلك، إما أن تثق وتحيا، وإما أن ترفض وتموت. وأنا اخترت أن أحيا.

بيرد

كانون الثاني

من كل أوقات السنة، لا نلاحظ نحن الأطفال إلا الشتاء. ربما لأن الشتاء لا يكون طويلاً بالقدر الذي نرغب فيه، ولا يكون مثلجاً بالقدر الكافي، كما هي حال المنحدر الذي يفصل بيننا وبين بقية العالم، – حيث يهطل الثلج فوق الجبال ولا يغادرها ويفكّ أسرها إلا في الربيع.

الشتاء كان يأتي في كانون الثاني. تدور الريح الصقيعية طويلاً فوق البيوت التي أضناها الانتظار، ثم بعد ذلك، في ليلة يسودها الهدوء، يغطيها الثلج دفعة واحدة بغطاء إسفنجي أبيض. استيقظت في الصباح – العالم وراء النافذة يبدو وكأنه ممحيٌّ بممحاة، ولكن ظلت فيه هنا وهناك خطوط بالقلم الرصاص، تظهر قطعاً من السور الخشبي، أو إحدى إشارات الطريق التي ضربتها عربة مرت بجانبها.

بعد أن شبعنا لعباً بالثلج، اندفعنا كومة صاخبة إلى حيث ناني. سحبنا بأسناننا قفازاتنا، وخلعنا أحذيتنا، وكوّمنا معاطفنا وقبعاتنا على الديوانة في الممر، وركضنا نخبط الأرض بصخب بأقدامنا – ما زلت حتى اليوم أذكر الصرير الحزين لألواح الأرضية الخشبية، – إلى المطبخ. ناني تنتظرنا هناك. تصب لنا حساء فاصولياء كثيف، وتنثر فوقه رقاقات مقلية من اللحم، وتقطّع بعض الملفوف الأحمر، وتدهن قطعاً من الخبز المنزلي المحمص على الموقد بسن من الثوم. م م م، لا أعرف شيئاً أطيب طعماً من هذا الطعام الريفي المبتكر.

كانت بعد هذا الغداء الدسم، تجلسنا حولها وتروي لنا حكاية عن الملائكة ذوي الأجنحة السبعة، الذين كان كل جناح من أجنحتهم ملوناً بأحد ألوان قوس قزح، وكل ريشة من ريشات أجنحتهم تقتل سبع جنيات شريرات. الجنيات يخرجن ليلاً من حافة الأرض ليسرقن أرواح الناس النائمين فتذبحهن الملائكة بريشها الذي يفعل فعل السهام.

– معنى ذلك أن الخير والشر يتحاربان للفوز بكم وأنتم نيام، – بهذا تنهي ناني حكايتها.

– وماذا يفعلان نهاراً حين لا نكون نياماً؟ – يسأل أحد الأطفال.

– الملائكة تنمّي لنفسها أجنحة جديدة، أما الجنيات – فينمّين أنياباً جديدة.

كنا نستمع حابسي الأنفاس. أختنا الصغرى تفقد القدرة على احتمال التوتر، فتنتابها (حازوقة). ننهرها، فتغلق المسكينة فمها براحة يدها.

وذات يوم، حين أعادت ناني رواية حكايتها بناء على طلبنا، أطل على المطبخ العم جورا الذي انتسب في ذلك العام بالذات إلى المعهد التقني. سمع حكاية الملائكة السبعة فصار يسأل كيف يطيرون.

– يطيرون كالطيور، – أجابت ناني باعتزاز.

– السبعة لا تنقسم على اثنين، أليس كذلك؟ – لم يستسلم العم.

– صحيح.

– وإذن، هناك ثلاثة أجنحة على كتف، وثلاثة أجنحة على الكتف الآخر، فأين يكون الجناح السابع في هذه الحالة.

احتارت ناني. واكتأبنا نحن – انهارت أسطورة الملائكة أمام أعيننا. حتى أختي الصغرى زايلتها (الحازوقة) واغرورقت عيناها بالدموع. في هذه اللحظة دخل جدي إلى الغرفة وصفع العم جورا صفعة قوية على نقرته.

– الجناح السابع احتياطي، هل فهمت؟ يعلّقه الملاك بحزامه. هل لديك أسئلة أخرى؟

لم يطرح العم جورا أية أسئلة بعد ذلك.

شباط

– البارحة تلفنت لك ثماني مرات ولم تردّي على الهاتف، – قالت ماما مستاءة.

– أنت تلفنت؟ التلفون كان صامتاً طول الوقت.

– لقد تلفنت لك على السكايب!

– ماما، هل كنت آنذاك على الشبكة؟

– وكيف لي أن أعرف؟

ماما بكامل ماكياجها، تضع أقراطاً في أذنيها، ومنديلاً على رقبتها، وقد سرحت شعرها تسريحة جميلة. أنا أدلي شعري ذيل حصان متنهدة، وأمسد حاجبي، وأخبئ يدي كي لا تلاحظ عدم وجود المناكير على أظافري.

– أنت جميلتي، – تقول ماما.

أحني رأسي بالإيجاب. جميلة، نعم، من يقول أني لست جميلة يصبح العدو رقم واحد في نظر ماما. وأنا لست مجنونة كي أخرّب علاقتي بأمي!

– نارينيه، أنا قرأت هنا وصفة ممتازة «للماسك». اكتبي: ابرشي برشاً ناعماً أربعين غراماً من الزنجبيل، وأضيفي ملعقتي شاي من العنبر المطحون، صبي الماء الغالي فوق الخليط...

هل تدونين ما أقول؟

– أوهوم!

– ألا تكذبين؟

– لا.

– تظنين أنني لا أرى أنك تكذبين! هيا اكتبي.

اضطر للكتابة، وللقراءة بعد ذلك بصوت مسموع، وأنا أحرص كل الحرص على عدم إغفال شيء لا سمح الله.

– لقد جمعنا بعض الأشياء لنرسلها لك، – قالت ماما في مجرى الحديث.

– مرة أخرى؟ – قلت في قلق. نحن لم نأكل بعد ما أرسلتموه في عيد رأس السنة.

– غباردينيتس يرفاند مسافر إلى موسكو. أتريدينه أن يسافر بيدين فارغتين؟!

– ليسافر بيدين فارغتين.

– أنا لا أعرف شيئاً. سيصل بعد ثلاثة أيام. لقد كتبت له العنوان. سيجيئك بالأغراض إلى البيت مباشرة.

– هل سيعرف كيف يأتي؟

– سيعرف. معه الجهاز الذي يرشد إلى الطرق، الجهاز الذي يسمونه جي بي. ري. سي.

– ماما! – أختنق من الضحك.

– لا تسخري. ما اسمه حقاً؟ جي. بي. سي. ري؟

– اسمه جي. بي. إس.

– لماذا، إذن، تسخرين، مادمت ذكرت الاسم الصحيح؟ عموماً، انتظري! الأغراض ستصلك قريباً.

– ماما، من هذا الرجل غباردينيتس يرفاند؟ ولماذا يسمونه غباردينيتس؟ هل جده أول رجل ارتدى معطفاً من الغباردين؟

– لست أدري. يجب أن أسأل أباك عن ذلك، إنه يعرف آل غباردينيتس جيداً، فهو طول عمره يعالج أسنانهم.

الأغراض وصلت في الوقت المحدد بالضبط، بعد ثلاثة أيام. أنا أتعرف في الحال على الميكروباص الذي جاء فيه غباردينيتس يرفاند، أولاً، من خلال سقفه الصدئ وجنبيه المهلهلين، وثانياً، بسبب الحشد الصغير من سكان المدينة الذين ثار فضولهم فتخلوا عن تعالي أبناء العاصمة، وأحاطوا بهذه السيارة الأثرية من كل الجهات. وأخيراً من خلال الدواليب المنفلشة ونوابضها المشدودة في الاتجاه المعاكس، فقد كان واضحاً، حتى من شقتي في الطابق السابع عشر، أن الميكروباص كان محمّلاً إلى أقصى حد.

وأكتشف أن غباردينيتس يرفاند رجل مشورب خدوم إلى حد لا يصدق.

– بنيتي، أنا أحترم أباك جداً، ولذا جئت إليك قبل الجميع، – يخرج من الميكروباص حملاً ضخماً، – أرني الطريق، أين أضعه؟

غباردينيتس يرفاند، يدخل الشقة باحترام، يتمطّق معجباً بصندوق من الخشب القديم، يتلمس مشعات التدفئة – ألا تشعرون بالبرد؟ لا؟ برافو! يتأمل الجدران، يرى على أحد الرفوف بطاقة عليها صورة آرارات، يهدأ، يعتذر عن الغداء، يشرب فنجان قهوة، ويبدأ في الوداع.

– حان وقت رحيلي، عليّ السفر إلى نوفوكوسينا أيضاً، وبعد ذلك إلى ميتيشي، أوزع الأغراض على أصحابها.

– شكراً جزيلاً لك.

– ولماذا الشكر؟ من غير المعقول أن أجيء خالي اليدين. ها قد نقلت لكم ما أرسلته ماما. هذا نافع لك، وممتع لي.

أودع فارس بيرد حتى المصعد ثم أعود إلى الشقة. أفتح الطرد الذي رتبت فيه أمي ضيافاتها بمودة. خمسة كيلوغرامات عسل، كيس من الجوز المقشور، زجاجتان من عصير العنب، وبعض الأشياء الصغيرة، لحم مدخن (فخذ كامل)، بسطرما، سجق، ثلاثة كيلو غرامات. الأقراص من دقيق القمح الفاخر، جبنة بيضاء بيتية، أكياس صغيرة من الفلفل والنعناع والتوابل

المجففة.

أستطيع ألا أذهب إلى المخزن حتى الربيع.

آذار

أنا أكتشف جماعتي في ثانية، بحاسة وحشية غامضة.

أخذت الجزمة لإصلاحها.

يكتب لي الإيصال رجل بدين أزرق العينين، أشقر الشعر. إنه من حيث المظهر رجل عادي من سكان القطاع الأوسط من روسيا. لكني أرى أنه من جماعتي، بل من أهل بلدي تماماً، من بيرد، أو قد يكون من كاراباخ.

– مرحباً، – أقول له، – أريد إصلاح الكعبين.

في الشتاء قام بعض (الزعران) الطائشين برسم الصليب المعقوف على باب هذه الورشة لإصلاح الأحذية، فقام الإسكافي بدهن أطرافه بعناية وحوّل أذرعه إلى براعم زهور صغيرة، وهكذا تحول الصليب المعقوف إلى ورقة بأذرع أربعة من نبات رمز السعادة.

أخذ الجزمة، فحص الكعبين، وعبس مستاء. أراهن على قطع يدي أنه كان يقول في سره: «من الواضح أن هذه الجزمة ليست من صنع الأرمن. لو أن الأرمن صنعوها لما اهترأ الكعبان بهذه السرعة». أوه، إنه الاعتداد الكبير بالنفس، الذي تتصف به الشعوب الصغيرة!

– سيكلفك ذلك ثلاثمئة روبل، – يبدأ بملء الإيصال، – ما كنيتك؟

– أبغاريان، أقول وأنا أخفي ابتسامتي.

– من أرمينيا؟

– نعم، وأنت؟

– من أرمينيا أيضاً.

– من أين؟

– من بيرد.

– هذا ما خمنته! لقد أدركت على الفور أنك ابن بلدي.

– أنت بنت من؟ (إنهم لا يسألون أبداً عن الاسم. يسألون دائماً ابنة من؟ – أو من أية عائلة؟)

– الدكتور أبغاريان.

– أوه، أما أنا فمن عائلة ميليكيان. أنا أعرف أن جدتك كانت من عائلة ميليكيان أيضاً. سآخذ منك سبعين روبلاً فقط. سآخذ ثمن المواد، ولن آخذ أجراً.

– هذا يخجلني. دعني أدفع كالآخرين.

– أنت تزعلينني يا أختي. إما أن تذهبي ولا تعودي إلى هذه الورشة، وإما أن تدفعي الذي ذكرته.

ساومته بشدة، ودفعت أخيراً مئة وعشرين روبلاً.

كنت عائدة من مخزن المواد الغذائية فإذا به يطلّ عارياً حتى الخصر من النافذة.

– انتظري، هل أنت نارينيه أبغاريان؟

– نعم.

– لحظة! يقفز خارجاً من الورشة وهو يركض ملوّحاً بكتاب.

– وقّعي لبناتي على هذا الكتاب. أنا أنتظر مرورك منذ أسبوع، لقد عرفت من الصورة التي على الكتاب أنك هي.

– ما اسميّ بنتيك؟

– داريا ومارينيه.

– هل أسرتك مختلطة؟

– آها، زوجتي روسية. قسمنا التسمية بالعدل.

– وماذا ستسمون الصبي إذا رزقتما صبياً؟

– إذا رزقنا صبياً، سنسميه اسماً مشتركاً.

– كيف ذلك؟

– سنسميه «مكسيم». إنه اسم ليس خاصاً بالروس ولا بالأرمن. ضحكنا معاً.

أضع علامة في الذاكرة – ستيبان ميليكيان، ابن أميرام ميليكيان، إسكافي. أشدّ شريط الذاكرة فتتحول الذكريات إلى شريط ميبيوس – ستعود إلى نقطة الانطلاق – مهما ذهبت بعيداً.

البيت الحجري والشرفة الخشبية التي كمد لونها بفعل الزمن، وحديقة أشجار التفاح الكبيرة، وشجرة التوت الموجودة حتماً في الفناء – في حزيران سيقوم أميرام بهز أغصان الشجرة بضربات خفيفة من عصاه فتتساقط الثمار الناضجة الحلوة، ويقوم أهل الدار بالتقاطها في شبكة رفعت فوق الأرض، وراح عصير الثمار الحلو كالعسل يلوّنها السواد.

الشبكة تردّ بنقرات متناغمة مع سقوط الثمار الشبيه بالتماع الشهب – بخ – بخ – بخ، فإذا اختبأت تحتها فستشعر أنك تحت تساقط سيل حقيقي من البرد. ستيبان الصغير يضع ظهره تحت الثمار المتساقطة، يصيح مبتهجاً، ويخرج سعيداً، لزجاً، مدهوناً من الرأس حتى القدم بعصير التوت.

إنهم يصنعون من الثمار الطازجة المربى والشراب المكثف، ومن الثمار المتخمّرة شراب (الساماغون) – مسكر قوي يصعب احتماله، أحمد الله إذا شربته وبقيت حياً. إنهم في بيرد يشربون ما لا يستطيع الغرباء احتماله. حقاً إن ما يبدو لإنساننا جيداً، يراه الآخرون مميتاً. وهذا هو سرّ بقائنا صامدين.

ينصفق باب الورشة بقوة – لقد ذهب ستيبان لاستقبال زبون جديد. أنا أقف ذاهلة في قلب موسكو. في الهواء يحوم نثار ثلج آذار. إذا لمسته بطرف لسانك أشعرك بطعم مياه الينابيع الجبلية ورائحة زهور الثلج.

نيسان

– شباب هذا الزمن أذكياء، لا تستطيع أن تقول لهم كلمة في غير محلها.

ياسامان العجوز تنفض عن مريولها ما علق عليه من نثرات غير مرئية. وتشمر كم ثوبها الأسود. تلفّ غطاء رأسها في عقدة ثقيلة عند نقرتها وتدلّي طرفه على صدرها. تجلس على طرف الديوانة التي ترسل صريراً، تضع يديها على ركبتيها وتهز رأسها بحزن.

– هذا ما قلته لميشكا – تزوج، مادمت تريد ذلك. أنا لا أستطيع منعه. أما هي، فبالإضافة إلى أنها ليست أرمنية، مولودة في المدينة، لا تعرف تقاليدنا، ولا تتقن تحضير الطعام وتقديمه للضيوف. حتى الغسيل نشرته كيفما اتفق، فاضطررت إلى إعادة نشره بسرعة حتى لا ننفضح أمام الجيران.

ياسامان تنهض بتثاقل، تخرج من درج الطاولة الصغيرة كيساً ورقياً صغيراً، تصب بضع حبيبات من البخور في إناء خاص، وتشعل عود ثقاب، فتنتشر في جو الغرفة رائحة الجو الكنسي.

– إنها ترسم شارة الصليب بشكل مختلف. نحن نرسمها من اليسار إلى اليمين، نبدأ من القلب. أما هم – فمن اليمين إلى اليسار. ينتهون إلى القلب. طيب، لترسم شارة الصليب كما اعتادت أن ترسمها، لكن، ألا تستطيع أن ترتدي تنورة لائقة؟ تنورة يسمح لك طولها، حين تنحني، ألاّ تشيح ببصرك كي لا ترى لون سروالها الداخلي. هل حالباها تحت إبطيها؟ هل هذا ما يجعلها لا تخاف الإصابة بنزلة برد؟

تستيقظ الساعة الجدارية. ياسامان تصمت في انتظار دقاتها العجوز. الساعة تطلق سعالاً متقطعاً، تدق السابعة، وتسكت.

– تنهض في الصباح – وتشرع تركض في القرية، يتطاير من حولها وحل نيسان. تقول هذه رياضة العدو. عن أية رياضة عدو تتحدث! الأبقار نفسها كفّت عن درّ الحليب بسبب هذا العدو. إنها تركض، وثدياها يهتزان. ثدياها – ليمنح الله الصحة للجميع. هي نحيفة كالعصاة، وحمالة ثدييها

(نمرة 4). حتى الأبقار يحسدنها.

ياسامان تمص شفتيها وتتنهد.

– المهم أنها لا تملك ذرة احترام. أنا، مثلاً، أخاطب أمها بلغة «الجمع». أقول – حيّاكم الله يا تاتيانا فلاديسلافوفنا، كيف أحوالكم يا تاتيانا فلاديسلافوفنا، كيف صحتكم يا تاتيانا فلاديسلافوفنا. أما كنّتي فلا تخاطبني بأي لقب يدل على احترام. إنها تناديني باسمي عارياً. أريد أن أحضّر مائدة الطعام – تقول لي «ياسامان» وتبدأ بتحضير المائدة. أريد أن أشطف الأرض، تقول لي – «ياسامان» وتأخذ المكنسة وتبدأ شطف الأرض. لم تقل لي مرة – ماما – جان، أو، على الأقل، ياسامان بتروسيفنا. لا أسمع سوى ياسامان، ياسامان.

وقد احتاج الأمر إلى استخدام احتياطيّ البلاغة كله لإقناعها بأن الكنّة لا تقول «ياسامان» بل «ياساما» [15] .

أيّار

عندي حلم أشتهيه دائماً – أن أرى نفسي صغيرة.

أن يكون عمري خمس سنوات، منتفخة الوجنتين، كربوجة، بشعر بلون القش لوّحته شمس أيار، أنتعل صندلاً مضحكاً على قدمين عاريين. أحب التحدث إلى الديدان، أطرح عليها الأسئلة وأنتظر إجابتها بصبر.

الديدان تنصرف عني وتلتفّ حول نفسها أو تغادر. تظل صامتة.

كان عندنا كلبة – صغيرة، طويلة الشعر، شقية، لعوب حقيقية، اسمها بيلكا. كانت ككرة الزئبق – تركض النهار كله في الفناء، وتحاول، إلى ما لانهاية، توضيح موقفها من ظلها، ساعية إلى تجاوزه. في حديقة ناني تامار نبتات عباد شمس نامية. ناني تامار لفّتها بأوراق جرائد، كيلا تنقر العصافير بذورها. لكن العصافير لم تستسلم بسهولة، مزّقت أطراف أوراق الجرائد وسرقت البذور. بيلكا كانت فزاعة ممتازة في حديقة ناني تامار – تفتش بصرامة كل نبتة عباد الشمس، فإذا وجدت في حدود الرؤية أي تشيريك – تشيريك معاد، تطير إليه نافشة شعرها، نابحة عليه بأعلى ما تستطيع، منقذة موسم عباد الشمس.

ذات يوم زارنا العم جورا، كان في ذلك اليوم أنيقاً بشكل خاص – سالفان كبيران، قميص ناعم يلتصق بجذعه، ياقته بفتحة واسعة، وبنطال فضفاض (كلوش). كانت فردتا بنطاله تلوحان حين يمشي فتتشابكان بين الفينة والأخرى، وتلتفان غلافاً حول ساقيه. بيلكا كرهت هذا البنطال في الحال، يبدو أنها رأت فيه تلويحاً وقحاً لإثارتها. أقعت متوثبة وراء شجرة التوت، وأذناها ترتجفان. وراحت تركض من حين لآخر إلى الحديقة – تنبح على عصابات العصافير، وعلى بنطال العم جورا حين تمر بجانبه. وكما لو أن الطبيعة تشاكسنا، كان ذلك المساء كثير الرياح، وراح بنطال العم جورا يرفرف بشكل يوحي أنه على وشك الطيران تجرفه الرياح. وفي إحدى المرات، حين مرت بيلكا راكضة بجانب البنطال، اهتزت فردتاه كجناحي وطواط ضخمين، هنا نفد صبر بيلكا، فأنشبت أسنانها بالبنطال ولم تتركه إلا مزقاً. لقد مزقته مستمتعة، منتشية، تهرّ من فرط تلذذها.

رفض العم جورا تبديل بنطاله، وعاد إلى بيته متنقلاً من دار إلى دار، ملتفاً بالعباءة في مواجهة الريح. وبّخنا بيلكا، بل ضربناها بالجريدة على أذنيها، فرسمت على وجهها قناعاً مزيّفاً يوحي بالاعتراف بالذنب، وراحت تركض في الفناء ركض مقاتل في مؤخرة العدو – تتسلل زحفاً، وتحرك

أقدامها بخطا زاحفة صغيرة، ولم تنتعش حركتها إلا عند قدوم سرب من العصافير. لكنها تصرفت بعناية حتى في طرد العصافير، ناظرة إلينا بطرف عينها لتعرف هل نحن غاضبون أم لا؟ وحين لمحت ابتسامة فاضحة على وجوهنا انطلقت بكل قوتها وهي تغص بنباح ملؤه السعادة. تنبهنا للأمر فرسمنا على وجوهنا علامات التهديد، فهدأت بيلكا في الحال، وتهدلت أذناها، وراحت تلوح بذيلها تلويحاً خفيفاً وهي تبتعد.

أذكر أني، وأنا في الخامسة، كنت أركض أطارد كلبتنا. نجتاز باحات الدور باندفاع – واحد، اثنان، ثلاثة، نقفز فوق الأسوار الخشبية المتهالكة، والنباتات البرية الشائكة، والشجيرات الكثيفة الأوراق، وتعلق بسيقاننا أوراق «الخبّيزة» العريضة. نركض أعلى، فأعلى، في الطريق القائظة، إلى حيث تنعطف انعطافاً حاداً، وتمتد في المنحدر نحو الأسفل – نحو كرم العنب الكبير، والغدير المزبد، وحطام القلعة الحجرية.

كنا نلتقط الهواء بصدورنا، وبأكفنا نلتقط الشمس، نمتلئ، ننغمر حتى أطراف أصابعنا بالسعادة.

لديّ حلم أشتهيه – أن أرى نفسي صغيرة، في الخامسة مثلاً ممتلئة الخدين، منمشة الوجه، بشعر له لون القش الذي لوحته شمس الجنوب، على ضفة النهر، ومعي بيلكا تتعثر بها قدماي. أعانقها، أضغطها إلى صدري، وأخلد للصمت.

أنا أتمنى ذلك إلى حد يجعلني، أحياناً، أؤمن بأن ذلك سيكون.

حزيران

حين لا أشتهي أبداً، أبداً أن آكل، ويكون الأكل ضرورياً، كان أبي يخترع الحكايات. لا، هو أولاً يحضر حتماً طعاماً بسيطاً. يسلق حبات بطاطا. يصب فوقها زبدة مذابة ويملّحها بملح خشن، ويقطع فوقها دوائر من البصل الحار المذاق. يجيء بجبن غنم أبيض، وقطعة خبز منزلي، وحبات من البندورة – الحلوة المكتنزة. ويأخذنا إلى كتف الرابية.

في ذروة الرابية يقف بيتنا الصيفي الصغير مديراً جانبه للشمس – بيت خشبي تصر ألواح جدرانه، وديوانة عريضة مغطاة ببساط مقلّم، ومدفأة معدنية. المدفأة تفوح منها رائحة الدفء والدخان، وكذلك رائحة مطر حزيران الذي يتساقط رذاذاً، وذلك، على ما يبدو، لأننا أوقدناها حين كان المطر يهطل خلف النافذة.

يضع بابا الطعام على صينية، ويقودنا إلى الشجرة الوحيدة المعمّرة التي تنتصب بغباء على كتف رابيتنا.

– لتجلس الكبرى إلى اليمين والوسطى إلى اليسار، – أمر بابا.

– وأنا؟ – تسأل غايانيه ذات الربيعين.

– أنت ستجلسين قبالتي وتصغين بانتباه.

قطع بابا البندورة والجبن، وقص رأس رغيف الخبز، غمسه بالزبدة، وأرسله إلى حلقه، مغمضاً عينيه.

– هم م م، ما أطيبه!

– وماذا بعد؟ – نستعجله.

– حسناً، هل تعرفون كيف سلقت هذه البطاطا؟

– نعرف، سلقتها بالماء.

– أنتم لا تعرفون شيئاً. لقد ذهبت في البداية إلى النهر. اليوم اجتمع هناك الكثير من السمك الذي راح يشق طريقه بصعوبة متدافعاً. السمكات لم تسمح لي بأخذ الماء وقالت: هذا الماء لا يكفينا نحن. لكني أفهمتها أني لا أريده لنفسي، بل للأولاد، فقالت السمكات: حسناً، خذ منه للأولاد.

أخذ بابا قطعة بطاطا ورقاقة بصل وأكلهما مع الجبنة البيضاء بتلذذ.

– يا إلهي، ما أطيب هذه اللقمة! – قال وهو يرفع رأسه إلى أعلى. رفعنا رؤوسنا إلى الأعلى. في الأعلى غيمة والشمس والريح، ولا شيء آخر على ما أظن. لكن بابا ظل ينظر وكأنه يرى أحداً هناك.

تبادلنا النظرات مترددين، واقتربنا من الخبز والجبن. وتظاهر بابا بأنه لا يلاحظ شيئاً، وتابع حكايته من حيث توقف:

– بعد ذلك أشعلت الموقد، وضعت البطاطا لتسلق. أما أنا، فتعرفون إلى أين ذهبت.

– إلى أين؟

– ذهبت لأجمع أوراق (اللوتيك) ونكّهت بها البطاطا. هل تظنون أن ما على البطاطا زبدة؟ أنتم مخطئون. في الجبال لا ينكّهون البطاطا بالزبدة، بل برحيق الزهور. هل هذا مفهوم؟

– مفهوم، – أجبناه وأفواهنا ملأى بالطعام.

كانت البطاطا المنكّهة بأزهار (اللوتيك) طيبة إلى حد لا يصدق. وقد جلس بابا، ونحن نلتهمها، إلى جانبنا وراح يتأمل الوادي.

على العشاء فتّ بابا في اللبن رغيفاً من الخبز ورش فوقه سكّراً ناعماً، وخلّط المزيج بالملعقة، وهو يقول لنا إن ما وضعه ليس سكّراً بل مسحوق عشب بري لزهوره رحيق حلو، أنتم تعرفونه، لا؟ حسناً، ستعرفونه الآن.

وقد علمنا أيضاً كيف نحارب بالنبات. يلف ساق النبتة حول تويج الزهرة المنفوش، ثم يسحب الساق بسرعة – فينطلق تويج الزهرة كالسهم، نستعمل هذا الأسلوب لحماية أنفسنا من الذئاب إذا أحاطت بنا من كل الجهات.

وعلّمنا كذلك كيف نصنع عقداً من أغصان الحناء، – مرّ بأسنانه على ذيل الغصن ليصبح أكثر مرونة، وغرس فيه إبرة – حصل على نصف حلقة، أضفنا إليه غصناً آخر فاكتملت الحلقة... للعقد رائحة الصمغ والمطر. يبدو أن سبب ذلك هو أننا ضفرنا هذه العقود حين كان المطر يهطل، ولم يكن لدينا ما نفعله غير ذلك.

وعلّمنا بابا أيضاً كيف نلعب لعبة «الحزازير» بسنابل الشعير. نسأل – ديك أم دجاجة؟ ثم نضع في يدنا رزمة من السنابل ونقطعها دفعة واحدة، فإذا كانت الرزمة مفلوشة وحادة – كان الجواب: «ديك»، وإذا جاءت مستديرة وملساء، فذلك يعني أن الجواب «دجاجة». أما جائزة من يربح هذه «الحزورة» فثمرة جوز محلاّة بالسكر، في حين يمنح الخاسر جوزتين، كنوع من المواساة.

منذ فترة وجيزة وضعت قائمة بالأشياء التي لم أعلّمها لابني بعد.

البند الأول في هذه القائمة كان عسكرياً: «كيف نحارب بالنبات».

تمّوز

تاتا قالت:– أقرب الناس إلى السماء العجائز والأطفال. العجائز لأنهم سيرحلون سريعاً، والأطفال، لأنهم غادروها منذ زمن قريب.

الأُول يخمنون رائحة السماء، والأخيرون لم ينسوها بعد. لقد كنت صغيرة وغبية. لم أكن أستمع للنصائح جيداً، كنت (شقية). وكنت أتساءل – ترى ما الذي يجدونه معقداً في هذه المسألة؟ رائحة السماء هي الهواء. إنها تارة دافئة، وتارة حادة، أو هي رائحة المطر حين يهطل المطر، أو الثلج حين يهطل الثلج. وعموماً، هي ذي السماء، قريبة جداً، يكفي أن تقف على رؤوس أصابعك حتى تلمسها. حين تعيش على حافة الوادي الأزرق سيكون سهلاً عليك تماماً أن تطال السماء.

تاتا قالت – ها هو ذا أخي الأصغر، مثلاً. وصمتت. كنت جالسة إلى جانبها، أعبث بطرف كمها. انتظرت أن تكمل عبارتها، لكنها ظلت صامتة. لعلّها كانت ترى ما سيحدث ولم ترد أن تكدّرني. ولعل كل ما أرادت قوله لي قالته. ها هو ذا أخي الأصغر، مثلاً، والباقي صمت.

تاتا رحلت منذ زمن، وأنا الآن أكمل حديثها – ها هو ذا أخوك الأصغر، مثلاً. عجوز شقي، اعتزل الجميع، حتى أولاده. عبقري مجنون، انغلق على نفسه إلى الأبد... أكملُ الكلام – أكتبُ ما لم ترد أن تقوله لي.

كنت أحياناً أتبعها كذيلها. أذهب حيثما تذهب. أتبعها صامتة. خطوة بخطوة. تاتا كانت تتظاهر بأنها لا تلاحظني، تتشاغل بأمورها. لكنها كانت تفكر بصوت مسموع، تقول: ها هي ذي كنة ياسامان الصبية، مثلاً، نشرت الغسيل بشكل يتضح منه فوراً أن البنية ليست من مناطقنا. يجب كما هو معلوم، أن نراعي عند نشر الغسيل نوعه وطرازه، ولونه، القطع الصغيرة هنا، والكبيرة هناك، والألوان الغامقة أقرب إلى الشرفة، والفاتحة أبعد منها.

وقفنا معاً، وغطينا عيوننا بكفينا وبالطريقة نفسها، من ضوء الشمس، ورحنا نلاحظ كيف يخفق غسيل كنة ياسامان في مهب الريح بلا معنى.

قرصانان، كبير وصغير: هي وأنا.

كانت تاتا تحب في صمت. تضمك إلى صدرها – ثم تتركك بسرعة. تقبّل ذروة رأسك برفق وحنان، تناديك باسمك الكامل ولا تلجأ إلى ألقاب الدلال. تنظر إلى العينين، لم تحد ببصرها إلا مرة واحدة، حين سألتها ذات يوم عن مرضها. هي لم ترد أن تخدعني. فيما بعد، بعد أعوام كثيرة، رأيتها في المنام. كانت تنظر من أسفل إلى أعلى، من تحت حاجبيها، لم تبتسم. أنا فهمتها، لم تبك، لم تطلب السماح. حاولت معانقتها، فأشارت تمنعني بحركة من يدها – لا، ليس الآن. منذ ذلك الحلم وأنا أحاول أن أغفر لنفسي الخطأ الذي ارتكبته قبل سنين كثيرة. خطأ لن أرويه حتى لابني، سأظل صامتة.

يا بني، هاك حياتي، مثلاً... والباقي صمت. إن خمّنت ما كنت سأقوله، سترويه بدلاً مني فيما بعد.

أنا لم أعد صغيرة منذ زمن بعيد، والأرجح أني لست غبية أيضاً. أنا لا أعرف كم من الأيام مقدر لي أن أعيش، وهل سيحلّ غد في وقت من الأوقات.

لكني متأكدة من أمر واحد تأكداً تاماً – رائحة السماء كرائحة يديّ جدتي. إنها رائحة الخبز

الطازج والتفاح المجفف والبخور.

آب

شهر آب يحل قبل الوقت الذي تتوقع حلوله فيه، قبل أن تكون مستعداً كي تدرك أن الصيف، الذي بدا لك أبدياً، يوشك أن ينتهي. يوشك على الرحيل.

الأيام حارة، خانقة، والسمك ينام تحت الحجارة، والعشب على ضفاف الأنهار ييبس، إذا فركته بين يديك لا يبقى منه غير حفنة من الغبار.

منتصف النهار يستثير صخب الجنادب، ومنتصف الليل – غناء الزيزان. وهكذا تعيش – من الجنادب إلى الزيزان. إذا صمت هؤلاء – يحل الخريف، يرسل أمامه سلسلة من الغيوم نحو الشرق، نحو الشرق، للقاء الشمس. لا تنتظر الشمس – فهي لن تأتي قبل الربيع.

سقف الشرفة تتدلى منه كله حبال السجق المعلقة كي تجف.

– عوّ، عوّ، تبكي بيلكا.

– اخرسي! – تقول لها تاتا. – أنت لست كلبة، أنت فضيحة.

بيلكا تخبئ أنفها بكفيها. أذنها اليسرى تتدلى جامدة – ملفوفة بالضماد. كانت تعدو دون وعي، اصطدم رأسها بالسور وانحشر فيه. أخرجناها بصعوبة. انشرمت أذن الغبية، وهي الآن تشكو ألمها للجميع.

– ترى أين كانت عيناك؟ – تسأل تاتا.

بيلكا تنظر بطرف عينها خجلة إلى سقف الشرفة.

– آهٍ منك، تقول تاتا متنهدة، تقطع بعض السجق وتطعم الكلبة بيدها.

في شهر آب الزمن يبطئ سيره ويغير حقيقة الأشياء. إذا وقفت إلى يسار شجرة الخوخ العطرة ذات الجذع الأعوج، ونظرت إلى الأعلى، يبدو لك أن ذيل مغرفة «الدب الأكبر» يجرّ مدخنة موقد بيت الجيران. ترى من الأقوى، البيت أم النجوم؟ ها هو ذا البيت، إنه هنا، قريب جداً، تفوح منه رائحة الحجر والخبز وأيدي الناس. أما ماذا هناك عند النجوم، في أفقها السماوي البعيد – فلا أحد يعلم إلا الله.

ماتت حماة زانازان. حملوا النعش في عربة قديمة وساروا به نزولاً في طريق القرية.

– تشو، تشو، – راح سائق العربة يستعجل الحمار الصغير. وراح الحمار الصغير يخطو بأظلافه المهترئة، ويبكي بدموع غير مرئية.

دفنوها إلى جانب ابنها وحفيدها الذي ولد ميتاً. زانازان تنظر بثبات. الريح تهز ضفيرتها النحاسية على كتفها. مسكينة، مسكينة زانازان، لقد بقيت الآن وحيدة تماماً. في هذه المدينة فقد الجميع عقولهم بسبب الحرب، ولكن أحداً لم يدرك ذلك. زانازان وحدها من يعرف، إنها تعرف ولذا تظل صامتة.

في آب، السماء أخفض من الجبال، النحل كسول وبطيء الحركة، الليالي هادئة بشكل لا يطاق، وفي الصباح يتساقط الندى، حتى أنك تستطيع جمعه بيدك.

– لقد انقصم ظهر الصيف، – تقول تاتا.

الوداع أيها الصيف، الوداع.

أيلول

الزبونة الأولى التي ركّب لها بابا فكاً اصطناعياً كانت صديقة أم جدته شاراكان، ذات التسعين عاماً.

– لماذا الذهاب إلى أخصائيين آخرين ما دام ابننا يوريك – طبيب؟ – هكذا قدّمت شاراكان حجتها القاطعة وقادت صديقتها إلى ابن حفيدها الذي لم يبدأ العمل في المستوصف إلا قبل أسبوع بالضبط.

شعر بابا بقلق كبير. كيف لا، وقيامه بتركيب فك اصطناعي لأول مرة في حياته هو عملياً حفل عماد قتالي. تماسك بشكل ما، وخلط الجبس، وحشا به، دون قصد حنجرة الزبونة. خاف أن تختنق، فراح يجرفه بسرعة. أدركت شاراكان أن ابن حفيدها ارتكب خطأ ما، فأزاحته بكتفها، وابتسمت لصديقتها ابتسامة مضيئة.

– كل شيء على ما يرام يا فاردانوش، كل شيء على ما يرام.

ردّت عليها فاردانوش بصرخة ألم.

– يوريك – جان، – خاطبت شاراكان ابن حفيدها لائمة. – الإسمنت الذي أضعته عليها، يكفي لبناء منزل من طابقين، وحظيرة للمواشي. لمَ كلّ هذا التبذير؟

– لقد أخطأت قليلاً في المقادير، – تمتم بابا معترفاً بذنبه.

أشفقت شاراكان عليه.

– لا تهتم، ستتقن كل هذه الأمور. المهم أن تتعلم كيف تكون مقتصداً، – قالت له، ثم وقفت على رؤوس أصابعها وراحت تمسّد كتفه.

حان يوم القياس. جاءت العجوزان إلى المستوصف أنيقتين، بمنديلي رأس أبيضين، ومريولين حريريين. أجلست أم الجدة صديقتها على الكرسي، ووقفت إلى جانبها، ودعت ابن حفيدها للعمل بحركة من رأسها.

طلب بابا من فاردانوش أن تفتح فمها، ووضع لها الفك المصنّع، فسرت القشعريرة في جسده – الأسنان بدت أكبر بثلاث مرات تقريباً من الأسنان الآدمية. وقد بدت فاردانوش بهذه الأسنان كحوت الإمبريالية المرسوم على صفحات مجلة «كروكوديل» الساخرة.

– أغلقي فمك، – أمرتها أم الجدة.

فاردانوش أطبقت بأسنانها العلوية على السفلية باستسلام. أما إغلاق الفم فلم يكن وارداً، فشفتا الزبونة كانتا بالكاد تلمسان أطراف اللثة الاصطناعية.

– فاردانوش – جان، إنها أسنان رائعة، إنها ببساطة، رائعة! – قالت شاراكان بصوت يرن كالجرس، وابتعدت عن الكرسي إلى حيث لا تراها صديقتها.

– يوريك، لماذا صنعت لها أسنان حمار؟ – سألته بهمس مكتوم.

فاردانوش ابتلعت ريقها.

– إنها ليست أسنان حمار، – قال بابا مستاء.

– إنها حقاً ليست أسنان حمار، وإلا لمات الحمار من الجوع، لو كانت له مثل هذه الأسنان. إنها لا تصلح لمضغ شيء!

فاردانوش نزلت عن الكرسي، أخرجت الفك الاصطناعي من فمها بإصبعها، وضعته على الطاولة وقالت:

– يا بنيّ! حين تقصّر هذه الأسنان قليلاً، استدعِنا. أما الآن فأنا ذاهبة إلى البيت.

قالت ذلك واتجهت نحو الباب. أم الجدة لحقت بصديقتها وهي تتنهد. وعند العتبة التفتت إلى الوراء:

– يوريك – جان، المهم هو أن تتعلم كيف تقتصد. انظر: إذا قصصت هذه الأسنان عرضانياً فسنحصل على فكين طبيعيين. قصها فنعطي واحداً لها، أما الثاني فسأستخدمه أنا، فمن غير المعقول أن نرميه في النفايات.

وذهبت.

لقد صنع بابا فيما بعد، فكاً اصطناعياً مناسباً طبعاً. لكن فاردانوش استخدمت الفك ذا الأسنان الضخمة، في أثناء عمل أبي على الفك المناسب، غير أنها صارت تضع خماراً على فمها كعادة نساء كاراباخ، كيلا تخيف الناس، أو يتسبب برد أيلول المسائي بالتهاب حنجرتها.

تشرين الأول

في بيرد يجري الزمن بشكل مختلف تماماً عما في المدن الكبرى، إنه هنا بطيء وممطوط كنهر في آب الذي نسي الأمطار. أحاول أن أعتاد من جديد على كل ما فقدت الاعتياد عليه في المدينة، – الصوت الصاخب لجهاز الساعة الميكانيكية التي تدق كل نصف ساعة دقة ثقيلة كالسعال، ونباح الكلاب في الدور، وأصوات الطيور الداجنة غير الراضية، والطعم الحامض للخبز المنزلي المصنوع من عجين مختمر، وأكوام الحطب المصفوف بعناية والمغطى بالقماش المشمع لحمايته من الرطوبة – أتذكرون رائحة الحطب المقطّع؟ هل تعرفون ما هي هذه الرائحة؟

النوم مؤسف في بيرد. في الساعة الخامسة صباحاً ليل دامس وراء النافذة، بيوت حجرية صامتة، وأشجار خريفية لم تسقط أوراقها كلها بعد. القمر معلّق فوق «خالي – كار» كرحى طاحون بطيء الحركة، بواكير الندى تتساقط دون ضجة، تمنح العشب وعرائش الكرمة الدبقة – إنها هنا تلف برداء أخضر حتى واجهات البيوت ذوات الخمس طبقات، ناهيك عن البيوت الخاصة ذوات الشرف الخشبية المزججة، – عناقيد تشبه الكرات الزجاجية التي تزين شجرة الميلاد.

في مركز المدينة الصغيرة تنتصب كنيسة جديدة بيضاء – أنا وأختي نشيح ببصرنا حين نمر بجانبها، إن لها جدراناً ملساء مرتفعة ومظهراً رزيناً، وهي تعلو بقبابها فوق السقوف القديمة القرميدية والخشبية، وفوق المداخن المعوجة لمواقد الحطب، وأشجار الجوز والتوت المعمرة، وفوق العالم. هل صحيح أنه كان من الضرورة العاجلة بناء كنيسة جديدة في هذه المدينة الحدودية العاطلة عن العمل، حيث توجد كنيسة صغيرة قديمة من القرن الثاني عشر ولكنها صالحة تماماً لأداء عملها؟ أما كان لديهم ما يهتمون به غير بناء هذه الكنيسة؟ أنا لم أفهم ذلك أبداً ولن أفهمه، ولذا أشيح ببصري عنها حين أمر بجانبها. الرب ليس هناك في المكان الذي يحدده له الناس، الرب موجود في كل مكان.

سرنا في الطريق المؤدي إلى المدرسة. إلى الأسفل، نحو الجسر الكبير، ثم إلى الأعلى – فوق الرابية. أختي روت بشكل مضحك كيف كانت ذات يوم عائدة إلى البيت بعد المدرسة، كان ذلك اليوم مضجراً لا يعد بشيء غير مفاجئ، مشت في الطريق تجر حقيبتها المدرسية الثقيلة، وتحرك عنقها متأملة مناظر تشرين الأول الطبيعية الكئيبة. وفجأة ظهرت دراجة تنحدر من أعلى التلة – أختي استطاعت أن تعرف أن راكب الدراجة هو ابن جارتنا العمة سيلفيا، ذو العشرة أعوام، كان يقود الدراجة بثقة كبيرة دون أن يحاول التخفيف من اندفاعها، انحدر بسرعة عالية من فوق التلة واصطدم بالحاجز فوق الجسر، وبتمالك للنفس لا يعقل، وبرزانة، ومن دون أن يفقد الهدوء في تعابير وجهه، رسم في الهواء قوساً جميلاً وهوى نحو الأسفل. أسقطت أختي الحقيبة من يدها خوفاً. ولم تتجرأ فتقترب من حافة الجسر، لكنها أصاخت السمع، فلم تسمع سوى صوت ماء النهر، فهرعت إلى العمة سيلفيا. كانت العمة سيلفيا تنشر الغسيل وحين رأت ابنة الجيران المذعورة لم تطرح أسئلة لا لزوم لها، بل اندفعت في ثوبها المنزلي ولفافات شعرها المعدنية، لإنقاذ ابنها. وتحت الجسر، في كومة أغصان الشجيرات المتكسرة، جلس آرايك محاولاً ألا يحرك ساقه المكسورة، وهو يصلح دراجته صامتاً متوتراً.

المدينة تتغير. إنها لم تعد مدينتي، بل هي لم تكن مدينتي أبداً، لا تحدثوني عن هذا الأمر، أنا لا أريد أن أعرفه. أجول أنا وأختي في الشوارع الصغيرة القديمة، نبحث عن الأماكن التي ألفناها في طفولتنا، بل نبحث، في الحقيقة، عن أنفسنا – وراء أسوار الجسر، على سقف موقد متهدم، في ظل شجرة ضخمة – نحن كبرنا، أما هي فبقيت كبيرة كما كانت، هل لاحظت كيف تشيخ الأشجار محتفظة بجمالها؟ – أسأل أختي، فتهز رأسها إيجاباً وتقول: أعرف ذلك.

في العالم جمال كثير – شلالات تنهال من علٍ، سهول تغطيها رمال ذهبية، سلاسل جبال مسننة الذرا، حقول مزروعة لا نهاية لها. وكل هذا الجمال ليس لي. الجمال الذي لي موجود خلف الأسوار المعوجة، ووراء العتبات الحجرية المنخفضة، وأرضيات الغرف التي ترسل صريراً، ومصابيح الكاز التي ينبعث منها الهباب، والأحواض الفخارية، والعنق الضيق لإبريق جدتي النحاسي. الجمال الذي لي موجود حيث لم أعد موجودة.

تشرين الثاني

شهر التأملات، شهر المعاناة، شهر مذاقه حاد، عطر، تفوح فيه رائحة الرمان والجوز، الكيوي الحلو – المز الذي يسودّ مقطعه سريعاً.

تاتا تغطّس لب الجوز بالعسل، وتضع يدها تحته كي لا تسقط نقاط العسل على غطاء الطاولة، وتمدّها إليّ – هيا، كلي.

آكل.

– هل سمعت صيحات اللقالق؟ – عينا تاتا ذهبيتان، ورموشها طويلة. على صدغها، فوق مستوى الحاجب بقليل عضلة وحيدة تنبض.

– سمعت، – أقول مدمدمة.

تتظاهر بأنها صدقتني

– ألا تعرفين ماذا يقولون؟

– لا.

– يقولون: سنعود.

تقطع تاتا قطعة من رغيف الخبز المنزلي المدور، تنزع ما بداخلها من خبز طريّ جانباً – هذا للدجاج. تضع بدلاً منه لبّ الجوز وتقدمه لي.

آكل.

– تاتا! هل تفهمين لغة اللقالق؟

– لا.

– إذن كيف تعرفين ما يقولون في صيحاتهم؟

– جدتي أخبرتني بذلك.

– وهل صدقتها؟

تاتا تنظر إليّ بعينيها اللوزيتين.

– نعم.

تشرين الثاني

الضباب صار أشد كثافة، لا يخترقه البصر، يغادر ببطء، ومن دون رغبة، يتمسك بذيول تول الستائر، وبالأسوار الخشبية. تناهى إلى السمع نداء النهر البعيد – نهر بارد، مزبد، يجري سريعاً، لاهثاً، يسابق نفسه، يحدث كل من يصادفه عن الثلج الذي يزحف على المنحدر الجبلي، فهو رآه، ويعرفه.

– أتريدين نبيذاً؟ – العم جورا يمد لي الكأس الفخاري.

– هل تسمحون لي بذلك؟

– هذا نبيذ عمره ثلاثة أيام، إنه طازج تماماً. حين يختمر – سنمنعه عنك، أما الآن فنسمح لك بشربه. هيا، اشربي.

أشرب.

الخمر يدغدغ أنفي بحلاوته. أمتص شفتي.

– إنه طيّب، يشبه الليمونادة.

– نعم، إنه طيّب.

العم جورا مجنون بعض الشيء. بابا يقول إنه عبقري في الرياضيات. ذات يوم لم يحتمل عقله التوتر فجن. في تشرين الثاني من كل عام يعاني العم جورا معاناة شديدة. يهيم في الغابات، يتغذى بالنباتات البرية وثمار (الموشمول) غير الناضجة، يتأمل السماء ساعات طويلة ويحرّك شفتيه دون صوت، وكأنه يحادث أحداً ما. يرسم بغصن جاف فوق الأرض الرطبة صيغاً رياضية غريبة، وبعد ذلك يمحوها ويبكي.

في أواخر الخريف يبكي العم جورا كثيراً، فالشتاء قادم وهو يشعر بذلك.

المساء تفوح فيه رائحة خوار البقر، ومزيج البوابات الصدئة، ومواقد الحطب. ناني تقطّع البطاطا فصوصاً صغيرة وتصفّها فوق الموقد المتوهج، وترشها بالملح الخشن، فتكتسب قطع البطاطا

قشرة حمراء، وتطقطق، ناني تقلبها على الوجه الآخر بحرف السكين.

أنا أزيح مزلاج باب الموقد بالملقط، أفتح الباب، أقلّب الجمرات.

الموقد يهدر مبتهجاً ويتنفس دفئاً.

– تسليك أمرام لم يتوقع هذه الخيانة. صعب أن يتصور المرء أن الزوجة المحبوبة خانتك مع القيصر الذي خدمته بإخلاص طول حياتك! لذا سجنها في القلعة وأشعل عصياناً ضده، وحين هزم – أهدى إمارته إلى قيصر جورجيا كيلا يستولي عليها القيصر الأرمني.

– وماذا حدث بعد ذلك؟

– ماذا حدث بعد ذلك؟ الأميرة شنقت نفسها في القلعة – لم تحتمل العار. وأعاد قيصر جورجيا أملاك تسليك أمرام إلى قيصر أرمينيا، فهو وقيصر أرمينيا ابنا عمّ، وهما الاثنان من آل باغراتوني. وبقي تسليك أمرام خالي الوفاض – لا زوجة، ولا إمارة، ولا نفوذ.

تتنهد ناني وتهز رأسها.

– على حافة الرابية امتدت القلعة القديمة، يلف الضباب العائد في المساء حطامها بغلاف شاحب كتيم. وفي مكان ما بين هذا الحطام الغارق في الضباب يهيم حتى اليوم شبح الأميرة أمرام.

– وماذا حل بتسليك أمرام؟

– لست أدري، أغلب الظن أنه مات ألماً، فمن الذي يستطيع أن يحتمل مثل ذلك الألم؟

تضع ناني في إناء سميك القاع حبات بطاطا مشوية، تدهن كل قطعة منها بالزبدة المذابة، وتضع فوقها قطعة من الجبن الأبيض، تنفخ عليها كي تبرد سريعاً، وتقدمها لي:

– كلي.

آكل.

كانون الأول

يحلّ الشتاء على المنحدر دفعة واحدة، دون إنذار، يطلق الأصوات بسخاء، ويمحو الألوان، كأن تشرين الثاني لم يكن البارحة بثماره الزرقاء المغبرة، وبرائحة نبيذه الذي بدأ يختمر – إنه الآن يخرّش الحلق، ومذاقه حلو، وفي أواسط كانون الأول سيمتلئ بطعم حامض تشوبه مرارة. وسينسكب في الكؤوس بسهولة. من يسكر يعرف ثمن هذه السهولة – شربت فأكثرت قليلاً – معنى ذلك أنك ستنام كالحجر نوماً عميقاً حتى الصباح.

حين يحلّ الشتاء على المنحدر ينتهي الكلام عند الناس فترة من الوقت. إنه خرس صحيّ ومبارك – اصمت، انظر عبر النافذة، تآلف مع نفسك. لا شيء يستطيع أن يخفيك عن نفسك، ويحميك منها، – لا صخب الخريف الفوضوي، ولا أمطار الصيف السريعة الزوال، ولا زقزقة الطيور في الصيف. لا شيء سوى «أنت مقابل أنت».

هناك وراء أكتاف المنحدر، – سكان بحر الثلج العمالقة، إنهم باتوا قلائل، لكنهم موجودون – صلبون، قساة، أناس كالصخر؛ كلّ منهم – قطعة من قلبك، كلّ منهم – نفحة من روحك. سيمرّ أكثر من سيل ثلجي، قبل أن يصبح الدرب المؤدي إلى هناك سالكاً من جديد. أما الآن – فلا علاقة بين

العالم الخارجي وبينهم في بحر الثلج، في السكون البراق، الأصمّ، الطاغي.

حين يحلّ الشتاء على المنحدر، يقوم، قبل كل شيء، بإخراج الألعاب من أكمامه، يشكّها في خيط متين، ويعلقها على غصن شجرة سرو، ثم يشعل الأضواء. تمتعي بالمنظر، وعدّي الأيام على أصابعك: آنّا إلاهة الظلام – في ساعة صراع القوى المرعبة مع النور الإلهي؛ أشباح صامتة في حذر، صراخ مولود في أحشاء امرأة، دمى ميلاد مزيّنة متعدّدة الوجوه، أفاناسي لومونوس طارد الغيلان، محطّم قرون الشتاء أونيسيم – الراعي، فاريسيينا السبعاوية، أسبوع يوم القيامة...

ملأت صدرك بالهواء، وكأنك انهرت، في بلاد الحيّات ذوات الثلاثة رؤوس، وطيور السعادة، وسكان وساكنات المستنقعات، والذئاب الرمادية، والفتيات الحكيمات. المهم أن يكفيك الهواء حتى تخرجي من الماء.

بعد ذلك تابعي مسيرك وحدك، وحدك، عبر الماء المتجمد، على ظهر سمكة سوم، في الضوء الشاحب لنجمة وحيدة – إلى هناك، حيث ينسج الشتاء لوحات الدَّانتيل المطرزة، حيث ينام الأطفال متكوّرين كالكعك، حيث ترتل الجدة الأرمنية أدعيتها، وتفسر الروسية أحلامها على الماء، وتصلي أمام تجويف فارغ في الجدار. تذكّري كل ما يرويه لك الأموات، لأنهم لا يتقنون الكلام إلا في الليالي المثلجة. الأجداد العمالقة يعرفون ذلك بدقة، كانوا ينتظرون الأموات، يشعلون النار في المواقد، يبقون لهم القليل من الطعام فقد يكونون جائعين، ويبقون الشراب، فقد يرغبون في السكر. المهم ألاّ تضجّي وتكثري من الحركة. أغمضي عينيك، استمعي، اصمتي. إنه الشتاء – زمن أولئك الذين رحلوا.

كلمة الختام

هاكم ما أردت أن أقوله.

الموجع إلى أقصى حد ليس المدن التي نتركها خلف ظهورنا، ولا الشوارع التي لن نمشي فيها بعد اليوم، ولا الأشجار التي لن تهسهس تحت نوافذنا، ولا النجوم التي لن نستطيع الوصول إليها.

هذه البوابة نصف المهترئة ذات مزلاج أكله الصدأ صنعه قبل مئة عام جد جدك الحداد فاسيلي – الإنسان الصارم، الذي لا ينحني أمام الصعاب، والذي تحبينه بلا حدود، بلا حدود.

تأخذين المزلاج على سبيل الذكرى، وبغباء لا يغتفر تتركينه في حقيبة يدك، فيأخذه منك حراس مطار آرغوس الذين لا يغفلون عن شيء – غير آبهين بتوسلاتك.

ويلقون بالمزلاج حيث يجب أن يكون بحسب قوانين الزمن، بحسب قوانين الزمن لا بحسب قوانين قلبك، وهذه القدر ليست قدر أم جدتك – القدر النحاسية ذات الحواف غير المستوية، الملحومة، والمرقّعة، الراقدة في كومة من خيوط العنكبوت، إذا دققت النظر فيها فسترين عليها نقشاً يمتد على جنبها الأعوج البائس، كتب فيه: "أناتوليا ابنة الأب موفسيسي أفانيان، عام 1897».

لم يعد هناك من يُحضَّر لأجله في هذه القدر البرغل المملّح والمقلّى بالزبدة المذابة المحماة حتى اسوداد لونها، لكن إذا اغمضت عينيك بشدة فسيمكنك أن تري لثانية أم جدتك تقلّب الطبخة بالملعقة الخشبية.

إنها صغيرة جداً، نحيلة، ضفائرها طويلة تتدلى على كتفيها.

وفي داخلها من الحب ما لن تستطيعي أبداً أن تحيطي به، لكن ما يُسمح لك به الآن هو أن تحتفظي في قلبك بصورتها إلى أن تلتقي بها هناك على عتبة العالم الآخر فتقول لك – منذ الآن،

أنت ستكونين معنا إلى الأبد يا ابنتي.

وهاكم ما أردت قوله أيضاً.

الموجع إلى أقصى حد، هو أن المدن تموت في اليوم الذي نغادرها فيه بالضبط – قد تموت مؤقتاً، وقد تموت إلى الأبد. إنها توصد بكل الأقفال، تندثر في الغبار والرماد، تتحول إلى خيال، إلى سراب. نحن نندفع راكضين إلى الوراء – نحن الأبناء والبنات الضالين – نندفع قفزاً، وثباً، تسابقاً مع قلوبنا.

إلى المكان الذي لم يبق فيه أحد منذ زمن بعيد.

لقد استغرق نضوجنا وقتاً طويلاً.

لقد قضينا وقتاً طويلاً حتى تعلمنا التمييز بين الحَبّ والقشر.

الموجع إلى أقصى حد هو استحالة أن تعانق أولئك الذين لم يتمكنوا من انتظارك حتى تأتي.

Notes

[1 ←]

فوسكي – الذهبية.

[2 ←]

المينتان – ثوب العرس أو الاحتفال.

[3 ←]

القديس المنور غريغوري.

[4 ←]

الموتاكا – مسند مستطيل يوضع على الديوانة.

[5 ←]

الغرفانكان: وحدة تعادل 408 غرامات.

[6 ←]

(شلاباكا) ومعناها: القبّعة.

[7 ←]

(شالفار) ومعناها: الشروال.

[8 ←]

آيريك – الأب (باللغة الأرمنيّة).

[9 ←]

صهر الملك.

[10 ←]

ييي بوغو – كلمة روسية معناها (واللهِ).

[11 ←]

الهريسة: قمحيّة باللحمة.

[12 ←]

نوع من الاكتئاب العميق.

[13 ←]

خوخوبيه: لحم طير مطبوخ مع البصل وحبّ الرمّان.

[14 ←]

أعاري: كلمة بربريّة تعني «الجبل».

«يا ساما» – تعبير باللغة الروسيّة، بالصيغة المؤنّثة، معناه – أنا سأفعل، والصيغة المذكّرة لهذا التعبير هي «يا سام».